

مَنْهَجُ الْأَنْبِيَاءِ  
فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ

محمد روزين العابدين

دار الجابية

لندن - بريطانيا



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

دار الجابية

لندن - بريطانيا

DAR AL-JABIA

P.O.Box:508 London UB5 9GF

daraljabia@gmail.com

لمزيد من مراسلة المؤلف

meshayib@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٠١﴾  
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ  
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ [يوسف]

﴿١٠٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَاهِهِمْ أَقْتَدِ ۗ  
فَلَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنَّا هُوَ إِلَّا

ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ [الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف]

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدُهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام]

قال رسول الله ﷺ :

«أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة من علات، وأمهاهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبي».

قال العلماء: أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام، هم الإخوة لأب من أمهات شتى.

صحيح مسلم، كتاب الفضائل.

### مقدمة الطبعة الخامسة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء] ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فعملي في هذا الطبعة [الخامسة] هو التالي:

أولاً: أعدت قراءة الكتاب، وصححت أخطاءه، وهذه هي عادتي في جميع الكتب التي أعيد طباعتها.

ثانياً: حذفت مقدمة الطبعة الأولى، وذلك لسببين:

السبب الأول: تحدثت فيها عن مشروع كبير، ثم وجدت نفسي غير قادر على انجازه.

السبب الثاني: وردت في الطبعة الأولى عبارات وجددها الخصوم مدخلاً لشن

هجوم ظالم على شخصي لأغراض أخرى لا علاقة لها بالكتاب ولا بهذه العبارات، وحذفها لا يغيّر ولا يبدّل شيئاً.

ثالثاً: أضفت فصلاً جديداً سميته [دحض شبهات المبطلين] بينت فيه أسباب وخلفيات الضجة التي أثاروها حولي وحول الكتاب، ومع كرهى لسياسة الردود، فقد وجدت نفسي مضطراً لسلوك هذا المسلك، لأن المبطلين الظالمين وجدوا من يصدّق مقولتهم، ويمشي في ركا بهم أو تستقر شبهاتهم في نفسه ويبقى صامتاً، فلا ينبغي لي في هذه الحالة أن أعيد الكتاب ثم أتجاهل هذه المسألة بالكلية.

رابعاً: جمعت الجزأين في كتاب واحد، وأبقيت للجزء الثاني: شعيب عليه السلام مقدمته، وأرجو أن يكون ما فعلته أنفع للقارئ.

اللهم لا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتب في سبيلك، فبعزتك لا تدخلني النار، اللهم آمين. وصى اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

**محمد سرور زين العابدين**

**عمان ١٨/١٠/١٤٣٣هـ**

**الموافق ٥/٩/٢٠١٢**



## دحض شبهات المبطلين

صدرت الطبعة الأولى من كتابي هذا [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] بتاريخ ١٠ / ١ / ١٤٠٤ هـ، ثم توالى الطبعات خلال بضع سنين دون أن أجد الوقت المناسب الذي أراجع فيه الكتاب، وأصحح ما ورد فيه من أخطاء، وهذا شأني في جميع مؤلفاتي، ورغم انتشار الكتاب الواسع لم يصلني من القراء أي نقد لما ورد فيه إن لم يكن الأمر عكس ذلك.

وفي عام ١٤١٣ هـ ثارت عواصف هوجاء من النقد والتجريح والتسفيه ضد الكتاب ومؤلفه، ولم يكن الذي فجر هذه العواصف شخص واحد، ولم تكن الآثار قاصرة على بلد عربي واحد، بل ولم تستهدف هذه المعركة خطأً أو أكثر من ذلك ورد في الكتاب... فلماذا صمت هؤلاء تسع سنين؟، مع أنني أعلم جيداً أن بعضهم كان قد قرأه ولم يجد فيه هذه الانحرافات العقديّة التي رآها فيما بعد.

إن لهذه المعركة الظالمة قصةً نوجز الحديث عنها فيما يلي:

بعد احتلال قوات الرئيس العراقي السابق صدام حسين لدولة الكويت، انقسمت الأمة - كل الأمة - بعلمائها وأحزابها وقادتها إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** وقف إلى جانب الرئيس العراقي صدام حسين، فالقوميون رأوا فيه بطلاً قومياً، سيوحّد الأمة العربية ويعيد إليها سالف مجدها، ويبعث فيها روح

العزة والكرامة. والإسلاميون لم يلتفتوا إلى مبادئ حزبه المناهضة للإسلام، ولا إلى استبداده وجبروته وطغيانه لأنه قد تاب من كل ماضيه، وأصلحه الله بين يوم وليلة، وما يدرينا أنه سيكون مثل صلاح الدين أو أعلى شأنًا.

**والقسم الثاني:** وقف إلى جانب دول الخليج، وتذكروا عقيدة حزب البعث، وتاريخه الأسود، وما فعله خلال عقود في كل من العراق وسورية. وبعض هؤلاء كانوا قبل عدوان صدام على الكويت يثنون عليه، ويصدقون مقولة توبته، وهكذا تبدل المواقف بين عشية وضحاها. وإضافة إلى ذلك كله فقد أيد هؤلاء جواز استعانة دول الخليج بنصف مليون من القوات الأمريكية ومعها قليل من قوات الدول الأوروبية والغربية.

**القسم الثالث:** لم يحسن الظن بصدام وحزبه في يوم من الأيام، وكان يراه طاغوتاً من الطواغيت الذين ابتليت بهم أمتنا في القديم والحديث، ولهذا فقد استنكر احتلال قوات النظام العراقي لدولة الكويت، ووقف إلى جانب الشعب الكويتي في محنته يواسيه، ويشد عضده، ويطالب بإخراج القوات العراقية المعتدية.. لكنه ومع كل هذه الاعتبارات فقد عارض الاستعانة بقوات الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية وبيّن الأدلة الشرعية على ذلك.

كنت من هؤلاء [القسم الثالث]، وكنت من أكثرهم تعاطفاً مع الشعب الكويتي الذي آواني في غربتي بين [١٩٧٣ - ١٩٨٤ م] وما زلت أرتبط به أشد الارتباط، وأعلم مدى تفاعله مع قضايا العالم الإسلامي، وعبرت عن موقفي هذا

في مقالات عديدة كتبتها في مجلة السنة، ومرت الأيام وكان من المفترض أن يطوي الزمن أمر هذا الخلاف البسيط بيننا وبين الذين ينتسبون إلى القسم الثاني، لكن المسألة عند بعض ولاة الأمر كانت أبعد وأعمق مما نظن.

لقد كانت هذه الحرب فيصلاً بين عهدين عند إحدى دول الخليج: فالعهد الذي سبقها أعني عهد الوالد المؤسس وكبار الإخوة، كان عهد تعاون وتنسيق مع كبار العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية. والعهد الذي تلاها كان قائماً على مبدأ [مع أو ضد]، والذين هم من أهل [مع] لا يقبل منهم إلا النفاق ومدح ولاة الأمور صباح مساء، ومع ذلك فالتعاون معهم كان قائماً على الشك، وقد يسقطون عند أي اختبار.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد تحالف هؤلاء مع العلمانيين وأسندوا إليهم بعض شؤون الحكم وجميع شؤون الإعلام واتخذوا منهم خبراء ومستشارين، ثم أطلقوا لهم العنان، فاستباحوا محارم الله، وأطلقوا ألسنتهم وأقلامهم القذرة في الهجوم على العلماء والدعاة والمؤسسات الإسلامية.

نعود إلى الحديث عن حزب ال [مع]: معظم هؤلاء من خريجي المعاهد والكليات الشرعية، وبعضهم من حملة [الدكتوراه] ويدرسون في الجامعات، ولكنهم لم يصونوا حق العلم الذي تعلموه، ولم يهتدوا بهدي رسول الله ﷺ في سلوكه وأخلاقه، كما أنهم لم يهتدوا بسلوك وأخلاق الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، فأصبح علمهم حجة عليهم، وكان مثلهم في عملهم الجديد كمثل الجندي

في الجيش الاحتياطي يدعى عند الحاجة إليه، ويسرح من الخدمة بعد أن يؤدي دوره المطلوب. بل إنهم يختلفون عن الجيش الاحتياطي من بعض الجوانب:

فهدف الجندي في الجيش الاحتياطي الدفاع عن أمته ووطنه وقد يكلفه ذلك بذل روحه فلا يتراجع ولا يتردد، وإذا أمرته قيادته بقتال المواطنين الأبرياء، فقد يهرب أو يرفض الأوامر مهما كلفه ذلك من ثمن. أما هؤلاء فلا يترددون في تنفيذ أوامر سادتهم، ولو كان في ذلك هلاك لعباد الله الأمنين الموحدين، ومن جهة ثانية فهدفهم على الأغلب المال والجاه، وقد يبتاعهم في سوق النخاسة من هو عدو للإسلام والمسلمين، لأنه في نظرهم ولي الأمر، وما أمر طاغوت ليبيا الهالك عنا ببعيد.

صدرت الأوامر هؤلاء بالتحرك، وبذل دون ذلك المال بسخاء، وهيئت لهم المنابر وسائر وسائل الإعلام، وفيما يلي بعض ما نضحت به أوانهم:

تحدث شيخهم ربيع المدخلي عن الجماعات الإسلامية التي تعمل من أجل أن يكون الدين كله لله، فكان مما قاله: (فهي جماعات مختلفة المناهج والغايات والمقاصد، كل جماعة تدعو إلى منهجها، وتسعى لتحقيق غاياتها التي تضر ولا تنفع، وتغرس في نفوس أتباعها الحقد والبغضاء لكل من لا ينضوي تحت رايتها وتفتعل من الأكاذيب والشائعات التي تحطم خصومها ومخالفها، وكثير منها يبالغ في عدائه للمسلمين فيكفرهم ويرى سفك دمائهم واستحلال أموالهم وأعراضهم، ويفعل بالمسلمين ما لا يفعله باليهود والنصارى) [جماعة واحدة: ٩٩].

ويقول المدخلي في شريط صوتي عن جماعة الإخوان المسلمين:

(الإخوان المسلمون أضرّ على الإسلام من الكفار الواضحين لأن المسلمين لا يمدعون بالكفار، ولكن يمدعون بهؤلاء المضلّين المبتدعين، يمدعون بهم ويقعون في البدع والضلالات بسببهم).

وفي تقريرهم الخطير الذي رفعوه إلى ولاية أمورهم وأسموه: [التنظيم السري العالمي] قالوا:

(إن الجماعات الإسلامية الدعوية تنتظم كلها في جماعة واحدة وإن اختلفت الأدوار والمسميات. وهذه الجماعة الموحّدة لها جهاز استخبارات متطور وفعال، والوجه العلني لهذا التنظيم إنما هو جزء من التنظيم العام السري، وهو يمثل المرحلة التي تسبق مرحلة الاستيلاء على الحكم).

وقالوا أيضاً:

(ما أشدّ الشبه بين هذا التنظيم السري العالمي وبين تنظيم العصابات العالمية السرية مثل [عصابات المافيا والماسونية]!!، وأوجه الشبه: سرية الحركة، جهالة القيادة، شدة تغلغله في المجتمع، حلقات سرية تتحرك في كل مكان دون أن يحس بها أحد، ولكن تلك العصابات ليس لديها أخلاق، ولا قيم ولا أعراف، ولا مبادئ إنسانية، إنما تلهث وراء المال والشهوات الحيوانية، بينما التنظيم السري يستهدف أبناء المسلمين الأبرياء، الذين عرفوا الخير ولم يعرفوا الشر، ويغذيهم ويلقنهم فكره ومنهجه، ويجعلهم جنوداً يلقيهم في ساحات المعارك مثل كبش الفداء، ثم يعتلي على ظهورهم ليرتقي على أجسادهم، فيصل إلى رئاسة الدولة الإسلامية الجديدة!!

ويختلس أموال المسلمين!! ويزاول أنشطته السياسية باسم الإسلام!! لذلك كان هذا التنظيم أخطر، ومقاومته والتصدي له أوجب).

الجماعات الإسلامية بدعاتها وعلماؤها، وتاريخها الناصع في مقارعة الظالمين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهادها من أجل أن يكون الدين كله لله.. أشدّ خطراً على الإسلام وأهله من عصابات المافيا والمنظمات الماسونية!! ويل لهؤلاء من مشهد يوم عظيم.

فأجهزة الأمن التي يكتبون لها هذه التقارير تعلم حق العلم أن الجماعات الإسلامية لم تحقق الحد الأدنى من التعاون فيما بينها، وأنها لا تزال متنافرة متخاصمة، وأن من يكتب لها مثل هذه التقارير من أكذب الكذابين!!.

ويلهم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، ماذا أبقوا غيرهم من حثالة المجتمع؟!، وإذا كان هذا هو شأن الدعاة والجماعات، فأين.. أين أهل الخير والفضل في مجتمعاتنا?!.

وقصارى القول: فمنذ نهاية حرب الخليج الثانية [١٩٩١]، وحتى يومنا هذا، وإلى أن يشاء الله فقد أصبح العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية هدفاً لأجهزة الأمن، ومعها على المستوى الإقليمي العلمانيون وأفراخهم، والجيش الاحتياطي الذي يدعى عند الحاجة إليه، وأصحاب النفوس الضعيفة.

وعلى المستوى العالمي: الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها من الدول الغربية. أما عداوة روسيا والصين لنا فليست موضع خلاف بين الباحثين المنصفين.

لقد اشتدّ الخناق، وضافت علينا الأرض بما رحبت، وصار حثالة الناس يتجرؤون على العلماء والدعاة بل على أحكام الدين، ووجدوا من عليّة القوم من يحميهم، ويسنّ المراسيم التي تمنحهم شيئاً من الحصانة تحت شعار جديد أسموه: حرية الفكر، واحترام الرأي الآخر ولو بلغ حدّ الكفر والعياذ بالله، وصار العلماء والدعاة يسجنون لأنّفه الأسباب، بل قد يبقى الواحد منهم عدداً من السنين ولا ذنب له سوى مقولة سمعها ولي الأمر، أو إشاعة روّجها من لا يريد خيراً للإسلام والمسلمين.

### أنا ومنهج الأنبياء:

كنت أحد أشهر من تناوشتهم أقلامهم وألستهم وتقاريرهم بكل سوء. فقد اعتبروني رمزاً لتيار أسموه [السرورية] جعلني الله وكل مسلم من أهل السرور في الدنيا والآخرة، وسودّوا آلاف الصفحات في الحديث عن أهم الفرق الضالّة المضلة -كما يرون ويعتقدون- في هذا العصر وهي [القطبية، الإخوانية، السرورية، ويضيفون أحياناً فرقاً أخرى]، وهذه السرورية التي زعموها تعني عندي شيئاً واحداً: التزام عقيدة ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم ومن نحا نحوهم والتزم أثرهم إلى يوم الدين.

وكان الله جلّ وعلا في عون من تسلّط عليه أضواء الظالمين، فصغيرته تصبّح كبيرةً، ويسقطون كتاباته على أسماء يقدرها أعظم التقدير، فيظن القراء أن هذا هو قصده، وهو ما أراد ذلك.. وفي غير هذه وتلك يلفقون روايات وقصصاً ليس لي بها أدنى صلة، ثم تعمم وسائل إعلامهم المرئية والمسموعة هذه الأكاذيب،

ويصدقها كثير من الناس وأنا بريء منها براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام، ولا أملك جهاز إعلام أذاع من خلاله عن نفسي، أو عصاة تذود عن عرضي، وترد أباطيل المفترين.

وكنت في مثل هذه الأحوال أتذكر قول الشاعر:

ولست بناجٍ من مقالة طاعنٍ      ولو كنتُ في غار على جبلٍ وعيرٍ  
ومن ذا الذي ينجو من الناس سالماً      ولو غاب عنهم بين خافيتي نسرٍ

كان محمد أمان الجامي<sup>(١)</sup> أول من خاض المعركة من باب هجومه المسف على كتابي [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] في عام ١٤١٣ هـ أي بعد نهاية حرب الخليج الثانية، وبعد استدعاء الجيش الاحتياطي ليؤدي دوره المطلوب، فكان الرجل يتنقل محاضراً من مسجد لآخر، ومن مدينة إلى مدينة أخرى، ولم يكن من قبل يقوم بمثل هذه الأنشطة، وكان مما قاله في هذه الأشرطة:

(.. والرجل أشعري معروف.. وإذا يكره كتب العقيدة لما فيها من الآيات والأحاديث.. ومن يكره التوحيد ونصوص الكتاب والسنة؟!).

(١) هو محمد أمان بن علي جامي علي من الحبشة، منطقة هرر، قرية طغاطاب [١٣٤٩ هـ - ١٤١٦ هـ]، وفد على المملكة العربية السعودية حاجاً عام ١٣٦٩ هـ ثم انتظم طالباً في معاهدها العلمية حتى نال درجة [الدكتوراه] وعمل مدرساً في معاهدها ثم في الجامعة الإسلامية، ومنحوه الجنسية السعودية.



(هذا الكلام كونه ملحد إلحاد لا يشك فيه طالب علم).

وقال أيضاً:

(إذاً هو يكره كتب العقيدة لما فيها من الآيات والأحاديث، ومن يكره التوحيد ونصوص الكتاب والسنة ويصفها بالجفاف، ثم يعمل دعاية لتنفير الشباب، ويقول: إن معظم الشباب زهدوا فيها، وهو خلاف الواقع، هذا الكلام كونه ملحد إلحاد لا يشك فيه طالب علم).

استثقل المصلون المحاضرة الجامية، وأسمعه بعضهم قارص القول، ولولا الحماية لأشبعوه ركلاً وضرباً، وفي التي تلتها قال:

(استغرب البعض وصفي له بالإلحاد فما بالكم لو قلت: إنه كافر.. وأنا تحفظت في القول: إنه كافر أو مرتد).

في محاضرة أخرى قال في وصفي: (إنه حروري، والحرورية فرقة من فرق الخوارج).  
وجملة ما ورد في محاضراته عن عقيدتي: أشعري، ملحد، حروري، كافر، مرتد.

فكيف اجتمعت هذه الصفات كلها في رجل واحد، وأكون أنا هذا الرجل، ولم أكتشف نفسي، بل ولم يكتشفني هذا العدد الضخم من الناس الذين يعرفونني في مختلف مراحل حياتي.. ثم جاء هذا الرجل من خلال مقدمة كتابي [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] ليتحف الناس بهذه النتائج الخطيرة!!

وفي أول مراجعة لكتابي بعد ثلث قرن من صدور الطبعة الأولى أجد نفسي

مضطراً لتفنيد أباطيل الجامي:

أولاً: قد أكون في كتابي هذا أو في غيره وقعت بخطأ، فكل ابن آدم خطاء، ومن حق أهل العلم والفضل الرد علي وتصحيح هذا الخطأ، وقول الإمام مالك مشهور: (ليس منا إلا قد ردّ أو ردّ عليه إلا صاحب هذا القبر) ﷺ.. ولكن العلماء المحققين يشترطون أن ينقل كلام المردود عليه دون زيادة أو نقصان، وأي رد يخالف هذا الشرط، ليس له أدنى قيمة.. لننظر هل التزم الجامي بهذا الشرط:

يقول: (والرجل أشعري معروف).

وأنا لم أكن في أي يوم من سني عمري أشعرياً أو حرورياً ولا يستطيع هذا الرجل أن يقدم أي دليل يثبت صحة مقولته، وأعوذ بالله من الإلحاد والكفر والردة التي وصفني بها، وأسأل الله حسن الخاتمة لي ولجميع المسلمين. وهذه هي القرية الأولى.

وزعم بأنني أكره كتب العقيدة لما فيها من الآيات والأحاديث! أما كتب العقيدة فعليها تربت الأجيال السلفية، وكنت أحد هؤلاء، وكان لي شرف تدريس شيء منها، ولا يكرهها إلا كل مبتدع، إلا أنني أشرت إلى ضعف أسلوب بعض كتّابها ولا أعلم أن أسلوب الكاتب له قدسية. وأما الآيات والأحاديث فقد ذكرتها على سبيل استنكار أقوال أصحاب هذا المنطق.

ومن حق الجامي إذا كان قصده وجه الله تعالى وبيان الحق مجرداً من الهوى وحظوظ النفس أن يفهم ما كتبه فهماً مغايراً لما أردته. فعليه في هذه الحالة أن يبحث عن دوافع الكاتب، فما أوجزه هنا قد يكون فصله هناك. وفي المقدمة نفسها التي قرأها ومن خلالها

حكم علي بالإلحاد أو الردة، بيان المنهج الذي اتبعته في تأليف هذا الكتاب:

(اعتمدت على القرآن الكريم، وما صحّ من أحاديث الرسول ﷺ، وأقوال علماء السلف المحققين من خلال شرح الآيات والأحاديث). فهل يقول هذا القول ملحد أو مرتد؟! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم وهذه هي الفرية الثانية.

وإذا كان ذلك لا يكفي فأمانة البحث العلمي توجب عليه مزيداً من البحث حتى لا يقع في وزر تكفير مسلم، ومن أهم مؤلفاتي التي كانت منتشرة بين الطلبة والمدرسين في الجامعة الإسلامية قبل إلقائه هذه المحاضرات:

[دراسات في السيرة النبوية] الذي قرر المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية طباعته، وحال دون ذلك تدخل أمثال الجامي. وفي هذا الكتاب فنّدت أقوال المستشرقين والمستغربين والعقلانيين في كتابة السيرة النبوية وبيّنت بطلانها.

[الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو] بجزئيه، وفيما أظن كان هذان الكتابان أول رد علمي مفصّل على خوارج هذا العصر الذي زعم المفتري بأني أحدهم.

[وجاء دور المجوس] الذي زكّاه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله وهيئة كبار العلماء، وكان الشيخ يوزعه ويدعو لمؤلفه، والجامي ممن لا يكاد ينقطع عن مجالس الشيخ.

ثانياً: كتبت في مقالات متعددة من مجلة السنة عن علماء السوء، فاستشاطوا غيظاً، وراحوا يستعدون علماء أفاضل علي، ويقولون لهم: انظروا ماذا يكتب عنكم؟!.

ولهم في ذلك طرق لا يسلكها إلا من تدنّت أخلاقه، وأتقن فن المكر والخديعة،

فقلنا في ردنا على مقولتهم:

(نحن ملتزمون بالأدب النبوي): ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، فإذا كان لا يرضيكم ذلك فأبشروا ولا كرامة:

إننا نقصد بعلماء السوء الذين أفتوا بمشروعية البنوك الربوية وأباحوا فوائدها، ونقصد بعلماء السوء الذين ينحازون إلى صف الطغاة فيبررون جرائمهم، ويزينون قبائح أفعالهم، ويفتون لهم بالبطش بالدعاة إلى الله بل وبقتلهم.

وهذه الصفات تنطبق على نفر منكم وأولهم كاتب تقرير [التنظيم السري العالمي بين التخطيط والتطبيق] وجزى الله خيراً كل من ساعد على وصول هذا التقرير إلى أيدي الناس ليعلم الخاصة والعامة من أبناء هذه الأمة فساد أخلاقكم وسوء معدنكم.

ونقصد بعلماء السوء الذين يشترطون بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ورد الحديث عنهم، والتحذير منهم في عدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وفي شروح أئمة السلف الممتعة لهذه الآيات والأحاديث، فلماذا يغضبهم حديثنا أشد الغضب، ويهربون من الاتهام الذي يفهمونه حق الفهم، ثم يتسترون بعلماء أفاضل نتقرب إلى الله بحبهم يقولون لهم:

انظروا ماذا يقول عنكم؟!.. كان من هؤلاء العلماء الذين سهل عليهم استدراجه، فهاجمني وقال عني كلاماً مشابهاً للقول الذي يرددونه الشيخ صالح بن فوزان عضو هيئة كبار العلماء، وعضو لجنة الفتوى، وهذا هو المكان المناسب للرد عليه:

الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عالم عامل لا يتاجر بعلمه ولا يبحث عن مال أو جاه. وهذا ما سمعته من زملائه وطلابه الذين أثق بشهادتهم فيه، كما هو واقع حاله، وإني مسامح له في كل ما قاله ويقوله عني، وليعلم الشيخ بأنه مما يحببني في بلده التزام أهلها بعقيدة ومنهج السلف الصالح، فكيف يوهمه هؤلاء بنقيض ذلك؟!.

ثالثاً: في مؤلفات محمد أمان الجامي أقوال مشابهة للأقوال التي بدّعني وكفّرني بسببها إذا استخدمنا الأسلوب الذي استخدمه، وفيما يلي بعضها:

ففي كتابه [طريقة الإسلام في التربية ص ١٦] يقول: (وإذاً مهمة العقيدة أن تطلق الروح وتخرجها من حجابها، لكي ترى الله، وتتصل به مباشرة وبدون واسطة.. فالطاقة الوحيدة في كيان الإنسان المعفوة عن الحدود والقيود هي طاقة الروح وحدها، إذ هي تملك الاتصال بما لا يدركه الحس والعقل، وهي التي تتمتع وحدها بالاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي.. ولكن الإنسان يكاد يحس بسبحة الروح الطليقة، عندما تجوب آفاق الكون، وتتصل بكل حي في هذا الكون).

وقال في [ص ١٠]: (.. لأنهم يستمدون قوتهم من قوة خالقهم، فهم من الله، وقوتهم من قوة الله.. فهكذا يربي الله الإنسان حتى يدرك أن منه المنشأ، وإليه المصير).

وهذه هي أقوال المؤمنين بوحدة الوجود والاتحاد، واشتدّ بعضهم في تبديع أو تكفير سيد قطب رحمه الله لأنه قال ما يشبه هذا القول.

أما تكفير المجتمعات لأنها مجتمعات جاهلية: فقد قال الجامي في كتاب [تصحيح المفاهيم ص ٦]: (.. فحياة المسلمين اليوم أقرب إلى الجاهلية التي قبل

مبعث النبي منها إلى الحياة الإسلامية).

ويقول في [ص ١٣]: (فما أحوجنا اليوم إلى عمر، نعم إلى عمر لمقاومة جاهلية القرن العشرين ووثنيته، ما أحوج المسلمين إلى الصديق للقضاء على ردة هذا القرن).

وفي كتاب [تصحيح المفاهيم ص ١٢] يقول: (تأكدوا أن الكلمة -يعني كلمة التوحيد- تعني ثورة..)، ويضيف: (فيخرج عمر على الناس بوجه آخر، وبلهجة أخرى، وبثورة أخرى لا تقف عند حد).

ويقول في [ص ٤٤]: (نرى طائفةً أخرى تعزل القرآن عزلاً عن حياة الناس، وإنما هو كتاب يتلى في بعض المناسبات، مناسبات حزن أو فرح، ولا حظَّ فيه للأحياء أكثر من تلاوته.. وترى بجانب ذلك طائفةً من الساسة تقف من القرآن موقف المجامل -المجاملة غير المحبة وغير الإيثار طبعاً- فلا بأس عندهم أن يتلى في بعض المناسبات الرسمية، ويستشهد به في بعض المقام إن دعت الحاجة إليه. ويسجل في الإذاعة إذا كان المقرئ حسن الصوت، بحيث يحمل المستمع على الطرب، ثم انتهى كل شيء، وكأنه نزل لهذا الغرض نفسه.. وأما أن يقرأ للتدبر واستنباط الأحكام منه، وأما أن تساس الأمة على ضوئه وتحت ظلاله، ويتخذ دستوراً صالحاً للعصر الحديث، كما كان صالحاً للعصور الخالية، فهذا أمر لم يدر بخلدهم قط)<sup>(١)</sup>.

(١) انظر كتاب: [انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً]، صالح بن عبد اللطيف النجدي، توزيع مكتب الطيب، مصر.

قلت: قد يقرأ أحدهم أقوال الجامي فيحكم عليه بالكفر والفسوق والعصيان، بل ربيع المدخلي وأضرابه قالوا عن سيد قطب مثل ذلك، مع أن أقواله رحمه الله لا تختلف عن أقوال الجامي.. أما رأيي بأقوال الجامي فليست أكثر من جنوح كاتب اشتطّ به الخيال، ولو أعاد قراءة هذه النصوص لغير وبدّل في صياغتها، والرجل ليس ممن يهتمون بوحدة الوجود.. ألا ما أحوج هؤلاء -قادة الجيش الاحتياطي- إلى اتباع منهج المحدثين في الجرح والتعديل الذي يدرّسونه لطلابهم في الجامعة، لكن المسألة ليست مسألة مناهج إنما هي أهواء وتنفيذ تعليمات، وإلا فأين الجامي ومن نحا نحوه من حديث رسول الله ﷺ:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه»، متفق عليه.

لا أدري ماذا يبقى للإنسان من عزة وكرامة إذا كان وراءه جهاز يصدر إليه تعليمات، فيسارع إلى تنفيذها حتى ولو كانت تخالف قناعاته التي عاش ردها من سني عمره يدعو لها، ويدافع عنها؟! فالمدعو محمد أمان الجامي يعتبر نفسه تلميذاً للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وكان دائم الثناء عليه والإشادة بعلمه وفضله، ولكن الحال اختلفت، فراح يهاجمه ويتهمه بما ليس فيه، وسبب هذا التغير أن الشيخ رحمه الله قال في الحرب العراقية الثانية كلاماً لا يرضي الجهازَ بعضه!!

إن سياسة الشتم والتجريح التي انتهجها الجامي، ومعه ومن بعده ربيع المدخلي، كانت تعني بأن أوامر الجهاز قد صدرت، وأن استنفار الجيش الاحتياطي قد بدأ. وهذا

الذي حدث، فقد رأينا أجنادهم في العالم كله، وليس في بلد دون بلد.. رأيناهم يجرحون هذا العالم، ويحاولون هدم بناء تلك الجماعة، وينهشون عرض ذلك الداعية المجاهد. والذي لا ينقضي منه العجب أن معاول الهدم والتخريب التي يحملونها بأيديهم لا تعمل إلا داخل الدائرة الإسلامية بل داخل الدائرة السنية.

نحن الذين ابتلانا الله بالحياة في ديار الغرب وفي تلك المرحلة، كان بعضنا يزور مراكز للمسلمين الجدد، ثم يستمع بعد المحاضرة التي يليها إلى أسئلة هؤلاء الذين كانوا قبل أيام أو شهور في عالم الكفر أو الشك:

ما هو قولك في الفرق؟، وعندما تسمع كلمة الفرق تنتظر اسم الخوارج أو الرافضة أو المعتزلة أو.. ثم تسأل نفسك بسرعة: ما حاجة هؤلاء في هذه المرحلة إلى دراسة هذه الفرق؟.. أو ليس ترسيخ معاني لا إله إلا الله محمد رسول الله أولى في نفوسهم؟!.. ولكن السائل يشدك إلى ألفاظ ينطقها بلكنته الأعجمية.. ما هو قولك في الفرق التالية: القطبية، السرورية، الإخوانية..؟!.. كنت أحد الذين تعرضوا إلى مثل هذا النوع من الأسئلة.. ثم تسمع بعد حين أن بعض هؤلاء الذين كانوا يناقشون بحرارة قد ارتدوا عن الإسلام أو عادوا إلى عالم الشك والضياع، وويل لمن يتحمل هذا الوزر.

عضو هيئة كبار العلماء، وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء في الديار السعودية الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله استنكر هذه الظاهرة، وعبر عن استنكاره بكتاب سماه: [تصنيف الناس بين الظن واليقين]، ثم خص ربيع المدخلي بكتاب صغير الحجم



سماه: [الخطاب الذهبي]. قال الشيخ بكر رحمه الله في كتابه التصنيف [ص ٢٨]:

(.. وفي عصرنا الحاضر يأخذ الدور في هذه الفتنة دورته في مسلاخ من المنتسبين إلى السنة، متلفعين بمرط ينسبونهم إلى السلفية -ظلماً لها- فنصّبوا أنفسهم لرمي الدعاة بالتّهم الفاجرة، المبنية على الحجج الواهية، واشتغلوا بضلالة التصنيف).

وفي [ص: ٣٩] يقول: (حين سرت إلى عصرنا ظاهرة الشغب هذه إلى من شاء الله من المنتسبين إلى السنة، ودعوى نصرتها، فاتخذوا التصنيف بالتجريح ديناً وديناً، فصاروا ألباً على أقرانهم من أهل السنة، وحرماً على رؤوسهم وعظمائهم، يلحقونهم الأوصاف المردولة، وينبزونهم بالألقاب المستشعنة المهزولة. حتى بلغت بهم الحال أن فاهوا بقولتهم عن إخوانهم في الاعتقاد والسنة: [هم أضر من اليهود والنصارى] و [فلان زنديق]).

ربيع المدخلي المتوثب للردود سارع إلى الرد على نصيحة الشيخ بكر أبو زيد بكتاب مات في مهده، ثم وضعوا الشيخ بكر في خانة الضد. رحم الله الشيخ فقد صدق برأيه في وقت عصيب، وأهل العلم والفضل يسجلون له هذا الموقف بكل تقدير واحترام، ويدعون له بعد موته.

قارئ العزيز: هذه هي قصتي مع محمد أمان الجامي، وربيع المدخلي، والجيش الاحتياطي، والجهاز الذي يركبهم جميعاً من وراء ستار.. وهذا هو حجم الظلم الذي لحق بي، مع أنني لم أذكر إلا اليسير منه. وما كان ينبغي لي أن أجدد طباعة هذا الكتاب دون أن أضع هذه المسألة في إطارها الصحيح، ودون كشف صور الظلم

الذي أحقه هؤلاء بي. قال جلّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ [الشورى] ٣٩ ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء]، وقال: ﴿ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى] ٤١.

وأوقفها هنا عند حدود بيان الظلم الذي لحق بي، مع دعائي إلى الله أن يرزق الذين أساءوا لي التوبة ويهديهم إلى سواء السبيل.

وأشهد بعد ذلك أنني استفدت من هؤلاء، فأحسب أن أسلوبني فيما أكتب يمتاز بدقة العبارة.. وبعد هذه المعركة التي تمتد لأكثر من عشرين عاماً، ومع تعدد الأعداء وتنوع مشاربهم، ضاعفت من اهتمامي بالأسلوب والمضمون وكيف يفهمها الناس.. وهل هناك مداخل للأعداء، ومن قبل فأنا أعرض ما أكتب على أهل العلم من الأصدقاء وأجمع ملحوظاتهم لأستفيد منها عند إعادة الصياغة. رحم الله الإمام الشافعي فيما قاله أو نسب إليه:

عداتي لهم فضل علي ومنة      فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

هموا بحثوا عن زلتي فاجتنبتها      وهم نافسوني فاكسبت المعاليا

وقال تعالى: ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكَرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء]

[النساء]

وقبل الفراغ من كتابة هذه السطور أتوجه إلى قادة الجهاز [بل الأجهزة] أعني

الكبار.. الكبار منهم بالنصيحة التالية فأرجو أن تتسع لها صدورهم:

إن العدو يحيط بنا من كل جانب، ويتأهب للانقضاض علينا واستباحة بيضتنا، بل ها هو انقضض على أجزاء مهمة من بلادنا خلال السنوات القليلة الماضية. ونحن جميعاً في خندق واحد، والعدو لا يريد جهةً دون جهة أخرى منا، ومن شغل نفسه بغير الإعداد للمعركة القادمة فقد هلك وأهلك، وتذكروا دائماً أن بطانة السوء كانت سبباً في هلاك دول إسلامية، وابتحثوا إن شئتم عمن يدرّسكم أمر سقوط بغداد بأيدي التتار عام ٦٦٥ هـ، ثم قولوا لهؤلاء المدرسين وأصحاب الرأي والخبرة: من ممن حولنا ينتهج نهج الطوسي والعلقي؟!.

لا تنسوا ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية بشاه إيران و(بشاهات آخرين قبله وبعده)، وتصريحاتكم التي تنشرها وسائل الإعلام دليل قاطع على إدراككم وتفهمكم لهذه المسألة.

ولا يغرنكم من ينافق لكم ويتسكع على أعتابكم من العلمانيين وأفراخهم، ومن الهمازين المشائين بالنميمة.. فهؤلاء خدم لكل من يتسلم مقاليد الحكم سواء منكم أو عليكم.

يا كبار قادة الأجهزة: ارفعوا الظلم عن شعوبكم، وحرّروا سجونكم ممن ذنبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق ضوابطه الشرعية.. نعم حرّروا سجونكم من العلماء والدعاة قبل أن يأتي من يحرّها.

تفهموا كل ما حولكم، وإياكم ثم إياكم أن تعيشوا خارج التاريخ والجغرافيا أو

خارج التغطية كما يقول الإعلاميون، فالشعوب قد تصبر طويلاً، لكن انفجارها سيكون شديداً ومدمراً، وويل ثم وويل لمن لا يعتبر مما حوله.

أخي القارئ الكريم: لنعد بعد أن شغلنا هؤلاء بعض الوقت إلى رحلتنا الممتعة مع أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام في سيرهم لتتعلم منهم كيف نشروا دعوة التوحيد، ورفعوا لواء العدل، وأطفؤوا نيران المجوس.

اللهم خلّقنا بأخلاق أنبيائك، وارزقنا حكمتهم وصبرهم وتجردهم. وأبرم اللهم لهذه الأمة أمر رشديعزّ فيه أهل طاعتك، ويُذِل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهي فيه عن المنكر، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لماذا منهج الأنبياء؟!



## لماذا منهج الأنبياء؟!

النهضة الإسلامية اليوم حديث الناس، كل الناس.

فالمؤمنون يسجدون لله شكراً وهم يرون المساجد وقد ازدحمت بالمصلين من الشباب قبل غيرهم، والشوارع وقد غصت بالملتحين من الرجال، والفتيات اللواتي يزينهن اللباس الشرعي الطويل الفضفاض، والكتاب الإسلامي وقد كثر رواجه، وازداد الإقبال عليه.

وأعداء الإسلام ينظرون إلى هذه النهضة نظرة شك وريبة، ولهذا فهم يُسخرون كل ما يملكون من دعاية وإعلام لإعطاء صورة مشوهة عنها وعن حملتها، ويدبرون المؤامرات من أجل وأدها في مهدها:

﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومما يضاعف خوف وقلق أعداء الإسلام أن هذا الجيل الذي عاد إلى كنف مولاه كان قد تربى في مدارس ومعاهد وجامعات دول تحكمها أحزاب علمانية، وشخصيات عسكرية مستبدة تحارب الإسلام أشد الحرب وتضطهد الدعوة إلى الله أعظم الاضطهاد.

ولقد كان الفضل في ظهور هذه النهضة لله أولاً وأخيراً، فهو سبحانه وتعالى الذي هتك أستار الظالمين الذين كاد كثير من الناس يعبدونهم من دون الله، ومن جهة أخرى

فقد قيَّضَ جُلٌّ وعلا لأمتنا دعوة من الشباب، رفضوا الأفكار والعقائد المستوردة، وزهدوا في مغريات الدنيا وشهواتها، وتعلقت قلوبهم بكل ما يرضاه الله ويحبه، ولم يعد يرهبهم تهديد الظالمين ولا وعيدهم. وعَبَّرَ هؤلاء الدعوة من الشباب عن رفضهم لهذا الواقع بطرح موضوع [التغيير] على بساط البحث والمناقشة، ومن أجل وضع حلول لمشكلات التغيير عقدوا الندوات، وألّفوا الكتب، وأصدروا الرسائل والبيانات.

ومن المؤسف أن الدعوة اختلفوا في هذه المسألة وتعددت مواقفهم واتجاهاتهم.

- فمنهم من يعتقد أن التغيير لا يكون إلا عن طريق الإقناع العقلي وإشاعة الوعي السياسي.

- ومنهم من يرى أن يكون التغيير عن طريق الانتخابات النيابية والنقابية وسائر الأساليب الديمقراطية المعهودة.

- وآخرون من الشباب قرعوا طبول الحرب من غير إعداد، وسارعوا إلى اتخاذ مواقف كان من الأفضل أن يفكروا بها طويلاً، وما دروا أن الله الذي وعدنا بالنصر قد أمرنا بعدم التقصير في الأخذ بكافة الأسباب المادية.

ورغم تعدد مواقف الدعوة الشباب من التغيير وتضارب هذه الآراء والمواقف، فإن معظمهم يتفقون على المسألة التالية:

إنهم يقلدون شيوخهم وزعماءهم في الخطأ والصواب من أفعالهم، ويأخذون عنهم كل ما يؤمرون به أو يدعون إليه، ولا يقبلون بهم نقداً... وغاية ما يسعون

إليه أن يكونوا في مرتبة قريبة من مرتبة الشيخ، وأقول قريبة لأن مرتبة الشيخ أو الزعيم الراحل من المحال الوصول إليها، بل وربما أساءوا الظن بنوايا من تراوده نفسه بمثل هذه الأفكار... ورغم ذلك يزعم هؤلاء الدعاة أنهم مؤمنون بضرورة التجديد والتغيير ووجوب التمسك بالبيئة والدليل.

ترى لو جمّد عقل صلاح الدين الأيوبي على مثل هذه الأفكار، هل كان قادراً على دحر قوات العدو، وتطهير القدس وبلاد الشام من دنس الصليبيين والباطنيين العبيدين؟!

وهل كان شيخ الإسلام ابن تيمية قادراً على إصلاح ما فسد من عقائد الناس، وتوحيد كلمة المسلمين وجمعهم على مواجهة التتار وما أعقبها من نصر؟!

يا سبحان الله! كيف تلتبس الأمور! إن هؤلاء الدعاة لو عادوا إلى رشدهم، وحرروا عقولهم من التبعية والانقياد، ونفوسهم من الضعف والجمود لعلموا أنهم قادرون على بلوغ مراتب ما كان شيوخهم وقادتهم يلمنون بها... ولا يكلفهم هذا المقصد إلا أن يصدقوا مع ربهم، ويأخذوا بالأسباب الشرعية، والله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إنها مصيبة والله أن يكون هؤلاء الشيوخ والقادة الذين يقلدهم الشباب -رغم ما بذلوه من جهد طيب- هم الذين فشلوا في توحيد كلمة المسلمين، كما فشلوا في تغيير هذا الواقع، وتحكيم شرع الله في الأرض.

عاجزون عن تحقيق أي نصر، لأنهم لم يخططوا المرحلة أعلى وأرفع من المرتبة التي بلغها شيوخهم وقادتهم.



فسبحان الذي حذرنا من التعصب المذهبي الذميمة ومن كل تعصب للأفكار والشيوخ والزعماء، فمثل هذا التعصب أرضية إلى الشرك، قال جلّ وعلا عن النصارى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة].

أخرج ابن سعد وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في سننه قال: «أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ . فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه.

وفي رواية لابن كثير عن الإمام أحمد والترمذي وابن جرير -من طرق- أن عدياً بن حاتم الطائي دخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوه. فقال: بلى! إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»<sup>(١)</sup>.

(١) رواية ابن كثير أوردتها مختصرة. والحديث ورد بروايات مختلفة، وأهم ما ورد في تخريجه قول شيخ الإسلام ابن تيمية: وهو حسن طويل، انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (٦٧/٧)، وقول =

ومن أجل ما ذكره المفسرون في تفسيرهم لهذه الآية، قول السدي: (استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرّم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه أتبع، وما حكم به نفذ).

وقول الشوكاني:

(وفي هذه الآية ما يزر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المذهب لمن يقتدي بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياءه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأجبار والرهبان أرباباً من دون الله).

وقول الألوسي: (الأكثر من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم. بل أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم)<sup>(١)</sup>.

غضب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم عندما كان يحدثهم عن رسول الله ﷺ، وهم يعارضونه بأقوال لأبي بكر وعمر، فقال لهم: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول:

=الشيخ ناصر الألباني: حسن. انظر سنن الترمذي: (٢٧٨/٥).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: (٣/١٦٤٢)، دار الشروق. فتح القدير، الشوكاني: (٢/٥٠٥)، دار الوفاء، المنصورة.

قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر) (١).

فأين أقوال شيوخ عصرنا وقادة الإسلاميين فيه من أقوال أبي بكر وعمر رضي الله  
عنها؟!.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(من نصب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل  
فهو من الذين فرقوا في دينهم وكانوا شيعاً) (٢).

وهذه حال كثير من الجماعات والأحزاب الإسلامية اليوم. إنهم ينصبون  
أشخاصاً قادة لهم، فيعادون أعداءهم، ويطيعونهم في كل ما يفتون لهم دون الرجوع  
إلى الكتاب والسنة، ودون أن يسألوهم عن أدلتهم فيما يقولون أو يفتون.

ومثل هذه المناهج لا تصلح أن تكون أساساً للتغيير ووحدة صف المسلمين، بل  
ولم يحدث أن توحدت كلمة المسلمين على مذهب من المذاهب أو على حزب من  
الأحزاب، رغم المحاولات التي بذلتها بعض الدول من أجل فرض هذا المذهب  
أو ذلك الاتجاه القبلي أو الحزبي.

(١) ورد الأثر بالفاظ متفاوتة. انظر مسند الإمام أحمد: (١/٣٣٧)، ومصنف عبد الرزاق عن جامع  
البيان لابن عبد البر: (٢/١٢٠٩)، والمحلى لابن حزم: (١١/٣٥٥)، وفتاوى شيخ الإسلام ابن  
تيمية: (٢٠/٢١٥)، وابن القيم في زاد المعاد: (٢/٢٠٦).

(٢) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام: (٢/٢٣٩-٢٤٠) و مجموع الفتاوى: (٨/٢٠).

إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نختصر الطريق، ونعود إلى التمسك بالمنهج الأول الذي صلح به أمر هذه الأمة من قبل، ولا صلاح لأمتنا اليوم إلا به. قال ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»<sup>(١)</sup>.

والشاهد في هذا الحديث قوله: «وسيعود غريباً كما بدأ» يعني لن تكون عودة الإسلام إلا بالمنهج الذي طبقه المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم، فلنعد إذن إلى سيرة المصطفى وسير من سبقه من أنبياء الله ورسله عليهم السلام لتعلم منهم:

- كيف تكون بداية الدعوة إلى الله، وكيف نقدم الأهم على المهم!

- كيف نواجه الصعوبات التي تعترض طريقنا، وما هو الأسلوب الأمثل الذي نسلكه في دعوتنا للمشركين والضالين من أقوامنا!.

- ما الأهداف التي نسعى لتحقيقها!.

إننا بأمس الحاجة إلى ذلك النبع الصافي والمصدر العذب الذي نهل منه جميع أنبياء الله ورسله. ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ

لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء].

أجل لسنا مخيرين في العودة إلى التمسك بمنهج أنبياء الله، بل ولا يجوز أن تتعدد وجهات النظر في هذه المسألة للأسباب التالية:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، مختصر صحيح مسلم للمنذري، باب الايمان (١/٢٤).

### ١- إن طاعتهم واتباعهم فرض عين على كل مسلم:

ذكر الحق جلّ وعلا عدداً من الأنبياء في سورة الأنعام، ثم ختم الحديث عنهم بقوله مخاطباً نبيه:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وهذا أمر من الله لعبده ونبيه محمد ﷺ أن يسلك ذلك الطريق الذي سلكه أنبياء الله قبله، وأن يتخذ منهم قدوة يقتدى بها.

وفي موضع آخر يقول الله لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وفي آية ثالثة أرشد الله المؤمنين جميعاً إلى التأسّي بإبراهيم ومن آمن معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤].

وعن وجوب التأسّي بخاتم الأنبياء والرسل يقول جلّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد كان ﷺ أسوة حسنة للشباب الأمين المستقيم في شبابه، كما كان أسوة حسنة للداعية في دعوته، كما كان أسوة حسنة لكل زوج ووالد في حنو العاطفة،

وحسن المعاملة، والتميز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد، كما كان أسوة حسنة للمربي في تربيته أصحابه، كما كان أسوة حسنة للمجاهد الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين، والمعاهد الصادق، والحاكم المستقيم، والعالم العامل.

وقصارى القول: إن سيرة رسول الله ﷺ شاملة كل الشمول، ولهذا كان أسوة حسنة لكل من كان يرجو الله واليوم الآخر<sup>(١)</sup>.. ولم ولن تتوفر مثل هذه الصفات في أي زعيم مصلح، فقد يكون عالماً ولا يكون سياسياً، أو ربما كان عالماً مريباً لكنه لا يفقه شيئاً في الحروب وفنونها.

وكم رأينا من العلماء المصلحين من كانوا نماذج طيبة في قوة الحجّة، وغازاة العلم، وكثرة النشاط والحركة، لكنهم ليسوا كذلك في تربية أولادهم أو في معاملاتهم المادية، أو في تصوراتهم وعقائدهم.

ولأن رسول الله وإخوانه الأنبياء -عليهم أفضل الصلاة والسلام- كانوا نماذج طيبة لجميع الناس في كل أمر من أمور حياتهم ومماتهم أوجب الله طاعتهم واتباع أوامرهم. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

(١) السيرة النبوية دروس وعبر للدكتور مصطفى السباعي (١٥-١٦) بتصرف.

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ،  
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]

ومن شاقق نبياً من الأنبياء ووجد به وبدعوته أو اتبعه في معظم ما أنزل الله  
إليه ووجد أمراً واحداً من أمور الدين المعلومة بالضرورة فهو من الكافرين  
والضالين المضلين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ  
الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء]. وقال:  
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي  
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

بل ومن زعم محبة الرسول ﷺ وادعى أن قلبه معلق بالقرآن الكريم، فهو يتلوه  
آناء الليل وأطراف النهار... ومع ذلك فهو يقدم أقوال الرجال على قول رسول الله  
ﷺ - وهو يعلم بذلك-، ويقدم شرائع الجاهلية على شريعة الإسلام، فقد كذب في  
زعمه وادعائه. قال تعالى على لسان نبيه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ  
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس

أجمعين»<sup>(١)</sup>.

أما غير الأنبياء من الشيوخ والقادة فنطيعهم فيما كان فيه طاعة الله، ويتوجب علينا عدم طاعتهم فيما كان فيه معصية الله.

## ٢- عصمة الأنبياء:

عصم الله أنبياءه من الشرك والضلالة، وبرأهم من الزيغ والأهواء، وطهرهم من الفسوق والعصيان، واختارهم من أشرف الناس نسباً، وأفضلهم أخلاقاً، وأكثرهم حِلماً وحكمةً، وأعظمهم أمانة، وأقواهم حجة، وأوفرهم ذكاء. قال تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولم يقترف أحد منهم كبيرة، ولم يصدر عنهم ما يخل بالمروءة... لقد كانوا غرباء في أقوامهم تلحظهم عناية الله، ويحيطهم برعايته. قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص].

انظر كيف أمر الله رسوله ﷺ أن يسلك مسلك هؤلاء الأنبياء الذين اصطفاهم الله من أبناء جنسهم، فكانوا أهلاً لهذا الاختيار في صدقهم

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم. انظر مختصر صحيح مسلم. الحديث (٢٣).



وإخلاصهم وتجردهم لله.

وفي سورة [طه] يقص الله على نبيه موسى عليه السلام سيرة ولادته وحياته، ومن يتتبع هذه الآيات يشعر برعاية الله تحيط بموسى حيثما حل وارتحل وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَفَعْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١) [طه]. أي اخترتك لوحيي ورسالتي لتصرف على إرادتي.

وفي سير أنبياء الله تشابه كبير في الصدق والاستقامة والإخلاص... ولهذا سارع كثير من الناس إلى تصديقهم منذ الوهلة الأولى، وقبل أن تظهر على أيديهم المعجزات، لا لشيء إلا لأنهم كانوا قبل النبوة أمناء في أقوامهم لا يقولون إلا حقاً ولا يتكلمون إلا صدقاً.

قال تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿يَقُولُوا لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّصِيحَاتِ﴾ (٧٨) [الأعراف] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرُونَ بِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٥) [الأعراف]

ونظراً إلى هذه الصفات التي امتاز بها الأنبياء عن غيرهم، أو جب الله علينا أن نستسلم وننقاد لكل ما يقولون، فكل ما يصدر عنهم حق لأنه بمثابة الوحي. قال

تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٤) [النجم]

أما غير الأنبياء من الشيوخ والقادة، فليس لهم عصمة، ولا نأخذ منهم إلا ما

وافق الحق، وأقوالهم بحد ذاتها لا يصح أن تكون دليلاً... ويعجبني كلام للعالم المجدد أحمد ولي الله الدهلوي عن عصمة الأنبياء نقله فيما يلي لأهميته:

(ثم لا بد لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقول من الخطأ والإضلال، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين: إما أن يكون راوياً عن رجل قبله انقطع عنده الكمال لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفحهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤقتة، وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية، فإن العربي مثلاً لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر،

ولفظ الأرض لذلك، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينها ملازمة عقلية، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علماً ضرورياً، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه للناس، إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطائية أن ما يدعوا إليه حق، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة، وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً، وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم، والماء الزلال عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق انصبغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونها، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور، أصابوا أم أخطؤوا والله أعلم.<sup>(١)</sup>

### ٢- ابتعث الله أنبياءه بالإسلام:

اختار الله نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً وجميع أنبياءه ورسله ليبلغوا أقوامهم دعوة الإسلام، وكل من يدين بغيره كاليهودية والنصرانية وغيرهما فهو من المخلدين في نار جهنم وساءت مصيراً. قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا

(١) حجة الله البالغة [باب الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل] [٨٣-٨٤]. مكتبة دار المعرفة

نُصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿أَفَعَبِّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ [آل عمران]

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]: (إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية. وقال في هذه الآية خبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام). اهـ (١)

ولو شهد عيسى وموسى عليهما السلام نبوة محمد ﷺ لكانا أول المستجيبين إليه السائرين في ركبه.

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٥٤)، مطبعة الحلبي.

وقد أخبرنا الصادق المصدوق أن أول عمل يفعله عيسى عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان: كسر الصليب. قال ﷺ:

«والله لينزلنَّ ابنُ مريمَ حَكَمًا عادلاً، فليكسرنَّ الصليبَ وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الحزبيةَ، وَلَتَتَرَكَنَّ القِلاصُ»<sup>(١)</sup>، فلا يُسْمَعُ عليها، ولتذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، ولْيُدْعَوَنَّ إلى المال فلا يقبله أحد»<sup>(٢)</sup>. وفي رواية أخرى لمسلم في صحيحه أن المسيح عليه السلام يصلي مأموماً<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث دليل على براءة المسيح عليه السلام من عقائد النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عليه السلام، وتأكيد على أنه مسلم مقر بنبوة محمد ﷺ، بل مقر بقيادة المصطفى لجميع الأنبياء والمرسلين.

#### ٤- الأنبياء دعاة إلى حزب الله:

من حكم الله العجيبة أن جميع أنبياء الله يعرفون خاتم الأنبياء والرسول عليهم أفضل الصلاة والسلام، وما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننَّ به ولينصرنَّه. قال تعالى:

(١) القلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة الفتية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، مختصر صحيح مسلم للمنذري ط ٢ (٣٠٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم: (١٩٣/٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران]

وتوجت هذه المعرفة ليلة الإسراء حيث كان محمد ﷺ إمامهم لما اجتمعوا ببيت المقدس. (١)

وأما من جهة محمد ﷺ والمسلمين جميعاً فهم يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، وفيه - أي كتاب الله - أدق الأخبار عن أنبياء الله ورسله.

ويشعر المسلم بمشاعر وأحاسيس غريبة وهو يرتل القرآن، فهو قريب من أنبياء الله فيما يدعون أقوامهم إليه، يعيش معهم في مشكلاتهم، معجباً بهم غاية الإعجاب، فإذا مر على الآية التي تشير إلى إلقاء يوسف عليه السلام في الحب شعر أن هذا الفتى أخ من أعز إخوانه، وإذا مر على الآيات التي تحدثت عن هجرة الرسول ﷺ تمنى أن يكون أحد حراسه ليفديه بروحه وأولاده.

كما يشعر المسلم بعداوة نحو أساطين الكفر الذين مر ذكرهم في القرآن كتمود، وفرعون، وقارون وزوجة لوط وابن نوح وأبي لهب وعبد الله بن أبي... .

لم يعد للزمن قيمة لأننا نعيش في كل يوم مرات ومرات مع إبراهيم وموسى

(١) صلاة الرسول بالنبيين إماماً جاءت في حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة، وفي حديث آخر رواه أحمد عن ابن عباس. انظر زاد الميعاد: (٣/ ٣٤). تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

ومحمد ونوح وشعيب و... وعليهم السلام وكلنا أعضاء في حزب الرحمن: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]

أما أعداء الله الذين يفسدون في الأرض، ويعلنون الحرب على أولياء الله، فمهما اختلفت أسماؤهم وتباينت عصورهم فهم أعضاء في حزب الشيطان: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]

ولا لقاء أو تحالف أو مصالحة بين الحزبين.

وفي القرآن آيات كثيرة تشير إلى الأواصر التي بين أنبياء الله، وقد اختلطت آصرة القربى والنسب بأصرة الدين والعقيدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران]

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحديد]

وقال جلّ من قائل عن نوح: ﴿وَإِن مِّن شَيْعَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ [الصفات]

عقيدة واحدة، حزب واحد، أسرة واحدة، هذه والله هي النعمة الكبرى، والفضل العظيم الذي امتنَّ الله به على عباده المؤمنين.

### الخاتمة

-لهذه الأسباب أوجب الله على المسلمين أن يتمسكوا بمنهج الأنبياء، ويعضوا عليه بنواجذهم، وحثرنا جَلَّ وعلا من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً... كل حزب بما لديهم فرحون. وعلى غير هذا المنهج<sup>(١)</sup> الرباني الخالد لن تتوحد كلمة المسلمين ويلتئم جمعهم.

وقد ورد اصطلاح [منهاج النبوة] في الحديث التالي:

قال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها

(١) أخذ بعض الدعاة في الآونة الأخيرة يختارون أقوالاً وفتاوى لعلماء متأخرين، ويتخذون منها مناهج للعاملين في الحقل الإسلامي. وهذا منهم جهد ضائع، ولو كان معظم ما يقع عليه اختيارهم صحيحاً، لأن الصحيح من هذه الأقوال موجود في الكتاب والسنة، ومن يدقق النظر في هذه المناهج يجدها شبه خالية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ونحن لا نستطيع أن نلزم المسلمين بأقوال علماء معاصرين أو حتى من التابعين، بل ولا نستطيع أن نجزم بصحة هذه الأقوال. فليتبه هؤلاء الدعاة إلى أخطائهم ولا يغتروا بإعجاب كثير من الشباب بهم، فأحاديث وروايات القصاص كانت أكثر من كتبهم ومناهجهم رواجاً.



إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً عاصباً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون مُلكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»<sup>(١)</sup>.

- وهذه الأسباب فقد شملت القصص القرآنية التي تتحدث عن أنبياء الله معظم سور القرآن الكريم، وكانت آيات هذا الموضوع أكثر عدداً من آيات أي موضوع آخر.... وفي ذلك دليل على أهمية هذا المنهج، وشدة حاجة الدعوة إليه.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف]. وقال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود]

أجل، لقد كان في هذه القصص تفصيل لكل شيء: تفصيل لجميع جوانب العقيدة، والدعوة، والمنهج... وفي كل ما يواجهنا من مشكلات نجد حلولاً لها من القرآن... فعندما حزن رسول الله ﷺ من تكذيب المشركين له، وإعراضهم عنه - مع أنه كان الصادق الأمين فيهم -... في هذه اللحظات أنزل الله إليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ

(١) رواه أحمد: (٢٧٣/٤) وقال الهيثمي: رواه أحمد والبخاري، والطبراني ببعضه في الأوسط ورجاله ثقات. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: (١/٨). الحديث (٥).

اللَّهُ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الأحقاف]

ولهذا بشر الله جل وعلا رواد هذا الطريق بالنصر والتمكين: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة] ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْثُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصفات]

ألا ما أحوجنا إلى توثيق الصلة بكتاب الله الكريم نقرأ فيه بقلوبنا وجوارحنا قصص أنبيائه، الذين وصفهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ [غافر].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ [الأنبياء].

## الدين والمنهاج

وقبل أن أفرغ من كتابة هذا الفصل لا بد لي من تفسير قوله تعالى:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ۗ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]، والشاهد هنا قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۗ ﴾.

قال ابن عباس: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ أي سنة وسبيلاً، وبنحوه قال الضحاك ومجاهد وحسن وقتادة.

ومعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمه، وسبيلاً واضحاً يعمل به.<sup>(١)</sup>

ومما قاله أبو جعفر في هذه المسألة: (... ذكر الله ما كتب على بني إسرائيل في التوراة، وتقدم إليهم بالعمل بما فيها، ثم ذكر أنه قفى بعيسى بن مريم على آثار الأنبياء قبله، وأنزل عليه الإنجيل، وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه. ثم ذكر نبينا محمد ﷺ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٨٨). دار المعارف

بالعمل بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب وغيره، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله الذين قص عليه قصصهم، وإن كان دينه ودينهم - في توحيد الله بما جاءهم به من عنده، والانتهاى إلى أمره ونهيه - واحداً، فهم مختلفو الأحوال فيما شرع لكل واحد منهم ولأمته، فيما أحل لهم وحرم عليهم<sup>(١)</sup>.

وظاهر من قول قتادة أن الشريعة أخص من الدين إن لم تكن مباينة له، وأنها الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل وينسخ لاحقها سابقها، وأن الدين هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء. وهذا يوافق أو يقارب عرف الأمم حتى اليوم، لا يطلقون اسم الشريعة إلا على الأحكام العملية، بل يخصصونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه إلى الحكام، دون ما يدان الله به من أحكام الحلال والحرام<sup>(٢)</sup>.

أما عندما يكون الحديث عن الدين، فجميع رسل الله يدينون بدين واحد انفراد المولى جلّ وعلا بتنزيله وإقراره، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ

(١) تفسير الطبري: (٣٨٦/١٠). دار المعارف

(٢) تفسير المنار: (٤١٣/٦). دار المعرفة، بيروت.

شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴿ الشورى: ٢١﴾.

وقال رشيد رضا رحمه الله:

(والمشهور في عرف فقهاءنا وعامتنا أن الدين والشرع أو الشريعة بمعنى واحد، ولكن مع ذلك ترى استعماله: علم الشرع وعلماء الشريعة، وكتب الشريعة، ألصق بالفقه وكتبه وعلمائه منها بعلم العقائد والأخلاق وعلمائها وكتبها. وتجد الفقهاء يقولون: يجوز هذا ديانة لا قضاء. ونحو ذلك،. وتحرير القول: إن الشريعة اسم للأحكام العملية، وأنها أخص من كلمة [الدين] وإنما تدخل في مسمى الدين من حيث أن العامل بها يدين الله تعالى بعمله، ويخضع له ويتوجه إليه مبتغياً مرضاته وثوابه بإذنه)<sup>(١)</sup>.

وقد حسم الخلاف في هذه المسألة العلامة ولي الله الدهلوي إذ قال:

(اعلم أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج، تفصيل ذلك أنه أجمع الأنبياء عليهم السلام على توحيد الله تعالى عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه، وتحريم الإلحاد في أسمائه، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله، وأنه قدّر جميع الحوادث قبل أن يخلقها، وأن الله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون، وأنه ينزل الكتاب

(١) تفسير المنار: (٦/٤١٤).

على من يشاء من عباده، ويفرض طاعته على الناس، وأن القيامة حق، والبعث بعد الموت حق، والجنة حق، والنار حق، وكذلك أجمعوا على أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والتقرب إلى الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله، وكذلك أجمعوا على النكاح، وتحريم السفاح، وإقامة العدل بين الناس وتحريم المظالم وإقامة الحدود على أهل المعاصي، والجهاد مع أعداء الله، والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه، فهذا أصل الدين. ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن طبيعة هذه الأشياء إلا ما شاء الله فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن على ألسنتهم، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها، فكان في شريعة موسى عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلى بيت المقدس، وفي شريعة نبينا ﷺ إلى الكعبة، وكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره، وكان في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها، وبالجملة: فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبنيت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج، واعلم أن الطاعات التي أمر الله تعالى بها في جميع الأديان إنما هي أعمال تنبعث من الهيئات النفسانية التي هي في المعاد للنفوس أو عليها وتمد فيها وتشرحها وهي أشباحها وتمثيلها، ولا جرم أن ميزانها وملاك أمرها تلك الهيئات، فمن لم يعرفها لم يكن من الأعمال على بصيرة، فربما اكتفى بها لا يكفي، وربما صلى بلا قراءة ولا دعاء، فلا يفيد، فلا بد من سياسة عارف حق المعرفة يضبط الخفي المشتبه بأمارات واضحة

ويجعلها أمراً محسوساً يميزه الأداني والأقاصي، ولا يشتبه عليهم ليطلبوا به ويؤاخذوا عليه على حجة من الله واستطاعة منهم<sup>(١)</sup>. اهـ

وإزالة لكل التباس لا بد لي من تسجيل الملحوظتين التاليتين:

١- قسم علماءنا - في القديم والحديث - الإسلام إلى أقسام من أهمها: الشريعة، الدين، الحديث، التفسير، العقائد، الفقه، المصطلح.

وربما توهم بعضهم أن الشريعة مستقلة عن الدين، أو أنه من الممكن تطبيق بعض الإسلام دون بعضه الآخر.

والذي يجب التأكيد عليه بأن هذه الأوهام ليست صحيحة على الإطلاق، ففروع الدين لا تنفصل عن أصوله، والفقه لا ينفصل عن القرآن والحديث. والغرض من هذه التقسيمات عند علمائنا فني محض لسهولة الدراسة والبحث.

٢- في اختيار عنوان الكتاب: [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] قصدت الأصول والأهداف الواحدة التي كانت تجمع بين أنبياء الله جميعاً، وهذا الذي يعنيه كثير من الكتاب في عصرنا، وكما يقولون: لا مشاحة في الاصطلاحات لاسيما إذا كانت لا تتعارض مع تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي إن أصل الدين واحد والشرائع مختلفة.

(١) حجة الله البالغة للدهلوي: (١/٨٦-٨٧)، دار المعرفة، بيروت.

# نوح عليه السلام

\* بعثة نوح عليه السلام.

\* كيف بدأ الشرك؟

\* دعوة نوح.

\* موقف الملائكة.

\* نوح وأهله.

\* الطوفان.

\* عبر وعظات من سيرة نوح عليه السلام.



## بعثة نوح عليه السلام

تلازم توحيد الله وعدم الإشراف به جلّ وعلا، مع هبوط آدم عليه السلام على هذه الأرض، فقد كان الناس أمة واحدة، ويدينون بالإسلام، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: «كان الناس أمة واحدة، على الإسلام كلهم». وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين».)

فإن كان المراد بالقرون مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، ولكن هذا لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار والله أعلم.<sup>(١)</sup>

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: (١/١٠١)، وفتح القدير للشوكاني: (١/٣٧٩)، الناشر: دار الوفاء بالمنصورة، ومصنف ابن أبي شيبة: (٣٣٩٢٨)، وحديث أبي أمامة رواه الحافظ أبو حاتم بن حبان =

وروى مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: [كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً]»<sup>(١)</sup>.

وبعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلَهُتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدَّ وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح]

قال:

(صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد. أما وُدّ فكانت لكلب بدومة الجنادل، وأما سُوَاعٌ فكانت لهذيل، وأما يَغُوثُ فكانت لمراد ثم لبني غُطَيْفٍ، بالجرُف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْرٌ فكانت لجمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم

=في صحيحه، ونصه أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم، قال: «نعم، مكلم». قال فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون». وهذا على شرط مسلم ولم يخرج.

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم: (٢٨٦٥).

أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسُمُّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبَد، حتى إذا هلك أولئك وَنَسَخَ الْعِلْمُ عُيِدَتِ<sup>(١)</sup>.

وقال ابن جرير:

(كانوا قوماً صالحين - أي يغوث ويعوق... - بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم)<sup>(٢)</sup> اهـ.

وعندما عم البلاء، وانتشر الفساد، وعكف الناس على عبادة الأصنام من دون الله، فاختار الله عبده نوحاً لينذر قومه من عذابه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «.... فيأتون نوحاً فيقولون - أي الخلائق - يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسَمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً، أما ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك....»<sup>(٣)</sup>

وهذا يعني أن آدم وإدريس كانا نبيين لا رسولين. وقد ورد ذكر نوح عليه

(١) فتح الباري: (١٠/٢٩٣)، مطبعة البابي الحلبي.

(٢) البداية والنهاية: (١/١٠٦).

(٣) فتح الباري، وصحيح البخاري، الحديث رقم (٣٣٤٠) حديث الشفاعة، وهو حديث طويل وقد اجتزأنا منه ما يخص نوحاً عليه السلام (٧/١٨٢) مطبعة البابي الحلبي.

السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، وذكرت قصته مفصلة في سورة الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، ونوح<sup>(١)</sup>.

أما كيف صارت أصنام قوم نوح في العرب، فيحتمل أنها سرت لهم تلك الأسماء من قبل الهند، أو أن الشيطان ألهم العرب ذلك. وليس في هذا دليل صحيح.

### كيف بدأ الشرك

في حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه دروس وعبر كثيرة. من أهمها ما يلي:

١- زين الشيطان لقوم نوح وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موتهم، وأوحى إليهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها [أنصاباً] جمع نصب. والمراد به هنا: الأصنام المصورة على صور أولئك الرجال الصالحين التي نصبوها في مجالسهم، وسموها بأسمائهم.

وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشيطان أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها.

لقد استخف الشيطان قوم نوح فأطاعوه، وأصبحوا جنوداً في جيشه، وأعضاء عاملين في حزبه، وكان من الواجب عليهم أن يحذروا منه لأنه عدو مبين لهم.

(١) قصص الأنبياء ص(٣١). دار إحياء التراث العربي .

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

كان من الواجب عليهم أن يعلموا أن عبادة الله تعني عصيان الشيطان ومخالفته في كل ما يوسوس به وقد أخذ الله عهداً بذلك على عبادة الموحدين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

٢- جاء في الحديث: «... فلم تُعبد - أي الأصنام - حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبِدت».

و[تنسخ] من نسخ أي زال، وللكشميهني [نسخ العلم] أي درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله. (١)

(١) فتح المجيد، عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص (٢٢١).

وإذن لم يستطع الشيطان أن يحقق هدفاً واحداً من أهدافه خلال ألف عام لأن حيله لا تنطلي على العلماء، وبضاعته لا تجد رواجاً بينهم لأنهم يعرضون كل جديد على شرع الله، والعبادة عندهم لا تكون إلا بما شرع الله.

وعندما عم الجهل ومات العلماء أصبحت أوامر الشيطان نافذة وأقواله مسموعة... ومن أجل هذا كانت أول آية تنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ:

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق].

فأخذ ﷺ يعلم أصحابه ويربيهم في مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم، وتخرج من هذه المدرسة العظيمة رجال علماء لا يجروا الشيطان أن يقترب منهم.

وما فتىء الزمان يدور حتى قل العلم والعلماء، وكثرت المدارس والجامعات، وسخر الشيطان نفراً من جنده قاموا بوضع مناهج ليس فيها من العلم الشرعي إلا اسمه وفي ظل هذه المناهج الموبوءة كثر دعاة الغلو، وأصبحت بلاد المسلمين مرتعاً للمنحرفين، وموتلاً لأصحاب البدع والأهواء، وحقل تجارب لجميع الأفكار والمبادئ الدخيلة المستوردة.

لقد عادت عبادة الأصنام من جديد، لكنها أصنام عصرية حديثة قدمها الكهنة الجدد بأساليب وأشكال جديدة، ومن أهم هذه الأصنام: القومية، والوطنية، والاشتراكية، والديمقراطية، والعلمانية، والوجودية، وفي كل يوم نسمع أسماء

أصنام جديدة ما أنزل الله بها من سلطان.

٣- لم يطلب الشيطان من قوم نوح عبادة غير الله دفعة واحدة، ولو فعل ذلك لما استجاب له أحد، لكنه تدرج معهم، فهو من جهة زعم حبه للرجال الصالحين، وأوحى لقوم نوح بوجوب صنع تماثيل لهم تخليداً لذكراهم.... وبعد انقراض ما تبقى من العلماء أوحى لمن جاء بعدهم من الجاهلين أن من سبقهم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فاستجابوا له. ويحدثنا ابن القيم رحمه الله عن وسائل الشيطان كلاماً طيباً نقله فيما يلي لأهميته:

(وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسَم عليه، أو يُسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل، ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذ عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مصاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهي عن ذلك فقد تنقص أهل هذه

الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فيغضب المشركون وتشمئز قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٤٥) [الزمر].

وسرى ذلك في قلوب كثير من الجهال والطغاة، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤] (١)

ومن أعاد النظر في تاريخنا الحديث علم أن جند الشيطان طبقوا الخطة نفسها التي رسمها شيطانهم الأول مع قوم نوح، ودليلنا على ذلك أن ما تعانيه أمتنا من انحرافات وبعد عن الإسلام في جميع شؤونها لم يحدث دفعة واحدة، وإنما تم على مراحل. وإذا أخذنا قضية المرأة كمثال على ذلك نلاحظ أن أعداء الإسلام رفعوا شعار تعليم (٢) المرأة أولاً، وعندما تقرر ذلك وضعوا المناهج التي يريدون وجاءوا

(١) فتح المجيد ص (٢٢٣)، دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) إن تعليم المرأة لا خلاف فيه عند علماء المسلمين، وما كانت عليه المرأة من جهل وتحلف قبل نصف قرن ما هو إلا سمة من سمات ذلك العصر .



بمدرسين ومدرسات تربّوا على أعينهم، وعندما تقرر ذلك زينوا للنساء المسلمات أن يتخذن من المرأة الغربية -على ما هي عليه من انحراف- قدوة لهن... وعندما تقرر لهم ذلك أخذوا ينادون بخلع الحجاب لأنه قيد، ولا أصل له في دين الإسلام كما زعموا، وعندما تقرر لهم ذلك راحوا ينادون بالاختلاط ومساواة المرأة بالرجل في السياسة والإرث وإدارة أعمال الدولة وكل شيء... وعندما تقرر لهم ذلك وضعوا القوانين التي لا ترتب على المرأة عقوبة إن زنت.

٤- وللشيطان اليوم سلطان واسع على بلاد المسلمين. لقد زين لأتباعه بناء القباب الفخمة على قبور الأولياء، وإشادة المقامات والأضرحة التي يتمنى كثير من الأحياء أن تكون سكناً لهم، ونشط أهل الغلو في الدعوة إلى تعظيم هذه المقامات والتوسل بها، وأخذ الناس يحجون إلى هذه المزارات، ويطوفون حولها، وعندها ينحرون وبها يدعون ويستشفعون، ويطلبون من أصحاب القبور أموراً لا تطلب إلا من الله وحده...

وقد قام الشاعر حافظ إبراهيم بزيارة لبعض هذه الأضرحة، واستغرب كثرة ما يتفق عندها من مال فقال هذه الأبيات:

وألف ألف يرزق الأموات	أحياءنا لا يرزقون بدرهم
ووسيلة تقضى بها الحاجات	ويقال هذا القطب باب المصطفى
يا أم دفر ما به أقتات	وأنا أعذب في الحياة وليس لي

ومن أهم هذه المقامات: البدوي والحسين وزينب في مصر، وابن عربي وزينب في بلاد الشام، والجيلاني وعلي والحسين في العراق، والعيدروس في اليمن، وهي مقامات وأضرحة وهمية، وليس هناك أدنى دليل على أن علياً والحسين وزينب قد دفنوا في هذه القبور، مع أن كثيراً من الصحابة قد دفنوا فعلاً في هذه البلاد ونكاد لا نجد لهم ذكراً عند أصحاب هذه البدع والضلالات<sup>(١)</sup>.

وفوق ذلك كله، فلقد تبوأ عباد القبور أرفع الوظائف الدينية عند الطغاة الظالمين، وأصبحوا بطانة سوء لهم يصدرون الفتاوى في وجوب قتل ومطاردة الدعوة إلى الله جلّ وعلا، ويزينون لسادتهم كل عمل يعملونه ولو كان فيه ما فيه من إلحاد وفساد.

ومن المؤسف أنه ما زال لعباد القبور أتباع وأعوان يحسنون الظن بهم، ويرون أنهم دعاة إلى الله، وفي مثل هذه الأجواء المحمومة تزدهر تجارة المنافقين الذين ينشدون المنافع والمصالح عند علماء السوء، ومن أتعس الناس في هذه الدنيا الذين ينافقون للمنافقين ولا يستطيعون اختصار الطريق على أنفسهم.

٥- حرم الإسلام الصور لأنها سبب في عبادة الأصنام والأوثان، فقد رأينا فيما مضى أن قوم نوح عبدوا صور الرجال الصالحين فيهم بعد موتهم واتخذوها أصناماً، وأخبرنا الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة والتسليم أن أشد الناس

(١) تعظيم القبور من البدع والضلالات سواء كان المدفون في القبر صحابياً أو غير صحابي.

عذاباً يوم القيامة المصورون:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»<sup>(١)</sup>.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه هتكه، وتلون وجهه، وقال: «يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاھون بخلق الله تعالى»، قالت عائشة: فقطعنا فجعنا منه وسادة أو وسادتين<sup>(٢)</sup>.

وعن سعيد ابن أبي الحسن قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني رجل أصور هذه الصور فافتني فيها، فقال له: ادن مني، فدنا منه، ثم قال: ادن مني، فدنا حتى وضع يده على رأسه، وقال: أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ؟ سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفساً فتعذبه في جهنم» وقال: «إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له»<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَوَّرَ

(١) أخرجه، واللفظ لمسلم، مختصر صحيح مسلم للمنذري. الحديث رقم (١٣٧٠).

(٢) أخرجه، واللفظ لمسلم، المصدر السابق، الحديث رقم (١٣٦٦)، والسهوة: بيت صغير منحدر في الأرض شبيه بالخزانة، والقرام ثوب من الصوف، ويضاھون: يشبهون. حاشية المختصر.

(٣) أخرجه، واللفظ لمسلم، مختصر صحيح مسلم الحديث رقم (١٣٦٩)، (٢ / ١٢٤).

صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُتِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»<sup>(١)</sup>

بعث رسول الله ﷺ علياً وأمره أن يطمس كل صورة يراها:

عن أبي الهيثاج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ «أن لا تدعَ تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويتَهُ»<sup>(٢)</sup>.

ويستثنى من ذلك تفصيله جواز تصوير ما فيه فائدة محققة، أو كانت هناك ضرورة تدعو إلى ذلك.

قال الشيخ ناصر الدين الألباني:

(وقبل أن أنهي هذه الكلمة لا يفوتني أن ألفت النظر إلى أننا وإن كنا نذهب إلى تحريم التصوير بنوعيه جازمين بذلك، فإننا لا نرى مانعاً من تصوير ما فيه فائدة متحققة بدون أن يقترن بها ضرر ما، ولا تيسر هذه الفائدة بطريق أصله مباح، مثل التصوير الذي يحتاج إليه في الطب وفي الجغرافيا وفي الاستعانة على اصطلياد المجرمين والتحذير منهم ونحو ذلك فإنه جائز، بل قد يكون بعضه واجباً في بعض الأحيان، والدليل على ذلك حديثان:

الأول: عن عائشة أنها كانت تلعب بالبنات فكان النبي ﷺ يأتي لي بصواحيبي يلعبن معي.

(١) أخرجه، واللفظ للبخاري، فتح الباري: (٢/ ٥١٨).

(٢) أخرجه مسلم، مختصر صحيح مسلم، الحديث (٤٨٨، ١/ ١٣١).

أخرجه البخاري (٤٣٣ / ١٠) ومسلم (١٣٥ / ٧) وأحمد (١٦٦ / ٦)، ٢٣٣،  
 (٢٣٤) واللفظ له وابن سعد (٦٦ / ٨).

وفي رواية عنها أنه كان لها بنات تعني اللُّعْب وكان إذا دخل النبي ﷺ استتر  
 بثوبه منها. قال أبو عوانة لكي لا تمتنع أخرجه ابن سعد (٦٥ / ٧) وسنده صحيح.

واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب  
 البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله  
 عن الجمهور، وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريههن من صغرن على أمر  
 بيوتهن وأولادهن.

الثاني: عن الربيع بنت معوذ قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى  
 الأمصار (التي حول المدينة)، من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه، ومن أصبح صائماً  
 فليصم، قالت: فكنا نصوم بعد، ونصوم صبياننا (الصغار منهم إن شاء الله ونذهب  
 إلى المسجد) ونجعل لهم اللعبة من العهن (فنذهب به معنا)، فإذا بكى أحدهم على  
 الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون عند الإفطار.

(وفي رواية: فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم حتى يتموا صومهم)  
 رواه البخاري (١٦٣ / ٤) والسياق له ومسلم (١٥٢ / ٣) والزيادات مع الرواية  
 الأخرى له.

فقد دل هذان الحديثان على جواز التصوير واقتنائه إذا تربت من وراء ذلك  
 مصلحة تربوية تعين على تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها، فيلحق بذلك كل ما فيه

مصلحة للإسلام والمسلمين من التصوير والصور، ويبقى ما سوى ذلك على الأصل وهو التحريم مثل صور المشايخ والعظماء والأصدقاء ونحوها مما لا فائدة فيه بل فيه التشبه بالكفار عبدة الأصنام، والله أعلم<sup>(١)</sup>

وقصارى القول: فقد دلت الأحاديث النبوية على جواز التصوير واقتنائه إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين. وهذا ما قاله الشيخ ناصر الألباني والغالبية العظمى من علماء هذا العصر، لأن الحاجة إلى التصوير اليوم قد تضاعفت وتعددت وشملت مختلف مناحي الحياة: الأمنية والسياسية والعلمية، ولهذا فقد أعدت النظر فيما قلته في الطبعة الأولى قبل ثلث قرن.

## دعوة نوح

دعا نوح قومه إلى الاعتراف بوحداية الله وعدم الإشراف به، وأن لا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود].

(١) حكم الإسلام في التصوير، سلسلة طوبى للغرباء. ص (٦٦ و ٦٧).

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا

تُنْقَوْنَ ﴿٢٣﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ [نوح].

إن دعوة نوح لقومه خلال ألف سنة إلا خمسين عاماً تتلخص بقوله تعالى:

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بل هذا منهج أنبياء الله جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء].

ولن يستقيم أمر الناس في هذه الدنيا إلا إذا أذعنوا لله، وانقادوا له في كل شأن من شؤون حياتهم ومماتهم، ولا معنى لهذا الانقياد والاستسلام إلا إذا عبدوا الله وكفروا بكل ما يعبد من دونه.

وكان نوح عليه السلام حريصاً على نجاة قومه من الهلاك، لا يرجو لهم إلا الخير، ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجراً... ولهذا تطف في خطابهم، وسلك في دعوته لهم كل سبيل.

١- فمن الأدلة على شفقتة ومحبتة لهم قوله تعالى على لسان نوح: ﴿..إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿..إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

الِيمِ ﴿ [هود: ٢٦].

٢- يضع نوح عليه السلام الأمور في مواضعها الصحيحة.

قال تعالى على لسان نوح: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ [هود]

يقول نوح في رده على قومه: إنني لا أعلم الغيب، ولا أعد المؤمنين بهال أو جاه، فأجرهم على الله وحده يوم لا ينفع مال ولا بنون، بل ولم أدع أي ملك كريم، إن أنا إلا بشر أكرمني الله بالرسالة. وعندما يتحداه قومه أن يأتيهم بالعذاب الذي يعدهم به إن كان صادقاً، يجيبهم بأن الله وحده هو الذي يأتيهم بالعذاب، ونوح عبد أكرمه الله بالرسالة، وهو لا يملك لنفسه ولا لهم نفعاً ولا ضراً. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ [هود]

ما أحوج دعائنا إلى هذا المنهج الرباني الخالد... ما أحوجهم إلى تربية الناشئة على الإيمان بالغيب، وانتظار الأجر من الله وحده، وليس من شيخ أو زعيم يعدهم بحقائب وزراية أو وظائف قيادية... وبعد حين لا تتحقق هذه الوعود فيتحول الشباب إلى أعداء لشييوخهم!!.

٣- يُذَكِّرُ نوح قومه بأنه الرجل المعروف بينهم بالأمانة والصدق، وأنه لا



يطلب منهم أجراً أو مالا، ولا ينتظر مكافأة أو ثواباً إلا من الله وحده.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس] ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لِي إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْفِقُونَ رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَنَكُم مَّا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود] ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتُمْ قَوْمَ ﴿١٠٦﴾﴾ إِيَّيْكُمْ رَسُولٌ مِّنِّي ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء]

٤- وأحياناً كان يلفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق، ويعدد لهم الآلاء على عباده لعلهم يهتدون إلى وحدانية الله، وينتهون عن عبادة ما لا يضر ولا ينفع. قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح]

٥- وكان عليه السلام لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله تعالى، ولهذا فهو يواصل الليل مع النهار، والسر مع الإعلان. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي

أَعْلَنْتُمْ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُمْ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ [نوح]

ألف سنة إلا خمسين عاماً قضاها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما أعرض قومه غير وبدل في أسلوبه، وهذا يعني أنه كان يحاسب نفسه، فإذا أعرض قومه عن الدعوة العلنية عاد يبلغهم الدعوة بصورة سرية، وفي جميع الحالات كان رحيماً بهم خائفاً عليهم من عذاب يوم أليم.

لقد كان نوح قمة في الصبر، وآية من آيات الله في الحلم والأناة وسعة الصدر، وأمة في الجِد والمثابرة، وطوداً شامخاً في التواضع وإنكار الذات... وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجراً أو مكافأة، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب، وحاشاه ذلك.

فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم، ويسبؤون الظن بأقوامهم، فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم، وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها؟!!

هل يتعظ بذلك الدعاة الذين يقدسون ذواتهم، ولا يقبلون من إخوانهم نقداً أو نصحاً، ولا يدعون إلى الله إلا بأجر؟!!

## موقف المملأ

المملأ: هم بطانة الحكام الطاغين وأعوانهم الذين تحركهم أهواؤهم، وأصحاب المصالح، والأغنياء المترفون، والمنافقون، وكثير من زعماء المناطق والقبائل... ومن سنن الله الثابتة في خلقه أن يكون هؤلاء جميعاً في طليعة من يتصدى لأنبياء الله لأن نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أشربت كره كل من يدعو إلى الله... وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ]

ولهذا فقد شن المملأ حرباً شعواء على نوح عليه السلام، وأدبروا يسعون في الأرض فساداً، واستخدموا وسائل كثيرة ودعايات متناقضة في مواجهة أول رسول إلى الأرض.

١- مما أخذه المملأ على نوح أن أتباعه كانوا فقراء مستضعفين، ولم يستجب لدعوته أحد من الأشراف والسادة. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ إِلَّا الَّذِي كَفَرْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود]

أرادلنا: أردناؤنا وأخساؤنا، ويعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر كالزراع والصناع والعمال.

بادي الرأي: أي اتبعوك في بادي الرأي أي ظاهره الذي يبدو للناظر فيه قبل

العلم بها وراء قوادمه من خوافيه، والتأمل في باطنه، والغوص في أعماقه<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾<sup>(١١٣)</sup> قَالَ وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

﴿ ١١٣ ﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿ ١١٣ ﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ [الشعراء].

وما زال لهذه الطبقة الشاذة الهمجية جذور راسخة في عصرنا الذي يسمى بعصر التقدم والمدنية.

فبعض المنسويين إلى أهل العلم يتناولون على الذين لا علم عندهم!

والأغنياء المترفون - الرأسماليون والإقطاعيون - يحتقرون العمال الكادحين والفقراء المدقعين، ولو كانوا أصحاب مواهب فذة!!

وأرباب المناصب الكبيرة يزدرون عامة الناس، ويتخذون من أنفسهم أرباباً من دون الله!!

وهذه كلها مقاييس جاهلية مهما نعق دعائها بالمساواة والعدل... والله سبحانه وتعالى مقياس ثابت لا يتزعزع:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، إن المتقين أعز خلق الله، وأرفعهم شأنًا ولو كانوا شعثًا غبراً لا يملكون مالاً أو جاهاً... ولهذا كان رد نوح على قومه: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾<sup>(١١٤)</sup> [الشعراء]، فهم مؤمنون وكفاهم ذلك

(١) تفسير المنار، رشيد رضا: (١٢ / ٦١)، دار المعرفة بيروت.

نسباً وشرفاً.

٢- تناسى الملائكة مكانة نوح عليه السلام في قومه قبل الرسالة، لقد كان صادقاً أميناً، لا يجروء أحد منهم أن يطعن في عدالته واستقامته... وبعد أن أكرمه الله بالرسالة التي تستهدف أول ما تستهدف زعامتهم الظالمة راحوا يلصقون به تهماً لا حصر لها:

فتارة يقولون إن نبيكم ضالٌّ: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ [الأعراف].

وتارة أخرى يتهمونه بالكذب: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ [الأعراف] وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ [هود] أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ [هود]

وفي غير هذه وتلك يقولون إنه لمجنون!! ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ [المؤمنون]

وهكذا تنقلب الموازين، وتتذبذب القيم، وكل إناء بما فيه ينضح!!.

٣- إن غاية ما يتطلع إليه المترفون أن يكونوا سادة أقوامهم وأهل الحل والعقد فيهم.. ومن أجل ذلك يتحاربون ويتنافسون، ويحسبون أن المال والجاه هما كل ما

في هذه الدنيا، ولهذا فهم لا يتصورون معاني إنكار الذات والانقياد التام لله... ومن هنا جاء اتهامهم لنوح عليه السلام بحب الزعامة.

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ۖ بَلْ نُنَظِّقُكُمْ كَذِيبَاتٍ ﴾ [هود]

وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وفي قولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾، فالفضل عند المملأ يعني: القوة والمادة وكثرة الرجال... وهذه الصفات متوفرة عند المملأ وليس عند نوح ومن آمن معه.

وفي قولهم: ﴿ بَلْ نُنَظِّقُكُمْ كَذِيبَاتٍ ﴾. أي ليس هناك من رسالة ولا رسول، بل هي مؤامرة طبقية تستهدف الإطاحة بالسلطة والأشراف، وتسليم شؤون الحكم إلى العبيد والمنبوذين!!.

ومن أهم ما تمسك به المترفون في ردهم على نوح عليه السلام أنه خرج على المألوف من العادات، وخالف نهج الآباء والأجداد. قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ [المؤمنون]، والشاهد في هذه الآية قولهم: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين!!، وهذا يعني أن الحق هو ما يأتيهم عن طريق الآباء،

وما يأتي عن غير طريقهم فضلال وانحراف.

ومن شر ما تبثلى به الأمم والشعوب جمود قاداتها ومفكرها على آراء وتصورات الآباء والأجداد، ومن المؤسف أن ناساً من الناس قد يستخرون من جمود قوم نوح، ومع ذلك فهم متمسكون بآراء وفتاوى شيوخهم وزعمائهم رغم ما فيها من أخطاء واضحة، ولا يرون جواز الخروج على آراء هؤلاء المشايخ، وعجيب أمر بعض الناس يرى القذى في عين غيره ولا يرى الجذع في عينه!!.

## نوح وأهله

قد يتلى الداعية بقومه وأصدقائه فيعاني منهم ما يعاني، لكنه إذا عاد إلى بيته وجد الراحة وطمأنينة النفس، وهذا الذي كان يلقاه خاتم الأنبياء ﷺ في كنف خديجة رضي الله عنها.

أما نوح عليه السلام فقد ابتلاه الله بقومه وبأهل بيته.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم].

وكانت خيانة امرأة نوح لزوجها أنها كانت تنقل أخباره وأسراره لأعدائه، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابة من قوم نوح به، فهي خيانة في الدين، وليس في العَرَض لأن نساء الأنبياء معصومات من الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ فَامْرُؤُا يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [التحریم: ١٠]، فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئاً مع الكفر، وقد بين سبحانه وتعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القربات كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۗ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۗ ﴾ [عبس] (١).

ولم تكن مصيبة نوح بزوجه آخر مصائبه في بيته، لقد رفض ابنه الإسلام، وأعرض عن أبيه ووقف في صف المشركين... وإنه لمن أثقل الأمور على النفس أن يفقد الأب ابنه ثم يراه في الصف المعادي له، ويحاول نوح عليه السلام إنقاذ ابنه من الغرق عند بداية الطوفان، ولكن هيهات.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [٤٢] قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴾ [٤٣] [هود]

وقال جلّ وعلا: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [٤٥] قَالَ يَنْوَحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [٤٦] قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [٤٧] [هود]

(١) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي: (٨ / ٣٨١).



لم يخالف نوح عليه السلام أوامر ربه، ولكنه اجتهد في أمر ابنه، وليس غريباً أن تتحرك عواطف الأبوة في نفس نوح وهو يرى الموت محققاً بفلذة كبده الذي يصدق فيه قول الشاعر:

وإنما أولادنا بيننا      أكبادنا تمشي على الأرض  
لو هبت الريح على بعضهم      لامتعت عيني من الغمض<sup>(١)</sup>

وقال أبو الحسن التهامي عندما وارى جثة ابنه:

فكأن قلبي قبره وكأنه      في طيه سر من الأسرار  
وللطوفان هول ودهشة تطير لهما الألباب، وتحار في وصفه الأخيلة والأفكار، وفي هذه الأجواء الرهيبة التي سبقت الطوفان بلحظات يتوجه نوح إلى ربه قائلاً:

﴿ رَبِّ إِنِّي أَبْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥].

والوعد الذي أشار إليه نوح قوله تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود]

(١) أبيات للشاعر حطان بن المعلى، ديوان الحماسة: (١/١٠١).

والذي سبق عليهم القول من أهل نوح وزوجه وولده، فهما من الذين يشملهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ (٣٧) [هود]، ومع أن نوحاً عليه السلام لم يخالف أوامر ربه، وكل ما في الأمر أنه سأله جلاً وعلا نجاته ابنه بعد أن رآه في معزل عن الكافرين، ورغم ذلك كان رد الله على عبده ورسوله نوح حاسماً واضحاً قوياً: ﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

- يا نوح إنك مؤمن وابنك كافر فكيف يكون من أهلك!؟

- يا نوح لا تسأل عن أشياء لا علم لك بها، وحذار حذار أن تكون من الجاهلین!!

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾:

(وهذا النهي يدل على أنه يشترط في الدعاء أن يكون بما هو جائز في شرع الله وسننه في خلقه، فلا يجوز سؤال ما هو محرم وما هو مخالف لسنة الله القطعية)<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦) [هود]، أي أنها أن تكون من الجاهلین الذين تحركهم الشهوات، وينقادون للأهواء والمنافع.

وترتعد فرائض نوح من شدة الخوف، ويرتجف من لوم الله له، ويتوجه إلى ربه مستغفراً تائباً: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي

(١) تفسير المنار، لرشيد رضا: (١٢ / ٨٥) دار المعرفة بيروت.

وَتَرَحَّمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٤٧﴾ [هود]

وقصة نوح مع ابنه تذكروني باستغفار رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب بعد هلاكه،  
وقوله «والله لأستغفر لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله: ﴿مَا كَانُوا لِلَّذِينَ  
ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] <sup>(١)</sup>

وروى الإمام أحمد عن أبي بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرّفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله مالك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناي رحمة لها من النار».

وإذن: عاتب الله نبيه نوحاً لأنه سأل ربه نجاة ابنه المشرك من الغرق، ولم يأذن لخاتم الأنبياء أن يستغفر لأمه آمنة، كما عاتبه لأنه كان يستغفر لأبي طالب الذي وقف مع ابن أخيه بكل ما يملك حتى توفي وكان يقول له:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وإننا بعد آلاف السنين لنشعر بالخجل لأن أواصر التراب والطين ما زالت عند بعضنا أقوى من آصرة العقيدة والدين، وإن الانتماء الجغرافي لكيانات صنعها أعداء الإسلام المستعمرون أصبح مقدساً عند ناس من بني جلدتنا... وهم الذين يقرؤون في كتاب الله:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (١٠/١٢٤)، مطبعة الحلبي.

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

## الطوفان

كان لقوم نوح قلوب لكنهم لا يفقهون بها فهي في قسوتها أشد قسوة من الصخر، وكان لهم عيون لكنهم لا يبصرون الحق بها، وكان من المنتظر أن تخف عداوتهم لنيبهم بعد سني حياته الطويلة، لكنهم ازدادوا نفوراً منه وعداوة له، وقد عرض علينا القرآن الكريم الصور التالية من أحوالهم قبل أن يهلكهم الله.

قال تعالى على لسان نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

(... وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها، وإصرارهم هم على الضلال. تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة. تبرز في وضع الأصابع في الآذان، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب. والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل، وهو يقول: ﴿ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ [نوح: ٧]، وآذانهم لا تسع

أصابعهم كاملة، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع. ولكنهم يسدونها في عنف بالغ، كأنها يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضماناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار<sup>(١)</sup>.

وبلغ الحمق بقوم نوح منتهاه عندما صاروا يستعجلون عذاب الله الذي يحدثهم عنه نبيهم، بل ويسخرون من نوح وهو يصنع الفلك قائلين له: قد كنت نبياً فأصبحت نجاراً، ومبعث هذه السخرية وذاك الاستعجال اعتقادهم أن نوحاً ليس صادقاً، ولن يحل بهم عذاب أو هلاك. قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ [هود].

وعندما أعوزتهم الحجة التي يردون بها على منطق نوح وأدلته الواضحة راحوا يهددونه بالرجم والقتل: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْوُحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء].

وما يزال طواغيت هذا العصر يلجؤون إلى هذا الأسلوب عندما يشعرون بقوة. الجماعة الإسلامية، وكثرة مؤيديها، وأنه من المتعذر جداً احتواؤها وتفريغها من مضمونها.

ما يزال أعداء الله يتظاهرون بالسماحة مع الدعوة، ويزعمون أنهم ضد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب. تفسير سورة نوح.

الاستبداد، بل وقد يدعون إلى إسلام لا يهدد زعامتهم وشهواتهم، فإذا رأوا أن الأمور تسير في غير صالحهم، وأن الجماعة الإسلامية لا ترضى بغير حكم الله بديلاً... انقلبوا إلى وحوش كاسرة وطغاة متجبرين... وسارعوا إلى حفر الأخاديد ونصب المشانق، وسوق المؤمنين الأحرار إلى السجون والمعتقلات حيث يعاملون فيها معاملة لا تليق بالبهائم والكلاب، ولا يكتفون بذلك بل يستنفرون أجهزة إعلامهم لتسميم الأجواء، وتشويه صورة الإسلاميين عند عامة الناس، وتسويغ جرائمهم التي يرتكبونها بحق عباد الله الموحدين.

وفي هذه الأجواء المحمومة التجأ نوح إلى ربه يشكو إليه جلاً وعلا ما يلاقه من قومه، ويسأله النصر والتمكين: ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون] ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصُرْ ﴾ [القمر].

أجل إنه مغلوب إذا لم تلحظه عناية الله، ويدركه نصره وتأييده، وهو لا يستطيع بعدد قليل من الناس أن يقابل جمعاً من الخلائق لا تحصى ولا تعد. ونوح فوق ذلك كله ليس له من الأمر شيء، وقد علمه ربه بشكل حاسم أن لا يسأله بما ليس له علم به، وما عليه إلا أن يشكو بثه وحزنه إلى الله، وينتظر منه وحده تفريج كربته.

وحسبت قضية تبليغ الدعوة إلى قوم نوح بقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ ءَامَنَ فَلَا نَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود]، إذن:

فلن يؤمن من قوم نوح إلا ذلك العدد القليل، ولن تنفع المواعظ بهم، ولم يبق أمامهم إلا الهلاك، وسيحل بهم غضب الله لا محالة، فدعا نوح ربه أن يعمهم سخط الله، وأن لا يذر منهم أحداً حياً على وجه الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٣٦ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٣٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ۝٣٨ ﴾ [نوح].

وبعد أن انتهى نوح من صنع السفينة، وحمل فيها من كل زوجين اثنين، وبينما كانت العصابة المؤمنة يجلسون حول نبيهم، وكانت سفينتهم تجري بسم الله وفي سبيل الله أرسل الله مطراً كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ۝١٣ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ۝١٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦ ﴾ [القمر].

وخلال زمن قليل جداً تم أمر الله في هلاك جميع الكافرين ونجاة المؤمنين...

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (١/١١٢).

وعندئذ أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تمسك عن المطر ﴿ وَقِيلَ  
يَتَّأْرِضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ  
بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ [هود].

(ما أفضح هذا المنظر! ما أشد هولاه! ما أعظم روعته! ماء ينهمر من آفاق  
السماء انهاراً، وأرض تتفجر عيوناً فواراة فتفيض مدرارة، ماء ثجاج يصير بحراً  
ذا أمواج، خفيت من تحته الأرض بجبالها، وخفيت من فوقه السماء بشمسها  
وكواكبها... فتخيل أنك ناظرٌ إلى هذه السفينة كما صورها لك التنزيل، وتفتكر  
في أمر هذا الخطب الجلل، واستمع لما بينه به الذكر الحكيم، أوجز عبارة وأبلغها  
تأثيراً، جعلت أعظم ما في العالم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً<sup>(١)</sup>).

وهكذا قضى الله أمره بهلاك الظالمين لأنهم حادوا الله ورسوله،  
واستمرؤوا الظلم، وأبوا التوبة والعودة إلى الله، فحال الموج بينهم وبين  
آبائهم وأشقائهم وتهاوت أصرة النسب الفانية، أمام أصرة العقيدة الخالدة.

هكذا انتهت محنة ألف سنة إلا خمسين عاماً، وانهارت عروش الطغاة  
الجبابة، وانهدمت أركان وقواعد الكفر والفساد... وكل ذلك تم  
بلحظات قصيرة فهل من مدكر!؟

(١) تفسير المنار، رشيد رضا: (١٢/ ٨٠).



## عبر وعظات من سيرة نوح

- ١- إن نوحاً عليه السلام الذي مَنَّ اللهُ جَلَّ شأنه عليه بالنصر والتمكين:
- كان عالماً بشؤون الدعوة وحال المدعوين، فهو يدعو إلى الله على بصيرة من أمره.
- وكان حليماً، واسع الصدر، محباً لقومه، لا يعرف الحقد سبيلاً إلى نفسه، ولا يأبه من استخفاف الناس به، ولا يقيم للأهواء والأمزجة وزناً... لقد كان مؤمناً بالله منقاداً لأمره.
- وكان يعيش لدعوته، فمن أجلها يواصل الليل مع النهار والسر- مع الإعلان، ولا يتقاضى على ذلك أجراً أو ينتظر مغنماً أو يطمع في جاه.
- وكان المؤمنون بدعوته هم أهله وعشيرته وحزبه وقومه ولو كانوا لا يرتبطون معه بنسب، ولا تجمعهم به مصالح من مصالح الدنيا.
- أما الكافرون بدعوته فهم غرباء عنه ولو كانوا أهله وأقرب الناس إليه نسباً... وكانت عداوته للمشركين تتناسب مع طول صبره عليهم وشدة اضطهادهم له، ولهذا دعا ربه أن لا يذر على الأرض منهم دياراً.
- فعلى الدعوة إلى الله أن يتأسوا بنوح عليه السلام في علمه وصبره وتجرده وليعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٢- كان نوح عليه السلام -مع نشاطه الذي تضرب به الأمثال في الدعوة- شديد الصلة بالله، كثير الالتجاء إليه، وليراجع من شاء الآيات في قصة نوح التي تكون بدايتها: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ ... ﴾ [نوح: ٢١] وقد سماه الله عبداً شكوراً.

فَمِنَ اللَّهِ وحده كان نوح عليه السلام ينشد النصر، وما كان -وهو يواصل الليل مع النهار- يعلق آمالاً على أحلاف يعقدها مع المشركين ضد مشركين، ولا كان مغروراً بقوته أو قوة أتباعه المادية.

ومن الأدلة على قوة إيمانه بالغيب رده القاطع على سخرية قومه -وهو في أشد حالات الضعف- بأنه سيسخر منهم غداً يوم ينصره الله.

وكان الله قريباً من عبده ورسوله نوح عليه السلام، في كل عمل من أعماله، فعند صنع السفينة قال تعالى: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا ﴾ [هود: ٣٧] وعن السفينة وهي تجري في موج كالجبال، قال تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤] أي بحفظنا وحرastنا وتقديرنا، ولن تتغلب جيوش الدنيا كلها على قلة مؤمنة يحفظها ويرعاها الله، ورحم الله من قال:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وفي مواضع كثيرة بين الله لنا كيف استجاب لنوح: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ

فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنْ أَلْبَابِ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ (٧٥) [الصفات].

ونحن اليوم عندما نوثق صلتنا بالله، ونكثر من الالتجاء إليه، ومنتظر النصر والتمكين منه وحده سينصرنا، وسوف يأخذ أعداءنا أخذ عزيز مقتدر.

فما بال ناس من الناس ينتظرون النصر من أمريكا أو من الروس، أو من الأحلاف التي يعقدونها مع الكافرين، أو يعتمدون في سعيهم على انحرافات بعضهم ويسموننا سياسة!!.

ليس والله هذا الحل بحل، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

٣- كان أتباع نوح عليه السلام قلة قليلة. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤٠) [هود]

كما كان أتباع معظم الأنبياء قلة قليلة، ومع ذلك كان الله يؤيدهم بنصره، وهو القائل: ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰكِرِينَ ﴾ (٢٤٩) [البقرة]

ومن الناس من يظن أن النصر مرتبط بالكثرة وهذا غير صحيح حتى في المقاييس الجاهلية، وما أمر فيتنام مع الولايات المتحدة، أو أمر إسرائيل مع الدول العربية عنا بعيد.

فعلى الذين يتفاخرون بالجموع الغفيرة التي تسير في ركابهم أن يعيدوا النظر في حساباتهم، فقد تكون جموعهم - إن كانوا صادقين - عبئاً عليهم، وليست عوناً لهم، وعليهم أن يعلموا أن القلة المؤمنة المتفوقة في مختلف المجالات، لا بد أن تتصدر، إن هي أخذت بأسباب النصر الإلهية والمادية والصناعية.

٤- ما من كربة إلا ويتبعها فرج، وإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، ولهذا كان جزاء الله لنوح عليه السلام عظيماً، لقد مكنه الله في الأرض بعد أن طهرها من الكافرين المفسدين، ولم يبق على وجه المعمورة إلا مؤمن موحد.

وأخذ الله من رسوله ولداً كافراً فأبدله به أولاداً مؤمنين، ومن فضل الله على نبيه أن أهل الأرض جميعاً أصبحوا من أولاده.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات]، وأخرج الإمام أحمد عن سمرة أن النبي ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، وياث أبو الروم»<sup>(١)</sup>

إن الذين يغفلون عن حكم الله في ابتلاء الدعاة العاملين في سبيله مخطؤون لسببين:

الأول: قد يكون الخير كل الخير للداعية الذي يبتليه الله بردة أو زوجه هو

(١) رواه الإمام أحمد في المسند: (٩/٥ - ١٠)، والحديث إسناده متصل ورجاله ثقات، ما عدا عبد الوهاب الخفاف فيه كلام لا يضر إن شاء الله تعالى. وقال صاحب الفتح الرباني: (٣٩/٢٠): رواه الترمذي وصححه الحاكم وأقره الذهبي وحسنه العراقي والسيوطي. اهـ.

هلاكهما، وما عليه إلا أن يستنفذ طاقاته كلها في تبليغ أهله وذويه الدعوة، ثم يقوي  
 اعتماده على الله، وثقته به، ورضاه بقضائه وقدره، فلا ييأس ولا يقنط من رحمته،  
 ولا ينهار أو تخور قواه من أي مكروه يحل به، وليتذكر دوماً قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ  
 تَكْرَهُهُوَ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء] أجل لقد كان الخير  
 كل الخير لنوح عليه السلام في هلاك زوجته وولده الكافرين.

الثاني: إن من سنن الله جلت أسماؤه وصفاته، أن يكون النصر بعد الابتلاء  
 والصبر. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ  
 أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد]. وبضدها تتميز الأشياء، ويميز الله الخبيث من الطيب،  
 والغث من السمين.

# خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

- \* ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام.
- \* صالح عليه السلام.
- \* المبحث الأول: نبذة عن حياة إبراهيم عليه السلام.
- \* المبحث الثاني: ما كان بين إبراهيم وأبيه آزر.
- \* المبحث الثالث: صراع إبراهيم مع قومه.
- \* المبحث الرابع: دروس وعبر.
- \* المبحث الخامس: لوط عليه السلام.
- \* المبحث السادس: إسماعيل عليه السلام.
- \* المبحث السابع: قصة الذبيح.
- \* المبحث الثامن: من فضائل إبراهيم عليه السلام.

## ما بين نوح وإبراهيم

لا ندري متى حدث الشرك بعد نوح عليه السلام، وكل الذي نعلمه من القرآن الكريم أن الله استخلف عاداً في الأرض بعد قوم نوح. قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦١]

وكانت قبيلة عاد<sup>(١)</sup> تسكن الأحقاف - ما بين اليمن وعمان -، وقد حباهم الله نعماً وافرة، وخيرات لا تحصى، ففجروا العيون، وزرعوا الأرض وشادوا القصور، وزادهم جلّ وعلا فوق ذلك بسطة في أجسامهم، وقوة في أبدانهم، ولكنهم لم يشكروا الله على آلائه، بل اتخذوا أصناماً يعبدونها ويستنصرون بها في الشدائد.

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام، فكان من أوسطهم نسباً، وأحسنهم خلقاً، وأرجحهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما يعبدون من حجارة لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرراً.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

(١) عاد من القبائل العربية العاربة أو البائدة، وهم من نسل سام بن نوح، ويُسمَّون عاداً الأولى أو عاد إرم ذات العماد، أما العرب الذين هم من نسل إسماعيل فيسمَّون العرب المستعربة. عن البداية والنهاية: (١/١٢٠).

﴿ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴾ [١٥] ﴿ [الأعراف].

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۚ إِنَّا أَنشُرُوا إِلَّا مَفْرُوتًا ﴾ [٥٠] ﴿ [هود]

فرد عليه الملام من قومه أسوأ رد، واتهموه بشتى التهم.

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْمَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ۚ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [١٦] ﴿ [الأعراف]، ﴿ قَالَ يَا هُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥٣] ﴿ إِن تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِ هَارُونَ بِسُوءٍ ﴾ [هود: ٥٣-٥٤]

ولما طغت عاد، ولم ينفع التذكير ولا الإنذار فيهم، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً فأهلكتهم، وجعلتهم عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۖ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [٨] ﴿ [الحاقة]

وبلغ الحمق بهم منتهاه أنهم عندما رأوا السحاب فرحوا، وظنوا أنه مطر غزير جاء بعد أن حبسه الله عنهم بضع سنين، فلما أظلمتهم سحابة سوداء فزعوا، وزاد فزعهم عندما هبت ريح عقيم. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا



هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِمْ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا  
فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف]

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِفَ في وجهه. قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه مطر، وأراك إذا رأته عرف في وجهك الكراهية، فقال: «يا عائشة، ما يؤمِّنِي أن يكون فيه عذاب، عذب قوم بالريح. وقد رأى قوم العذاب - فقالوا هذا عارض مطرنا-»<sup>(١)</sup>

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيراً وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه.

ونجى الله هوداً والذين آمنوا معه، وما آمن معه إلا قليل.

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر فتح الباري: (١٠/١٩٩). ولهواته جمع لهاة وهي اللحمة المطبقة في أقصى سقف الفم [مختار الصحاح].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ

عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ [هود]

وسبحان الذي حفظ فئة قليلة من الناس من عذاب غليظ بعد أن عم العذاب قومهم الكافرين، وهم يعيشون بين أظهرهم، ولا يسأل مسلم جاد: كيف تم هذا؛ لأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، واستحق قوم عاد لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لأنهم كفروا ربهم وجحدوا بآياته، وعصوا رسوله، واتبعوا وانقادوا لكل جبار ظالم. قال تعالى: قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ [هود].

انظر لقوله تعالى: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ مع أنهم عصوا رسولا واحداً - هود-، وفي هذا تأكيد من الله جلت قدرته أن عصيان رسول واحد عصيان لجميع رسل الله سبحانه وتعالى لأن دعوتهم وأهدافهم واحدة في كل عصر. ألا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ !!.

## صالح عليه السلام

ثمود قبيلة عربية مشهورة، سميت باسم جدها ثمود بن عامر من نسل سام بن نوح، وكانوا يسكنون الحجر - بين الحجاز والشام-، وذكرهم في القرآن يأتي بعد قوم عاد. قال تعالى:

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤]

لقد كانت أرضهم جنات وعيوناً، ومنازلهم بيوتاً فارهةً وقصوراً شامخةً، وكانوا سادة الناس وملوك الأرض... لكنهم لم يشكروا الله على نعمه، بل زادوا فساداً وبعداً عن الحق، وعبدوا الأصنام من دون الله جلّت قدرته.

فبعث الله فيهم أخاهم صالحاً، فنهاهم عن عبادة الأصنام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فِإِذَاهُمْ فَرِيقَانِ

يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل].

والملا من ثمود كعادة الملا في كل عصر ومصر، كذبوا نبيهم، واستغربوا كيف ينهاتهم صالح عن عبادة آلهتهم الوطنية التي ورثوا عبادتها عن آبائهم وأجدادهم.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِبِّ ۗ ﴾ [هود].

وقال: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۗ ﴾ [١٥٣] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۗ ﴾ [الشعراء].

لقد كان صالح مرجوًّا فيهم قبل الهدي والنبوة، أما وقد شرفه الله بالحكمة والنبوة فأصبح فيهم متهمًا بالكذب... وهذه ضريبة يدفعها الأنبياء ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وما زلنا نسمع من عباد الطاغوت مثل هذه الأقاويل الشائنة.

وحاول الملا أن يظهرها للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية تبين صدق رسالته، فقال لهم: هذه ناقة الله لها شرب، ولكم شرب يوم معلوم، وإياكم أن تمسوها بأذى، ولها أن تأكل في أرض الله كيفما تشاء، وإن اعترضتم طريقها فسوف يأخذكم الله بعذاب أليم.

فسخروا من كلامه وعقروا الناقة، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۗ ﴾ [الأعراف]، انظر إلى قوله تعالى ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ۗ ﴾، مع أن أشقاهم هو الذي عقرها، ولكن

الهلاك شملهم لأنهم كانوا راضين بفعله.

وقول الله تعالى على لسانهم: ﴿يَصْلِحْ أَثْمَانَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ومن قبل قال قوم نوح لنبیهم مثل هذا القول الذي يدل على استخفافهم بوعيد الله، واستعجالهم عذابه كما يدل على تشابه مواقف المشركين من أنبياء الله.

وكان الله لثمود بالمرصاد، لقد أخذهم بالصيحة أخذ عزيز مقتدر. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ الثَّمُودِ ﴿٦٨﴾﴾ [هود]، فتولى صالح عنهم بعد أن نجاه الله ومن آمن معه ونظر إلى جثثهم الهامدة.

قال تعالى على لسانه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُمْ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال، وقف عليهم وقد ركب راحلته، وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: «يا أهل القليب؛ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً»، وقال لهم فيما قال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبیكم، كذبتُموني وصدقتني الناس، وأخر جتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبیكم». فقال له عمر: يا

رسول الله، تخاطب أقواما قد جَيَّفُوا<sup>(١)</sup> فقال:

«والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يجيبون»<sup>(٢)</sup>

وتلك آثار ثمود شاهدة على ظلمهم، يراها كل من مر بالحجر أي [مدائن صالح]، عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»<sup>(٣)</sup>

تُرى كم نرى من الآيات والعبر ثم لا نعتبر ولا نتعظ؟!!

كم يمر بعضنا على مدائن صالح وغيرها فلا تحرك هذه الآثار مشاعر المازين ولا يذرفون دمعة واحدة؟!!

كيف يخشى رسول الله ﷺ من رؤية السحاب، ونحن نرى الصواعق والزلازل والدمار وكأن شيئاً في حياتنا لم يكن؟!!

(١) جَيَّفُوا: بفتح الجيم، بعدها ياء مشددة مفتوحة أي: أصبحوا جَيِّفًا لا حياة فيها.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (١/١٣٨). والبخاري في المغازي: (٧/٢٢٠) فتح الباري، ومسلم: (٨/١٦٤)، وأحمد: (٤/٢٩).

(٣) صحيح البخاري: (٤٧٠٢)، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾

## المبحث الأول

### نبذة عن حياة إبراهيم عليه السلام

ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن إبراهيم عليه السلام ولد بغوطة دمشق، في قرية يقال لها برزة، في جبل يقال له قاسيون، والصحيح ما رواه ابن كثير عن ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه ولد في أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل.

وكانت ولادته بعد أن بلغ والده من العمر ٧٥ سنة، وقد ولد له إبراهيم وناحور وهاران، وولد لهاران لوط، وإبراهيم هو الأوسط، وهاران مات في بابل في حياة أبيه.

واختلف المؤرخون في اسم أبي إبراهيم هل هو آزر أم تارح!؟

والصحيح أن اسمه آزر لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ

أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أُرِيدُكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ [الأنعام]

وقول الرسول ﷺ: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة... إلى آخر الحديث»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه، وسيأتي ذكره مفصلاً.

وقال ابن جرير الطبري: (والصواب أن اسم أبيه آزر... وقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً). وقال ابن كثير: (وهذا الذي قاله -أي الطبري- جيد قوي، والله أعلم)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن جرير الطبري: (وقال عامة السلف من أهل العلم: كان مولد إبراهيم عليه السلام في عهد نمرود بن كوش).

ونمرود بن كنعان بن كوش كان حاكماً مستبداً جباراً، وكانت رعيته تتقلب في دياجير الجهل والضلالة، كما كانوا يعبدون الحجارة الصماء والتماثيل البكماء.

وقد استخف نمرود بقومه فنصب نفسه إلهاً لهم، ودعا الناس إلى عبادته فأطاعوه لأن الأصنام الناطقة أفضل من الأصنام الجامدة، ومن جهة أخرى فطاغوت بابل ينفع ويضر، ويستطيع أن يجعل الفقير غنياً، والعزيز ذليلاً لأنه متحكم بأرزاق جزء مهم من سكان المعمورة.

عن ابن عباس وغيره: (كانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمرود، سليمان بن داود، وذو القرنين، وبخت نصر: مؤمنان وكافران).

في هذه البيئة الفاسدة ولد خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

قال ابن كثير:

(كل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن

(١) تفسير ابن كثير: (١٥٠/٢).



أخيه لوط عليهم السلام).

وكان أبوه آزر من ألدّ أعدائه، وكذلك كان أقرباؤه وأشقاؤه وأترابه، وهذا يعني أنه كان غريباً بين أهله وذويه.

ولما شبَّ إبراهيم تزوج بامرأة تسمى -سارة-، وكانت عقيماً لا تلد، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، كما حكاه السهيلي، فقد أبعد النجعة وقال بلا علم، ومن ادّعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل.

ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت -كما هو منقول عن الربانيين واليهود- فإن الأنبياء لا تتعاطاه. والله أعلم.

وقد عرف إبراهيم عليه السلام -منذ نعومة أظفاره- بصائب رأيه وثاقب فكره أن الله واحد أحد، ليس له شريك في الملك، وألقى الله في قلبه كره الأصنام التي كان يعبدها قومه لأنها لا تجلب لهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضرراً... ونحن لا نعلم متى ابتعثه الله بالرسالة وكم كان سنُّه! وقد وردت

إشارات عامة في القرآن في هذا الموضوع منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا

إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ [الأنبياء]، أي كان الله يعلم

عنه رجاحة العقل، وشدة الذكاء، وقوة الحجّة وفصل الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ

إِمَامًا قَالِ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ [البقرة]، ولم يبين

الله لنا ما هذه الكلمات التي ابتلاه بها، وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف،  
فأتمها كاملة غير منقوصة...

وفي آية أخرى وصفه الله تعالى بالوفاء بل جعل الوفاء جزءاً من  
خلقه، قال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٢٧).

أما تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]  
فيقول الشيخ محمد أحمد العدوي:

(ولم يقل فقال إني جاعلك ليدلنا على أن هذه الإمامة بمحض فضل  
الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات، فإن الإمامة هنا عبارة عن  
الرسالة، وهي لا تنال بكسب الكاسب، والمراد أن إبراهيم عليه السلام  
جدير بذلك المنصب الجليل وهو إمامة الناس، فالله تعالى قد جعل الرسالة  
في مكانة هو أهل لها)<sup>(١)</sup>.

حسبنا أن نعلم من سيرة إبراهيم عليه السلام أن الله ابتعثه بالرسالة  
وهو في بابل، فقام بالواجب الذي أمره الله به خير قيام، وصبر على الأذى  
والابتلاء، وقابل التهديد والوعيد بعزيمة أشد رسوخاً من الجبال...  
وعندما تأكد من إعراض قومه عن دعوته هاجر في أرض الله الواسعة يبذر  
بذور الإيمان في كل أرض تطؤها قدماه، فاستحق بصبره ودأبه أن يكون أباً

(١) دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة، بيروت، ص (٤٠).

للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للموحدين الأمناء.

ونظراً لأهمية الدور الذي قام به إبراهيم عليه السلام فقد ذكرت قصته في خمس وعشرين سورة وفي ثلاث وستين آية من القرآن الكريم، كما ارتبطت سيرته عليه السلام بسيرة ابن أخيه لوط عليه السلام، وبسيرة ولديه إسماعيل وإسحق عليهما السلام، بل ارتبطت سيرته بسيرة كل من جاء بعده من الأنبياء لأنهم من نسله وذريته، وكان مسك الختام سيد ولد آدم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>.

---

(١) من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع: البداية والنهاية: (١/ ١٤٠) لأنه يهتم بتحقيق الروايات وتمحيصها على الأغلب، كما اعتمدت على تاريخ الطبري: (١/ ٢٣٤)، والكامل لابن الأثير.

## المبحث الثاني

## ما كان بين إبراهيم وأبيه

## أولاً : إبراهيم يحاور أباه

كان آزر يعبد الأصنام، بل كان ينحتها ويبيعها، وشر الأمور أن يعتقد الإنسان عقيدة باطلة، ثم تكون - هذه العقيدة - مورد رزقه، ومحط أمله وغاية سعيه.

وبديهي أن يكون والد إبراهيم أول المدعوين لأنه أقرب الناس إليه، وأولاهم بالهداية، وقد أمر الله تعالى المصطفى ﷺ أن يبدأ بعشيرته الأقربين، وكذلك كان منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة.

والحديث عن دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِالِهَةً إِنِّي أُرِيدُ أَنْ جَارِي لَكَ وَمَا كُنْتُ بِمُبِينٍ﴾ [الأنعام]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ ٥١ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ٥٢ [الأنبياء]

وقوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٦ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ٧٠ [الشعراء]

وفي الآيات التي وردت في سورة مريم صورة واضحة للمناظرة التي جرت بين إبراهيم وأبيه.

قال تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكَتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلُوِّ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِ هَيْمَىٰ يَتَابِرُهُمْ لِمَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ [مريم]

- ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكَتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ -

يأمر الله نبيه محمد ﷺ أن يذكر خليل الرحمن إبراهيم الذي استحق من فرط صدقه أن يسميه الله ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، ووصفه بالصدق سبق ووصفه بالنبوة.

لقد كان إبراهيم صادقاً مع قومه قبل النبوة، كما كان صادقاً أميناً في تبليغ الرسالة وفي استسلامه وانقياده لأوامر ربه.

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ استهل خليل الرحمن حوارَه مع أبيه بقوله ﴿يَا أَبَتِ﴾ وهي من أقوى الروابط وأوثقها. يقول الشيخ محمد بن أحمد العدوي: (... ومن ناحية أخرى يحاول إبراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدة أبيه، حتى

يستطيع أن يبلغه رسالة الله، ويقيم عليه حجته وهو هادئ، غير ثائر، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف).

قال له في أدب:

- ﴿يَتَأْتِي لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾

كيف تعبد يا أبت إلهاً لا يسمعك إذا ناديت، ولا يبصرك إذا اقتربت منه أو أدبرت عنه، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك مكروهاً... وهذه صورة من صور كثيرة كان إبراهيم عليه السلام يبين لأبيه من خلالها عجز الأصنام التي يعبدها، ويدعوه إلى التفكير والاستفادة من نعمة العقل.

- ﴿يَتَأْتِي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾

لم يبدأ إبراهيم حواراً مع أبيه بالحديث عن غزارة علمه، وقوة حجته، وشدة ذكائه، كما أنه لم يصف أباه بالجهل ولو قال هذا وذاك لكان صادقاً، وإنما قال له - وهو الصادق الأمين عنده - يا أبت لقد خصني الله بفضل منه فاستمع لهذا الأمر الجديد واستجب لدعوة الحق تكن من الفائزين في الدارين، وحنار يا أبت أن تستمر على ما أنت عليه فتكن بذلك عبداً للشيطان، ولن تجتمع عبادة الرحمن وعبادة الشيطان، في قلب مؤمن... ويختتم إبراهيم حديثه مع أبيه بقوله ﴿يَتَأْتِي﴾ أي بالنداء اللطيف الرقيق الذي بدأ به، وبخوفه عليه من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا بَرَهَيْمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَه لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ -

أنكر آزر على ابنه أن يرغب عن آلهة قومه، ولم يقل له في حوارهِ يا ولدي، وإنما ناداه باسمه [إبراهيم]، ثم أخذ يهدده:

لئن لم تنته يا إبراهيم عن ضلالك، وتعود عن باطلك لأرمننك بالحجارة وما عليك الآن إلا أن تخرج من داري وتعتزل مجالسي.

﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ -

﴿ سَلِّمْ عَلَيْكَ ﴾ والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التي هي المتاركة لا التحية، قال الطبري: معناه أمنة مني لك. وقال النقاش: حليم خاطب سفيهاً، وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق<sup>(١)</sup>...

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبَغِي الْجَاهِلِينَ

﴿ [القصص] وقوله في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ

قَالُوا سَلِّمُوا ﴿ [الفرقان] وقوله: ﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]

(١) تفسير القرطبي: (١١/١١١).

- ﴿وَأَعْتَزَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي

شَقِيًّا﴾ اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه، كما اعتزل ما يدعون من دون الله من أصنام وأوثان، فكان لا يشاطرهم في أفراحهم القومية، ولا يبتهج في أعيادهم وندواتهم، ولا يذكر آلهتهم إلا بالنقد والتجريح... ومع ذلك كان باراً بأبيه حريصاً على هدايته، وفي هذا دليل على أن المراد بقوله تعالى ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ سلام متاركة لا سلام تحية... وفي آية أخرى يبين الله جل وعلا كيف أكرم الله خليله عندما اعتزل قومه وما كانوا عليه من شرك وضلالة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا

جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رِزْقِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم]

- وفي حوار إبراهيم مع أبيه عبر كثيرة من أهمها:

١- إن ناساً من الدعاة يتحدثون - في كتبهم ودروسهم - عن أنفسهم أكثر مما يتحدثون عن الدعوة، وفي مناظرتهم للآخرين يتعالون عليهم، ولا يتركون لهم مجالاً لعرض مشكلاتهم، ويغضبون لأنفسهم لأنفه الأسباب، ويستولي الحقد على قلوبهم... فعلى هؤلاء وغيرهم أن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام في صدقه، وأدبه، وتواضعه، وتجرده، واحترامه للآخرين، وعدم انتصاره لنفسه.

٢- كان قلب أزر كجلمود صخر، بل إن جلمود الصخر ألين منه، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ



مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ [البقرة]

وكان آزر جاداً فيما يؤمن ويعتقد، وكانت الأصنام والأوثان أحب إلى نفسه من فلذة كبده وأقرب الناس إليه. وكان إبراهيم عليه السلام كذلك جاداً فيما يؤمن ويعتقد، وعندما أصر أبوه على شركه اعتزله، وناصبه العداوة والبغضاء رغم ما كان يتحلى به من حلم وعطف.

ومن المؤسف أن كثيراً من دعاة الإسلام يخلطون مصالحهم بالدعوة، ويتوددون إلى أصحاب السلطان رغم عداوتهم للإسلام والمسلمين، ويتوددون كذلك إلى المشركين والمنافقين من آبائهم وإخوانهم وأقربائهم وهم الذين يقرؤون في كتاب الله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة]

ولن تنتصر الدعوات إلا إذا كان حملتها من المتأسين بإبراهيم ومحمد وسائر أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والسلام.

### ثانياً: براءة إبراهيم من أبيه

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بِرْءٍ وَأَوْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ [المتحنة]

سبب النزول: لما عزم الرسول ﷺ على فتح مكة، وأخبر جماعة من أصحابه بوجهته، كان منهم حاطب. فعمد حاطب فكتب كتاباً إلى أهل مكة وأرسله مع امرأة مشركة يعلمهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأرسل رسول الله ﷺ علياً والزبير والمقداد فأدركوا المرأة في روضة خاخ فأخذوا منها الكتاب، ولولا أن حاطباً كان من أهل بدر، وأن رسول الله ﷺ قد علم أنه ما أراد من عمله خيانة، ولو كان ﷺ كافراً مرتداً لأمر بضرب عنقه<sup>(١)</sup>.

والتأسي هنا بإبراهيم يكون في ثلاثة أمور:

أولاً: التبرؤ من الكافرين ومما يعبدون من دون الله .

ثانياً: الكفر بهم.

ثالثاً: إبداء العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها أبداً إلى الغاية المذكورة حتى يؤمنوا بالله وحده، وهذا غاية في القطيعة بينهم وبين قومهم، وزيادة عليها إبداء العداوة والبغضاء أبداً، والسبب في ذلك هو الكفر، فإذا آمنوا بالله وحده انتفى كل

(١) سبب نزول سورة المتحنة وردت فيكتب التفسير، كتفسير الطبري، وابن كثير، ورواها البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد - باب الجاسوس - .

ذلك بينهم<sup>(١)</sup>.

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكان في بداية دعوته له، وكان لا ينتظر منه الإصرار على الشرك، وإنما كان يرجو له الهداية. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانُ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة]

تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه، كما تبرأ نوح عليه السلام من زوجه وولده، وكما تبرأ رسول الله ﷺ من أقربائه المشركين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعقيب له على هذه الآيات:

(وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماضٍ طويل، وأسوة ممتدة على آماذ الزمان وإذا هو راجع إلى إبراهيم. لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيلاً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه. إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرّت بمثل ما يمرُّ به، وقد انتهت تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين... ثم إنَّ له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا انبثت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة

(١) أضواء البيان: (٨/١٣٨).

الظلال... الشجرة التي غرسها أول المسلمين... إبراهيم... (١)

وهكذا فصل الإيوان بين إبراهيم عليه السلام فكان إماماً للمتقين، وبين أبيه  
آزر فكان من الهالكين المسوخين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«يَلْقَى إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتْرَةٌ عَبْرَةٌ فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ  
أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: الْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ  
وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْرِجَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:  
إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ: مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ  
فَإِذَا هُوَ بِذَبْحٍ مُتَلَطِّخٍ فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيَلْقَى فِي النَّارِ» (٢)

قال الحافظ ابن حجر: وفي رواية إبراهيم بن طهمان: «فيؤخذ منه فيقول يا  
إبراهيم أين أبوك؟ قال أنت أخذته مني، قال أنظر أسفل، فينظر فإذا ذبح يتمرغ في  
نتنه». وفي رواية أيوب: «فيمسخ الله أباه صبغاً فيأخذ بأنفه (أي يأخذ إبراهيم بأنفه  
بأصابعه كراهة لرائحة نتنة) فيقول:

يا عبدي أبوك هو؟ فيقول لا وعزتك». وفي حديث سعيد «فيحول في صورة

(١) في ظلال القرآن، المجلد الثامن، جزء (٢٨)، ص (٦٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (١٩٧/٧)، والأبعد صفة أبيه لأنه شديد البعد عن  
الله، وقيل لأنه هالك.

قبيحة وريح منتنة في صورة ضبعان». وزاد ابن المنذر من هذا الوجه: «فإذا رآه كذا تبرأ منه وقال لست أبي».

وقال الحافظ: قيل الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه ولئلا يبقى في النار على صورته فبكون غضاضة على إبراهيم<sup>(١)</sup>.

إذا كان إبراهيم وهو خليل الرحمن لا ينفع أباه يوم القيامة، ولا ينقذه من الخلود في نار جهنم، ويقول الحق جلَّ وعلا على لسان إبراهيم: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [المتحنة: ٤]

وإذا كان خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والسلام لا ينفع أمه وأباه يوم القيامة، بل عاتبه ربه لأنه كان يستغفر لعمه أبي طالب.

قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة]

فما بال ناس من الناس يشدون رحالهم إلى قبور الأولياء والصالحين، فيطوفون حولها، ويذبحون لها، ويسألون الأموات أموراً لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى... لقد تناسى عباد القبور أن الدعاء عبادة ولا يكون إلا لله تعالى، أما أنبياء الله وأوليائه فلا يملكون كشف الضرر عن أحد. قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ

(١) فتح الباري: (١٠/١١٥) و(٧/١٩٧).

زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ  
 يَبْغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَلْسِنَةَ آيِهِمْ أَقْرَبَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ  
 رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ [الإسراء]

ومن الجدير بالذكر أن مشركي قريش كانوا يؤمنون بالله، ويعتقدون أن  
 أصنامهم تقربهم من الله زلفى. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
 مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]

إن المسؤولية عند الله فردية، وكل نفس بما كسبت رهينة، ومدار النجاة في  
 الآخرة على الإيمان الصحيح المستلزم للعمل بما جاء به الرسل عليهم السلام،  
 وليس بعبادة أشخاص الأولياء والرسل، والشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تعالى،  
 والمشركون لا يغفر الله لهم إذا ماتوا على كفرهم ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

## المبحث الثالث

# صراع إبراهيم مع قومه

\* أولاً: مشكلة التقليد.

\* ثانياً: دعوة إبراهيم لقومه.

\* ثالثاً: حوار مع النمرود.

\* رابعاً: بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا.

\* خامساً: إبراهيم يحطم الأصنام ورأي أهل السنة

والجماعة في كذبات إبراهيم الثلاث.

\* سادساً: إلقاء إبراهيم في النار.

\* سابعاً: هجرة إبراهيم.

## أولاً: مشكلة التقليد

أهم مشكلة كانت تواجه إبراهيم عليه السلام في دعوته لقومه: الجمود وشدة التعصب لعقيدة الآباء والأجداد، والإصرار على عدم التغيير والتجديد، فعندما كان إبراهيم يحاول إقناع أبيه آزر، وعندما كان يسوق له الحجج الدامغة والأدلة المفحمة، كان الوالد المشرك قد عطل عقله، وأنكر على ابنه مخالفته لعقيدة الآباء والأجداد: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلَّمْتُ إِبْرَاهِيمَ لِي لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي

مَلِيًّا ٤٦ ﴾ [مريم]

وكان رد قوم إبراهيم على نبيهم لا يختلف عن رد أبيه.

قال تعالى:

﴿ وَأَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٦١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَنكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٢ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ٧٤ ﴾ [الشعراء] وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَاكِمُونَ ٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٥٤ ﴾ [الأنبياء]

ولقد كان هذا النهج أعداء جميع رسل الله، وتكأتمهم في صد الناس عن الحق، وكان الملا يزعمون أنهم وكلاء شرعيون لعقيدة الآباء والأجداد، وباسم هذه



العقيدة يظلمون الناس، ويفسدون في الأرض، ويهلكون الحرث والنسل.

أما جمهور الناس وعامتهم فلقد ألفوا هذه الحياة، واعتادوا أن يكونوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

ورحم الله الزمخشري إذ يقول: (ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آبائهم في عبادة التماثيل، وعفروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شيء، وجادون في نصرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم)<sup>(١)</sup>.

وحسبنا في الرد على المقلدين قول أهل النار: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف]

وعباد الأصنام المقلدون كانوا يخوفون خليل الرحمن أن يصيبه سوء من آهتهم، ولا غرابة في ذلك فمن فرط سخفهم أنهم يظنون أنها تنفع وتضر.

(١) دعوة الرسول إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي ص (٥٤).

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام]

ونحن اليوم نواجه ما كان يواجه إبراهيم عليه السلام، فمعظم الناس لا يفكرون إلا بعقول قاداتهم، ولا يرون إلا ما يرونه دون النظر أو الاهتمام بالدليل... وما زلنا نسمع ملايين القصص التي يقول أصحابها: تكلم فلان في القطب الفلاني ثم جاءه في المنام وضربه ضرباً شديداً ما زالت آثاره بادية في جسمه، بل وإذا طلبت اليمين من عباد القبور قد يملفون بالله كاذبين، لكنهم لا يقبلون ولا يجروون أن يملفوا بأوليائهم الأموات كاذبين.

فلننظر كيف واجه إبراهيم عليه السلام هذه المشكلة مع قومه!

### ثانياً: دعوة إبراهيم لقومه

لم يجمد إبراهيم عليه السلام على أسلوب واحد دعوة قومه وأهله، فتارة كان يحاج والده وأهل بيته بشكل إفرادي، وتارة يحاج قومه وهم مجتمعون في أعيادهم وحفلاتهم العامة، وتارة يحاج طاغوتهم المتأله النمروذ، وتارة كان يستفز قومه في مواقف تفرض عليهم إعادة النظر في كل ما ألفوه من عادات وتقاليد... وقد فصلنا القول -فيما مضى- في دعوته لأبيه وما كان بينهما من مناظرات ومواقف وستحدث فيما يلي عن دعوته لقومه:

مكث خليل الرحمن سنوات طويلة يدعو قومه إلى وحدانية الله وعدم الإشراك به، وقد جاء ذكر هذه الدعوة في آيات كثيرة من كتاب الله.

من ذلك قوله جلَّ وعلا: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الشعراء].

ويمضي السياق في سورة الأنبياء والشعراء في الحديث عن مناظرته لقومه في أمر آلهتهم، وبيان أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى. وقوله ﴿ وَإِنِّ مِنْ شَيْعِنِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِيهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَآءِ الْهَيْئَةِ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ [الصفافات]، ومن بين السور الكثيرة التي تحدثت عن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه نختار آيات من سورة الأنعام لنعيش في ظلها بعض الوقت.

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَيُّهَا عِزِّي أَرْبَابُكُمْ مَا لَكُمْ أَصْنَامًا ؕ إِلَهَةٌ إِنَّي رَبَّنَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ

مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ  
قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ [الأنعام].

- استطاع إبراهيم بما أتاه الله من حكمة أن يحج<sup>(١)</sup> قومه بطريق الاستدراج، فعندما رأى كوكباً بعد أن أرخى الليل ستاره قال بأسلوب المتهمم الذي يتحدث بمنطقهم ويسوق أقوالهم ليرد عليها: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ فلما غاب ذلك الكوكب قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾، ثم ترقى معهم من الكوكب إلى القمر، فلما غاب أكد لهم أنه لا يصح أن يكون إلهاً لأنه يبرز تارة ويغيب أخرى، ثم ترقى معهم إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً فيين بعد أن أفلت أنها مسخرة ميسرة مقدره مربوبة.

وبعد أن أفلت الكواكب كلها - والقوم يشاهدون هذه الظاهرة - أعلن إبراهيم براءته من كل ما يعبد قومه من دون الله من أصنام وأوثان وكواكب وطغاة ومتجبرين لأنها لا تضر ولا تنفع، ثم أخذ يحدثهم عن صفات الله تعالى: فهو يطعم ويسقي، ويشفي، ويميت، ويبعث الناس من قبورهم.

(١) بعض المفسرين قالوا: إن هذه المناظرة حصلت مع قومه في بابل، وقال آخرون، ومنهم ابن كثير: إنها حصلت في حران لأن أهل دمشق وما حولها كانوا يعبدون الكواكب، وليس مهماً عندنا أين حصلت، بل المهم أن سياق الآيات يؤكد أنه كان يحاجج قومه.

ولم يبق أمام قوم إبراهيم إلا زعمهم بأن آلهتهم ستلحق بها الأذى إذا استمر في نقدها وتجريحها... وهذه المقولة فندها الخليل، وتحداهم إن كانت هذه الأصنام قادرة على الدفاع عن نفسها ورد الضرر الذي يلحقه الآخرون بها، فكيف تنتظرون أن تكون قادرة على إلحاق الضرر بي؟! والواقع يشهد على أن إبراهيم مضى عليه سنوات طويلة وهو يهاجم هذه الأصنام فأين ضررها عليه؟!

ومن قبل ما كان قوم إبراهيم يسمحون لعقولهم أن تفكر بأفول هذه الكواكب أو بتفاهة تلك الأصنام لأن القضية عندهم غير قابلة للحوار، وهل هم أكثر فهماً وأرجح عقلاً من زعمائهم وأجدادهم؟!، وها هو خليل الرحمن يحرك عقولهم المعطلة بطريقة استدراجية منطقية رائعة.

قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ [الأنعام].

- قال بعض المفسرين: إن موعظة إبراهيم في الكواكب كانت حين خرج من السرب لما كان صغيراً، وأنها كانت تعبر عن القلق الذي كان يعاينه إبراهيم قبل أن يؤمن بالله، ويستدل هؤلاء المفسرون في تعضيد وجهة نظرهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمَّا تُوْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّونَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمَّا تُوْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

وردنا عليهم من الوجوه التالية:

١- القول بأن موعظة إبراهيم في الكواكب كانت حين خرج من السَّرب لما كان صغيراً ذكرها ابن إسحاق وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق<sup>(١)</sup>.

٢- قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: (لقد نفى الله الشرك عن إبراهيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٣٥]) [البقرة] في عدة آيات، ونفى الكون الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما<sup>(٢)</sup>.

قال عياض: (لم يشك إبراهيم بأن الله يحيي الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء، فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة]<sup>(٣)</sup> وقال القرطبي في نفي الشك عن إبراهيم: (وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين). وفي تفسير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول القرطبي: (لو كان شاكاً لكننا نحن أحق به، ونحن لا نشك في إبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك فالحديث مبني على نفي

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد: (١/١٧٥)، دار الكتب الحديثة مصر.

(٢) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي: (٢/١٨٠).

(٣) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري، فتح الباري: (٧/٢٢٢).

الشك عن إبراهيم<sup>(١)</sup>.

ومن غريب الأمور -والغرائب كثيرة- أن نسمع أصواتاً تردد أنه لا بد من الشك قبل الإيمان، وإبراهيم كان أول الشاكين، ورسول الله ﷺ قال نحن أحق بالشك من إبراهيم، والصحيح أن إبراهيم لم يكن شاكاً وهو الذي دعا الله أن يجنبه وبنه عبادة الأصنام، بل وهو الذي جاء ربه بقلب سليم أي لم يشرك به قط.

### ثالثاً: حوارُه مع النمرود

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَىٰ اللَّذِي حَاجَّٰ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِٖٓ أَن آتٰنَهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكُ ۚ إِذْ قَالَ إِبْرٰهٖمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا ٱلْحَيُّ وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرٰهٖمُ فَإِنِ ٱللَّهُ يَأْتِي بِٱلسَّمِيسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ۗ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة]

- ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَىٰ اللَّذِي حَاجَّٰ إِبْرٰهٖمَ فِي رَبِّهِٖٓ﴾: للتعجب من هذه المحاجة، وغرور صاحبها وغبائه، ولم يرد اسمه إهمالاً له لأنه لا يستحق الذكر، مع أن الذي حاج إبراهيم هو النمرود طاغية بابل الذي تكلمنا عنه فيما مضى.

- ﴿أَن آتٰنَهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكُ﴾: إن الذي حمله على هذا الموقف المشين هو أن الله آتاه ملك، وبدلاً من أن يشكر الله ويسجد له كفر به وزعم أنه إله ويجب على شعبه

(١) تفسير القرطبي: (٢/ ٢٩٨) و(٧/ ٢٥)، ومنه الخبر الذي نقلناه عن عياض.

أن يعبده من دون الله... فكان الملك منشأً إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته.

- ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾: ويبدو أن النمرود سأل إبراهيم في هذه المناظرة عن سبب تكسير الأصنام، فقال له إبراهيم لا يصح أن تعبد لأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرراً، وربى سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يعبد لأنه يحيي ويميت، وفي هذا تحدٍ للنمرود.

- ﴿قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾: أنا سيد الناس أحيي من أحكم عليه بالإعدام بالعمى عنه، وأميت من شئت إمامته بالأمر بقتله... وهذا دليل على غبائه وإبراهيم عليه السلام يتحدث عن الإنشاء والتكوين لا في اتخاذ الأسباب في الشيء المكوّن.

- ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾: لم يسترسل إبراهيم في جدل حول معنى الإحياء والإماتة، وإنما تحدى النمرود في قضية الخلق نفسها، ولكن كان التحدي في الشمس وليس في الإنسان، والجواب على الأمر الثاني يوضح الأمر الأول.

- ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾: وهيات للنمرود أن يأتي بالشمس من المغرب، وهيات له أن يخلق ذبابة، لقد أدركته الحيرة، ودهش من قوة حجة إبراهيم، وسكت كبرياءً لأنه لم يرغب في الحق. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، فالله جلّ وعلا هو الهادي إلى سواء السبيل، وقد كتب للنمرود وقومه أن يكونوا من



الظالمين الكافرين، ولم يشأ لهم الهداية بسبب فسادهم وعنادهم. وهكذا أبطل خليل الرحمن عليه السلام دليل النمرود، وبيّن جهله، وألزمه الحجة، وألجمه بها، وخرج من مجلسه منتصراً.

### رابعاً : بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا

قال طاغوت إبراهيم: ﴿أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ﴾ أي أقتل من شئت، وأحكم على من شئت بالإعدام ثم أعفو عنه، ولم يقل: أنا الذي خلقت السماوات والأرض والإنسان والحيوان والنبات.

وطواغيت عصرنا يقتلون من شاءوا، ويحكمون على من شاءوا بالإعدام ثم يعفون عنهم، وفوق ذلك كله اتخذوا من أنفسهم أنداداً لله لأنهم سنوا القوانين والتشريعات وزعموا أن ذلك كله من حقوقهم وليست من حقوق الله.

وطاغوت إبراهيم سكت عنه سنوات طويلة كان خلالها يسفه آلهة قومه، ويندد بطغيان النمرود، ومن قبل الطاغوت أن يناظر إبراهيم، وتمت المناظرة التي شهدها القاضي والداني، وانتصر إبراهيم وخرج من مجلس الطاغية سالماً معافى.

أما طواغيت عصرنا فيكتمون الأفواه، ويقيدون الحريات، ويستعبدون الناس. ومن هاجم زعيماً من الزعماء يجد نفسه بعد أيام أو ساعات في سجون مظلمة، ويسأل أهله وذووه عنه فلا يجدون جواباً، هذا إن لم يمنعوا من مجرد السؤال، أما مناظرة الطاغوت فدونها خرط القتاد.

ومن هنا نعلم أن طواغيت عصرنا أشد استبداداً وأكثر ظلماً من طاغوت إبراهيم.

### خامساً: إبراهيم يحطم الأصنام

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبِّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَجَبَّتْهُ

وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً  
وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ  
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ [الأنبياء]

- ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

كان لقوم إبراهيم عيد<sup>(١)</sup> يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه  
أبوه وقومه ليحضره فقال إني سقيم. قال تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ  
إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصفات].

عَرَّضَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ حَتَّى تَوْصِلَ إِلَى مَقْصُودِهِ مِنْ إِهَانَةِ أَصْنَامِهِمْ، وَنَصْرَةَ دِينِ  
اللَّهِ الْحَقِّ، فَتَرْكُوهُ وَشَأْنَهُ وَلَوْ كَانُوا عَالِمِينَ أَنَّهُ سَيَحْطُمُ أَصْنَامَهُمْ لَمَّا تَرَكَوهُ، أَمَا قَوْلُهُ  
تَعَالَى: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ هَذَا  
خُفْيَةً فِي نَفْسِهِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: سَمِعَهُ بَعْضُهُمْ.

- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَثِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

عندما خلا الجو لإبراهيم، ذهب إلى أصنامهم مسرعاً، فوجدها في بهو عظيم،  
وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها، فقال لها على سبيل التهكم

(١) يبدو أن عيد قوم إبراهيم شبيه بأعياد عصرنا، كعيد العمال، وعيد الشجرة، وعيد ميلاد  
الطاغوت وما إلى ذلك من أساء.

والازدراء<sup>(١)</sup>: ﴿.. فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَنْطُقُونَ ﴿١٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ [الصفافات].

أي راح يكسرها بقُدُوم في يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي حطاماً، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. قيل إنه وضع القُدُوم في يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار!

- ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

رجع القوم من عيدهم، واعترتهم الدهشة عندما رأوا الأصنام محطمة، والحجارة مبعثرة، وأعمامهم التقليد والجمود عن التفكير بهذه الآلهة التي لا تدفع عن نفسها ضراً..

وكان السؤال الذي يردده كل لسان ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾؟! إنه حدث جديد ومصيبة كبرى!! حدث جديد لم يكن له شبيه في تاريخهم، ومصيبة كبرى تمس صميم اعتقادهم.

وأخذت قوات أمن النمرود تحقق فيما أسمته جريمة، وبدأت تجمع أقوال أهل الشهود، واتجهت الأنظار إلى إبراهيم لأنه كان يذكر آلهتهم

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: (١٧٨).

بالعيب والتنقص لها والازدراء بها.

- ﴿ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (٦١)

وهذا الذي أراد خليل الرحمن عليه السلام، لقد أقبل الناس - كل الناس - من كل حذب وصوب يشهدون المحاكمة، ويسمعون أقوال الذي حطم أهتهم... وتقدم إبراهيم عليه السلام وسط هذه الجموع الحاشدة. تقدم ثابت الخطى، مطمئن النفس، غير عابئ بتهديدهم ووعيدهم.

- ﴿ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِعَالِهَتِنَا يَا بُرْهِيمُ ﴾ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (٦٣)

لماذا قال إبراهيم ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾، ولم يقل أنا الذي حطمت أصنامكم؟!

وهل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾، وقوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (٨٨)، وقوله عن سارة إنها أخته من الكذب الذي يستوجب التوبة ويخالف عصمة الأنبياء؟!

سنذكر فيما يلي ما صح من الأحاديث في هذه المسألة، ومن خلالها نبين موقف أهل السنة والجماعة، ثم ندعم رأينا بأقوال العلماء الثقات الذين نظمنا لأقوالهم... ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق:

الحديث الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً».

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال: «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهنّ في ذات الله عز وجل، قوله - إني سقيم -، وقوله - بل فعله كبيرهم هذا-، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له إن هذا الرجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. وإن هذا سألني فقلت أنك أختي فلا تكذبيني. فأرسل إليها. فلما دخلت عليه أخذ يتناولها بيده فأخذ، فقال ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذَ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق. فدعا أحد حجبته فقال: إنك لم تأتني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان، فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي فأوماً بيديه مهيمً. قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر». قال أبو هريرة: (تلك أمكم يا بني ماء السماء)<sup>(١)</sup>

قال أبو هريرة تلك أمكم يا بني ماء السماء: كأنه خاطب بذلك العرب لكثرة

(١) ومعنى «أخدمها هاجر»: أي وهبها لها لتخدمها، ومعنى «مهيم»: أي: ما الخبر؟.

والحديث رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٧/٢٠٠). الحلبي، وأخرجه مسلم في الفضائل مرفوعاً، وأخرجه أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

ملازمتهم للفلوات التي بها مواقع القطر لأجل رعي دوابهم، وفيه تمسك لمن زعم أن العرب كلهم ولد إسماعيل. وقيل أراد بقاء السماء زمزم لأن الله أنبعها لهاجر فعاش ولدها بها فصاروا كأنهم أولادها.

قال ابن حبان في صحيحه: (كل من كان ولد إسماعيل يقال له ماء السماء لأن إسماعيل ولد هاجر وقد ربي بقاء زمزم وهي من ماء السماء)<sup>(١)</sup>.

الحديث الثاني: حديث الشفاعة في فصل القضاء يوم القيامة حديث طويل يتضمن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحدٍ يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم، وفيه أنهم يأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان في الحديث - نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى... إلى آخر الحديث<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري، الحاشية لابن حجر: (٢٠٣/٧).

(٢) أخرجه البخاري من عدة طرق في أبواب متعددة: أخرجه في تفسير سورة البقرة عن أنس وفي تفسير سورة بني إسرائيل عن أبي هريرة - وهذا اللفظ: (٣٩٥ / ٨) من فتح الباري المطبوعة السلفية - وفي كتاب الرقاق عن أنس، وفي التوحيد عن أنس من طريقين. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة. ورواه أحمد عن أنس من طريقين، وعن ابن عباس من طريقين، أخرجه ابن خزيمة عن أنس. وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود، والطبراني من حديث عبادة بن الصامت، وأخرجه ابن أبي شيبه من حديث سلمان الفارسي، وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة. [عن هامش قصص الأنبياء].

ونوجز موقف أهل السنة والجماعة في البنود التالية:

١- ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ (٦٣)

معناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا!!! وقوم إبراهيم يعلمون جيداً أنه يؤمن ويعتقد أن أصنامهم لا تنطق ولا تسمع ولا تبصر، ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (٤٢) [مريم] وقوله: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ (٧٢) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (٧٣) [الشعراء]

وقوله في آيات الأنبياء على لسان قوم إبراهيم عندما طلب منهم أن يسألوا أصنامهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (٦٥) [الأنبياء].  
وإذن: فلقد فهم القوم من رد إبراهيم أنه هو الذي كسر الأصنام، لأنه أحالهم على حجارة مبعثرة محطمة لا تنطق وإذا بطل الشرط بطل المشروط.

٢- يجوز في الحوار أن يثبت المناظر قول خصمه كما هو، ثم يكر عليه بالحجة والدليل، وهذا الذي فعله إبراهيم عليه السلام، فعندما اعترف قومه بأن آلهتهم لا تنطق أجابهم: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٦٦) أَوْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧) [الأنبياء]

وأوقعهم إبراهيم عليه السلام في حيرة لا مثيل لها، وشعروا أمامه بضعف وهم



الكثرة، وبهزيمة وهم أصحاب السلطة والجبروت... وقد وصف الله حرجهم في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ثُمَّ تَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنبياء]، أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته، المتفطن لصحة حجة خصمه ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي عبادة من لا ينطق ولا يسمع ولا يرى، ﴿ثُمَّ تَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ خجلاً من جهلهم أو إصراراً على باطلهم.

٣- في قول إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (٦٣) [الأنبياء] تورية: يعني أنه قصد بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس فيه كذب بالنسبة إليه، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ بالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب... وكذلك الأمر في قوله: ﴿...إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨١) [الصافات] فهو سقيم من عبادة قومه للأصنام. ومن غير شك فإن الداعية المؤمن يحزن ويمرض إذا رأى قومه في الجهالة والشرك يتيهون.

وفي قوله عن سارة: إنها أخته قصد أخته في الإسلام، والدليل على ذلك قول الرسول ﷺ أن إبراهيم قال لسارة: «يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذِّبيني».

وإذن فالذي قصده إبراهيم أخوة العقيدة والدين كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿ [الحجرات: ١٠]، ولم يقصد أخوة النسب، وهذا من المعاريض المشروعة كما قال ﷺ: «إن في معارضض الكلام مندوحة عن الكذب»<sup>(١)</sup>.

وقال الجوهري عن المعاريض: هو خلاف التصريح، وهو التورية بالشيء. وقال الراغب: التعريض كلام له وجهان في صدق و كذب أو باطن وظاهر.<sup>(٢)</sup> ويقول الحافظ ابن حجر العسقلاني في تعليق له على الحديث الذي رواه أبو هريرة عن قصة سارة مع الجبار:

(وفي الحديث مشروعية أخوة الإسلام، وإباحة المعاريض)<sup>(٣)</sup>

٤- ومما يجدر ذكره أن الكذب جائز في بعض الحالات. قال الإمام النووي رحمه الله: (إن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يجرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب جاز الكذب.

ثم إذا كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً كان الكذب واجباً؛ فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله أو أخذ ماله وأخفى ماله وسئل

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد عن عمران بن حصين، وفي رواية أخرى للبخاري في الأدب المفرد من طريق أبي عثمان النهدي عن عمر قال: أما في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب، وأخرجه الطبري في التهذيب والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات. عن فتح الباري: (٢١٦/١٣).

(٢) المصدر السابق: (٢١٦/١٣).

(٣) فتح الباري: (٢٠٤/٧).

إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذا لو كان عنده ودیعة وأراد ظالم أخذها وجب الكذب بإخفائها. والأحوط في هذا كله أن يورَى.

ومعنى التورية أن يقصد بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ بالنسبة إلى ما يفهمه المخاطب، ولو ترك التورية وأطلق عبارة الكذب فليس بحرام في هذه الحال.

واستدل العلماء بجواز الكذب في هذه الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» متفق عليه زاد مسلم في رواية: «قالت أم كلثوم: ولم أسمعها يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: تعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها»<sup>(١)</sup>

وقال الحافظ في الفتح في تعليق له على هذا الحديث:

(واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها. وكذا في الحرب غير التأمين، واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختف عنده فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يآثم، والله أعلم)<sup>(٢)</sup> اهـ.

(١) رياض الصالحين، للإمام النووي، بيان ما يجوز من الكذب ص (٥٥٠) ط. المكتب الإسلامي.

(٢) فتح الباري: (٦/٢٢٨).

أما الكذبات الثلاث التي صدرت عن إبراهيم عليه السلام، فلقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ عنها في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «... ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله -إني سقيم- وقوله -بل فعله كبيرهم هذا-».

نجبرنا ﷺ في هذا الحديث أن اثنتين منهن كانتا في ذات الله تماماً... أما الثالثة: قوله عن سارة إنها أخته فهي في ذات الله وإن كانت تضمنت حظاً لنفسه ونفعاً له... لكنها مشروعة وجائزة وفي ذات الله، يدلنا على ذلك حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «قال إبراهيم لسارة: هذه أختي، وذلك في ذات الله عز وجل»<sup>(١)</sup>

قال ابن حجر العسقلاني: (وقد وقع في رواية هشام بن حسان المذكورة أن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات كل ذلك في ذات الله. وفي حديث ابن عباس عند أحمد (والله إن جادل بهنَّ إلا عن دين الله).

وذكر المنذري في حاشية السنن عن بعض أهل الكتاب أنه كان من رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها، فلذلك قال إبراهيم: هي أختي، لأنه إن كان عادلاً خطبها منه ثم يرجو مدافعتها عنها. وإن كان ظالماً خلص

(١) أخرجه البخاري في صحيحه باب إذا قال لامرأته وهو مكره: هذه أختي، فلا شيء عليه:

من القتل، وليس هذا ببعيد مما قررته أولاً<sup>(١)</sup> أهـ.

تعقيب: مع أن كذبات إبراهيم عليه السلام الثلاث كانت مشروعة وجائزة وفي ذات الله تعالى، لكنها أثرت في الرتبة، وخفضت عن محمد ﷺ المنزلة، واستحيا منها قائلها، على ما ورد في حديث الشفاعة، فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالاً لله.

وقول إبراهيم عن سارة أنها أخته ليس كقوله: ﴿... إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات] وقوله: ﴿... بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء] وإن كان دفع بها مكروهاً حيث كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله.

فليتحرر الدعاء إلى الله الصدق في أقوالهم وأعمالهم، وليحذروا فتنة لا تُصين الذين ظلموا خاصة... وإنه لما يكلم الفؤاد أن تنتشر الأراجيف، وتكثر الأكاذيب، ويلصق كل قوم بغيرهم ما ليس فيهم انتصاراً لمكاسب دنيوية لا تدفع عنهم ضرراً ولا تجلب لهم نفعاً، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [٣٤] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس].

وكذلك فإنه لما يدمي القلب أن يتوسع بعض الدعوة في المعارض تحت شعار مصلحة الدعوة، وسلامة الدعوة!! ومصلحة الدعوة تقتضي الانقياد الكامل لأوامر الله، واقتفاء أثر أنبيائه ورسله، وسلامة الدعوة من أذى يصيبهم في الدنيا لا

(١) فتح الباري: (٧/ ٢٠١) الحلبي، ورواية هشام بن حسان أخرجها النسائي والبخاري وابن

يساوي شيئاً أمام ما توعد الله به الكاذبين ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ  
يَلَيْتَنِي أَنَّهُ كَذَّبْتُ مَعَ الرُّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان].

أين نحن من إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله بقوله: ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ  
إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم]، وقوله: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم]. ومع ذلك كان يخشى كذبات ثلاث كانت في سبيل الله وهو مأجور عليها؟!  
فليحاسب كل منا نفسه، وليتق ربه، وليعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا  
ما بأنفسهم.

٥- لقد أطلت بعض الشيء في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ  
هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنبياء]، وفي بيان ما قاله أهل السنة  
والجماعة عن كذبات إبراهيم الثلاث بغية الرد على صنفين من الناس:

أ- المعتزلة ومن نحا نحوهم الذين زعموا أن الأحاديث التي ترمي إلى إسناد  
الكذب إلى إبراهيم وإن كانت صحيحة الإسناد لا يمكن أن تكون برهاناً على  
إثبات أمر اعتقادي لأنها أحاديث آحاد.

ومن الكتاب المحدثين الذين أسرتهم مثل هذه الأفكار الباطلة الشيخ عبد  
الوهاب النجار في كتابه [قصص الأنبياء]<sup>(١)</sup> ولقد سَوَّدَ صفحات كثيرة حاول من

(١) كتاب [قصص الأنبياء] للنجار، فيه انحرافات كثيرة من أهمها: رد أحاديث الآحاد في أمور=

خلالها رد الأحاديث النبوية التي تحدثت عن كذبات إبراهيم وأحاديث آحاد مع أنها متواترة المعنى، ووردت في أصح كتاب بعد القرآن الكريم -صحيح البخاري-.

ب- زعم بعض أهل الغلو أن إبراهيم عليه السلام ارتد عن الإسلام لأنه كذب!! وقد شاعت أقوال هذه الفرقة المنحرفة بين شباب جهلة، والجهل مرتع خصب لكل انحراف... ومع ذلك فأفكار وأقوال دعاة هذه الفرق تنتقل بالمشافهة، وقد عجزوا والحمد لله عن القدرة على صياغتها في كتب ورسائل، ومثل هذه الفرقة المنحرفة لا يكتب لها النجاح والاستمرار.

وإذا أعرضنا عن أقوال المعتزلة وغيرهم من أهل الزبغ والضلالة، ونظرنا في مراجع بعض أهل السنة والجماعة وجدنا أقوالاً في هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(والتهمك واضح في هذا الجواب الساخر. فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام، والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون)<sup>(١)</sup>

صحيح أن التهمك واضح في جواب إبراهيم، ولكن خاتم الأنبياء ﷺ عدّه

=العقيدة، وتقديم العقل على النقل، واعتماده الجم على مصادر أهل الكتاب، وقد رد عليه علماء

ثقات وبينوا ما في الكتاب من انحرافات .

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٤٠ جزء ١٧).

كذباً، وكذلك الخليل نفسه سماها كذبة كما جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري في صحيحه، وكان على سيّد رحمه الله أن ينقل الأحاديث الصحيحة في هذه المسألة، ومن خلال هذه الأحاديث كان عليه أن يبين جواز الكذب في بعض الحالات، والذي نراه أن في جوابه إيجاز مخل، وهذا منه زلة قلم، وإن كان كلامه ليس فيه غلو أو اعتزال والحمد لله.

### سادساً: إلقاء إبراهيم في النار

اعترف قوم إبراهيم في ذلك اليوم العصيب بأنهم ظالمون، لأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تسمع، وهذه أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها، غير أن صحوة ضمائرهم لم تستمر إلا لحظات، ثم انتصر صوت الشيطان في نفوسهم فنكسوا على رؤوسهم، وأصروا على كفرهم، وأصدروا قرارهم الجائر. قال تعالى:

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٦٨﴾ [الأنبياء].

وهذا هو سلاح أهل الباطل الذي يلجؤون إليه في مواجهة أنبياء الله ورسله وحملة الإسلام في كل عصر ومصر.

أجمع قوم إبراهيم على قتل نبيهم انتصاراً لألهتهم، واختاروا له أفضع قتلة، وهي الإحراق في النار، وليس في أي نار، بل بنوا بنياناً شاهقاً، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها. قال تعالى: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي

الْجَحِيمِ ﴿١٦٧﴾ [الصفات]



وفي رواية لابن أبي حاتم من طريق السدي أن المرأة لتمررض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعن لإبراهيم خطباً<sup>(١)</sup>

وقال ابن إسحاق: وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، فاشتعلت النار واشتدت، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها. ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً<sup>(٢)</sup> وفي تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم بربه أشد رسوخاً من الجبال الرواسي، وكانت ثقته بنصر الله وتأييده أقوى من الأرض ومن عليها، ولهذا كان غير مكترث لجماهيرهم المحتشدة، ونيرانهم الملتهبة، وكلماتهم النابية.

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل). قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشُوهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران].

وفي رواية أخرى لابن عباس قال: (كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل)، قال الحافظ في الفتح: (وفي حديثي ابن

(١) فتح الباري: (٧/٢٠٦) مطبعة الحلبي.

(٢) تفسير القرطبي: (٣٠٤/١١).

عباس إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق مطولاً في هذه القصة).<sup>(١)</sup>

- ﴿قَلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩) ﴿[الأنبياء]

﴿كُوفِي بَرْدًا﴾: يدل على سلامته من حرها. وقوله: ﴿وَسَلَّمًا﴾: يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه، ولا يصح لمسلم أن يسأل لماذا لم تحرق النار إبراهيم، لأن الذي صنعها وجعل فيها خاصية الإحراق هو الذي أمرها أن تكون برداً وسلاماً: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿[يس].

- ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠) ﴿[الأنبياء]

أرادوا إحراقه بالنار نصراً منهم لأهنتهم فجعلهم الله ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين. وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨) ﴿[الصافات].

ومن سنن الله أن ينصر رسله إذا بلغت الشدة بهم منتهاها ويخذل أعداءه المستكبرين. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠) ﴿[يوسف].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. فتح الباري: (٢٢٩/٨) مكتبة الرياض الحديثة.

وخرج خليل الرحمن من النار سليماً معافى، وقومه يشاهدونه ولا يتعظون، لأن الله قد كتب عليهم الهلاك بكفرهم وعنادهم، ولهذا لم تنفع فيهم الحجج والأدلة ولا الخوارق والمعجزات.

### سابعاً: هجرة إبراهيم

أيقن قوم إبراهيم أنهم عاجزون عن قتل خليل الرحمن أو زحزحته عن أفكاره التي يدعو إليها، ووقف طاغوتهم -النمرود- حائراً لا يدري ما يفعل بعد أن عجزت نيرانهم المتأججة عن التهام ظفر من أظفار إبراهيم أو إحراق قطعة صغيرة من ملابسه.

وأيقن إبراهيم عليه السلام أن جذور الشرك عميقة وعميقة جداً في قلوب قومه وعقولهم، لقد أقام عليهم الحجج الدامغة، ورأوا معجزات تبهر العقول فما زادهم ذلك كله إلا إصراراً على الباطل أو إعراضاً عن الحق، ولم يعد ينفع فيهم النصيح أو الوعظ.

وإذن فلا فائدة من بقاء إبراهيم في أرض جرداء قاحلة لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً، وبين قوم يستعجلون عذاب الله ويزهدون برسله وأنبيائه، وجاء أمر الله في هجرة إبراهيم ومن معه إلى الأرض المباركة.

قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَحْنُ إِلَهُ لُوطًا إِلَى

الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا

جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴿[الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ، لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [الصفات].

وهذا تتهاوى أقوال من زعموا أنه غادر بابل بعد أن أجذبت أرضها وعمّها القحط، ولا يغير من الحقيقة شيئاً أن أباه أزر خرج معه، فربما كان قد أصبح شيخاً مسنناً ليس له من يعيله، وحرص على مصاحبة ابنه مع إصراره على عقيدة آبائه وأجداده، كما أنه لا يغير من الحقيقة شيئاً أن إبراهيم عندما هاجر في سبيل الله وبأمره كان القحط قد عم أرض بابل.

هاجر الخليل عليه السلام، كما هاجر نوح قبله، وكما هاجر محمد ﷺ بعده، أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله ﷺ:

(هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ مُخْرَجِيَّ هُمْ؟»، قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك

أنصرك نصرًا مؤزرًا<sup>(١)</sup>.

تخلى إبراهيم عليه السلام عن وطنه وعن رفاق صباه، كما تخلى عن أقرب الناس إليه من أهله وقومه، وفر بدينه بأرض الله الواسعة، وليس معه من المسلمين إلا ابن أخيه وزوجه سارة!!.

وهؤلاء الثلاثة - إبراهيم ولوط وسارة - هم جماعة المسلمين، وليس على وجه الأرض من يذكر الله غيرهم، وفي هذا عبرة لمن يعول على الكثرة، ويهمل دور التربية.

وألقى الراكب المؤمن عصا التسيار في [حرّان] من أعمال بلاد الشام، وكان أهلها يعبدون الكواكب من دون الله جلّت أسماؤه وصفاته، فدعاهم إبراهيم إلى توحيد الله وعدم الإشراك به فلم يستجيبوا له... وبعد أن مكث في حرّان ما شاء الله أن يمكث ارتحل منها إلى الأرض [التيمن] - أي أرض بيت المقدس وما والاها - ثم ارتحل من أرض التيمن إلى مصر، وفيها جرت قصة سارة مع ملكها وسبق أن ذكرنا القصة عند حديثنا عن كذبات إبراهيم الثلاث في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والقصة محنة من محن إبراهيم المتتالية، وأشد الناس ابتلاءً الأنبياء، وأشد الأنبياء ابتلاءً أولو العزم من الرسل، وأية محنة أكبر من أن يرى الداعية زوجه وقد سلبت منه، ويدخلها الطاغوت إلى قصره، ثم ينام وسارة في غرفة واحدة، ويحاول

(١) معنى (الناموس: صاحب السر)، ومعنى (جذعاً: شاباً). فتح الباري: (١/٢٨).

-قَبَّحَهُ اللهُ- هتك عرضها والاعتداء على شرفها، وهي لا تملك قوة تدافع بها عن نفسها... وبيت زوجها خليل الرحمن لائذاً بكنف الله سبحانه وتعالى يصلي ويدعو ربه أن يرد إليه زوجته وأن يحفظها من ذلك الطاغية وكيده.

ولكن الله جلت قدرته الذي نجَّى إبراهيم من النار حفظه من وصمة العار، وعادت إليه سارة عزيزة شريفة، ومكث إبراهيم في مصر ما شاء الله أن يمكث ثم غادرها راجعاً إلى أرض [التيمن] ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية التي أخدمها فرعون مصر لسارة بعد أن رأى منها ما رأى.

ونرح لوط من أرض [التيمن] إلى الغور بأمر من إبراهيم، وبقيت الأرض الواسعة الخصبية، والأنعام التي لا تحصى، والمال، والعبيد، لخليل الرحمن وحده، وورقه الله ذرية صالحة، فما من نبي بعث من بعد إبراهيم إلا كان من ذريته، وما من كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده إلا نزل على أحد نسله وعقبه.

ونعم الله التي أنعمها على إبراهيم تذكرنا بهجرة المسلمين إلى الحبشة وما لاقوه عند النجاشي من إكرام وحرية وأمن، مما دعا الصحابي عبد الله ابن حارث بن قيس -أحد المهاجرين- إلى القول في رسالة بعث بها إلى إخوانه المقيمين في مكة:

يا راكبا بلغنْ عني مغلغلة من كل يرجو بلاغ الله والدين  
كل امرئ من عباد الله مضطهد يبطن مكة مقهورٍ ومفتونٍ

أَنَا وَجَدْنَا بِلَادَ اللَّهِ وَاسِعَةً      تُنْجِي مِنَ الذَّلِّ وَالْمَخْزَاةِ وَالهُونِ  
فَلَا تَقِيمُوا عَلَى ذُلِّ الْحَيَاةِ وَخِزْ      ي فِي الْمِمَاتِ وَعَيْبٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ <sup>(١)</sup>

ما أشد حاجة الدعوة الغرباء اليوم إلى فهم معاني هذه الآيات، وإلى التأسّي بإبراهيم عليه السلام في هجرته وغربته عن وطنه وأهله، لقد كانت الدعوة إلى الله في غربته أهم قضية عنده، فلم يتعلق قلبه بحب المال والأنعام التي منّ الله بها عليه، ولم يشغل نفسه بكتابة الرسائل والقصائد التي تعبر عن حبه لوطنه وحنينه إليه.

ويجب أن تبقى العقيدة عند الدعوة الغرباء عن أوطانهم أهم من التراب والطين، وأعلى من الأهل والعشيرة والقوم، وأن تكون ثقتهم بالله أقوى من أن تززعها الأهواء والمحن، وما يغلق بوجوههم هنا قد يفتح هناك.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء] <sup>(٢)</sup>

أما النمرود وقومه المشركون فلقد أهلكهم الله جلّت قدرته -سواء كان هلاكهم عن طريق البعوض الذي أكل لحومهم ودماهم وتركهم عظاماً بادية كما

(١) سيرة ابن هشام: (١/ ٣٣٠). مطبعة ومكتبة البابي الحلبي

(٢) المرغام: مشتق من الرغام، ورغم أنف فلان أي لصق بالتراب. وقيل المرغام: المذهب والمتحول، عن تفسير القرطبي: (٦/ ٣٤٧).

روى ابن كثير عن زيد بن أسلم، أم كان عن طريق آخر - وجعلهم عبرة لمن يعتبر، ونحن لا نعرف لهم نسلًا أو فضلًا، وإنما كل الذي نعرفه عنهم أنهم أعلام في حزب الشيطان، وأئمة ضلالة، ورموز شر وغواية والعياذ بالله.



# المبحث الرابع

## دروس وعبر

\* الدرس الأول: طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم

إبراهيم.

\* الدرس الثاني: كان إبراهيم لا يخشى إلا الله.

\* الدرس الثالث: المسلمون كالجسد الواحد.

\* الدرس الرابع: مثالان من أصنام وأوثان هذا العصر.

\* الدرس الخامس: عدم موالاتة المشركين.

\* الدرس السادس: قوة إبراهيم وجراته.

\* الدرس السابع: كانت الدعوة إلى الله كل شيء في

حياة إبراهيم.

### الدرس الأول: طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم إبراهيم .

حاكَمَ الطغاةُ إبراهيم عليه السلام بشكل علني، وسمحوا له أن يقول كل ما يريد دون قسر أو إكراه، فلم يُضرب أو يُقَاطع، بل ولم تسجَل أقواله على شريط [كاسيت]، بعد التهديد والتعذيب والتجويع، ثم يذاع منه ما يخدم مصلحة السلطة.

وفوق ذلك كله كان الشعب -بشيوخه ونسائه وشبابه وأطفاله- يشهد المحاكمة، ويصغي لأقوال محطم الأصنام، وردود السلطة عليه بشكل مباشر وعلى الهواء -كما يقولون-، ودون تحريف أو تلفيق.

وأما خليل الرحمن فقد اتخذ من المحاكمة مجالاً لعرض آرائه ومعتقداته، ولم يهتم أو يبال بما سيفعله الطغاة به. لقد اتهمهم بالكذب، ورماهم بالخبل، وسخر من آهتهم، ولم يسكتة المحققون والقضاة لأنه تجاوز قضية الدفاع عن نفسه... ولهذا فإننا نقول: إنَّ طغاة قوم إبراهيم أقلَّ خبثاً وحقداً على دعاة الله من طغاة عصرنا الذين لا يسمحون بشيء يسير من الحرية التي كان يسمح بها سلفهم رغم أن الأهداف والغايات واحدة عند الجميع في القديم والحديث:

- ففي مصر تم اعتقال داعية الإسلام الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وقال أعداؤه كل ما يريدون عنه عبر أجهزة إعلامهم، فزعموا أنه إرهابي مجرم، وعميل للاستعمار، وما إلى ذلك من أباطيل وادعاءات كاذبة، ولم يسمحوا له أن يدافع عن نفسه، أو أن يصدر بياناً يبيِّن فيه وجهة نظره، وتطوع المحامون من مختلف أنحاء

العالم الإسلامي للدفاع عن سيد رحمة الله، فلم تأذن سلطات عبد الناصر لهم بدخول الأراضي المصرية، فضلاً عن الاطلاع على ملف التحقيق أو مقابلة المتهم في سجنه، إنَّ المستحيل حقاً أهون من ذلك. أخيراً أعدم المجرمون مفكراً إسلامياً كبيراً وداعية فذاً، ولم يسمع الناس إلا رأي السلطة في هذه القضية.

- وفي بغداد اعتقلت سلطات حزب البعث -العفلقى- داعية الإسلام الشيخ عبد العزيز البدرى رحمه الله، من بيته وهو آمن بين زوجته وأولاده... اختطفوه من بينهم دون أن يرتكب ذنباً يغضب وجه الله أو يقترف جريمة... وبعد أيام أخبروا أهله أنه مات -بالسكتة القلبية-، ونقلوه إلى مثنواه الأخير<sup>(١)</sup> دون أن يسمحوا لطلابه وأهله ومحبيه أن يشيعوه، غير أن أخاه تمكن من خرق حصار رجال الأمن المفروض حول الجثة، ورفع الغطاء عن وجه القتيل، ويا لهول ما رأى من آثار التعذيب والتشويه... وهكذا قتل مجرمو حزب البعث شيخاً داعية من أبرز علماء العراق، ولم يعلم الناس لماذا اعتُقل وقُتل، بل ولم تُقل السلطة وجهة نظرها من شدة استخفافها بأرواح الناس.

- أما بلاد الشام الجريحة، ففي سجن تدمر -وخلال بضعة ساعات- أباد طغاة البعث النصيري مئات من الشباب الدعاة -بين طبيب ومهندس ومدرس وخطيب واعظ- ودفنهم في قبور جماعية، وكان بعضهم ما يزال على قيد الحياة، وفي مدينته حماة المسلمة دمّر المجرمون معظم أحياء البلدة، وكان ضحايا هذه

(١) أقصد: نقلوه إلى القبر، أما المثنوى الأخير فهو المرحلة التي تلي حياة البرزخ.

المجزرة الرهيبة لا يقل عن ثلاثين ألف قتيل. وقد هتك الأوغاد الأعراض وقتلوا الأطفال والشيوخ، ودمروا معظم مساجد المدينة.

وجرائم البعث النصيري ليست قاصرة على تدمير وحماة، لقد حولوا سورية كلها إلى سجن، ومن الأمور التي لم يعد يستغربها أهل بلاد الشام اعتقال وإعدام من شاءت السلطة، ولا يحق لأحد أن يسأل عن ابنه أو أخيه هل مات أم لا يزال على قيد الحياة.

وهذا قليل من كثير من الأحداث التي تجري في عالمنا الإسلامي، لا فرق في ذلك بين طاغوت عسكري وآخر ديمقراطي، أو طاغوت تقدمي وآخر رجعي.

وإن أحسن وصف لعقلية وأفكار الطغاة المعاصرين ما قاله أحد شعراء الدعوة الإسلامية يترجم ما كان يقوله حقاً العقيد حمزة البسيوني مدير السجن الحربي في القاهرة في محاضراته التي كان يلقيها على العلماء الدعاة في السجن :

إني أنا القانون أعلى سلطة  
من منكم أحييته فبرحمتي  
من ذا يحاسب سلطة القانون  
وإذا أمتُّ فذاك ملك يميني

فما بال عدد كبير من الكتاب الوعاظ يسودون الصفحات بكتبهم، ويقضون الساعات الطوال في برامجهم في الإذاعة والتلفاز يتحدثون فيها عن طغيان قوم إبراهيم، ولا يتحدثون كلمة واحدة عن طغاة عصرنا، اللهم إلا إذا كان حديثهم جزءاً من حملة إعلامية يشنها طاغوت ضد طاغوت آخر؟!.

## الدرس الثاني: كان إبراهيم لا يخشى إلا الله

بعض الذين يقرؤون سيرة إبراهيم عليه السلام تتعلق أذهانهم بانتصاراته المرموقة، وتأييد الله له والوقوف معه ضد أعدائه في جميع محنه وابتلاءاته، وينسى هؤلاء أو يتناسون صعوبة الطريق الذي سلكه خليل الرحمن، وغرخته في قومه، وشدة عداوة الناس له، ومصائبه المتلاحقة التي عاناها قبل أن يكرمه الله بالنصر.

فإبراهيم عليه السلام وهو يحطم الأصنام ما كان يعلم أبداً أن قومه سيلقونه في النار، وأن الله سينقذه منها، وكل الذي كان يعلمه أن الطغاة سيقتمون منه، وربما أقدموا على قتله... ومع ذلك هان عليه الموت في سبيل الله، كما هانت في عينه قوة الطاغوت وبطشه عند تذكر قوة الله، وزهد في مغريات الدنيا وشهواتها وآمن بأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

وعندما هدده قومه وتوعده أجابهم بكل قوة وتصميم. قال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَآيُ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ [الأنعام].

- كيف أخاف من أصنامكم وأنا أعلم أنها حجارة صماء لا تضر ولا تنفع؟! -

- كيف أخاف من قادتكم وطواغيتكم، وهم ضعاف وإن ملكوا المال والجيش... كيف أخاف منهم وأنا أعلم أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون

ساعة ولا يستقدمون، فهم أحق بالخوف مني لأنهم عبدوا غير الله - جلَّت قدرته - وجحدوا آلاءه ونعمه، وهم يرون آياته في كل شيء؟!!

أنتم أحق بالخوف مني لأن شبح الموت يطاردكم، وهيب جهنم ينتظركم، ولن تغني عنكم في ذلك اليوم الموعود أموالكم وما تملكون شيئاً يوم تعرضون على ربكم حُفاة عُراة عُراً.

ثم ينتقل خليل الرحمن من التخصيص إلى التعميم في حوارهِ مع قومه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَأَدْعَوْنَا لَهُ، وَأَطَاعْنَا قُلُوبَهُمْ لِقَضَائِهِ وَقَدْرَهُ، وَلَمْ يَخْلُطُوا إِيمَانَهُمْ بِشْرِكٍ أَوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ، وَلَوْ كَانُوا فِي سَجُونِ الظَّالِمِينَ وَمَعْتَقَلَاتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ فَضَلُوا وَاخْتَارُوا الْعَذَابَ عَلَى الْفِتْنِ وَالْأَلْمِ عَلَى الْحَيَاةِ، وَاشْتَاقُوا لِلْقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَآثَرُوا جَوَارِهِ عَلَى كُلِّ مَغْرِيَاتِ الدُّنْيَا.

أما الكافرون فحياتهم جحيم لا يطاق، ورُعب لا يُحتمل. قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١) ﴿آل عمران﴾ ومن مظاهر هذا الرُعب الذي ألقاه الله في قلوب الذين أشركوا من الطواغيت أن كلاً منهم يتمنى أن يسير في الشارع كغيره من الناس بل كأقل الناس، غير أنه لا يجرو أن يسير على قدميه، وتراه يخرج في سيارة ومعه الحرس ثم لا يشعر بالأمن، بل ينتظر مصيره

المحتوم في كل لحظة، ويشك بأقرب الناس إليه ولو كانوا من خواص أقربائه وبطانته. وإذا مات الطاغوت وهو مُصر على طغيانه بدأ عند ربه حياة جديدة كلها عذاب وشقاء، أما المؤمنون فيدعون إلى الله ويجاهدون في سبيله وكل ما يصيبهم خير وسعادة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ <sup>ط</sup> وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ﴿٥٢﴾ [التوبة]

ولقد كانت هذه المعاني واضحة جلية في نفوس الصحابة والتابعين وأعلام السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

سأل قائد جيوش الفرس [رستم] ربي بن عامر: ما جاء بكم؟! فقال ربي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفْضِي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟! قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. <sup>(١)</sup>

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحمت فهي معي لا

(١) البداية والنهاية: (٣٩ / ٧).

تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة). وكان يقول: (المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه). ولما أدخل ووصل إلى القلعة، وصار داخل سورها، نظر إليه وقال: ﴿... فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۗ﴾ [الحديد] وقال ابن القيم: (وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدرأً، وأقواهم قلباً، وأسرههم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضائق بنا الأرض، أتيناها فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة...) (١)

من أجل هذا انتصر إبراهيم عليه السلام، كما انتصر خاتم الأنبياء ﷺ وأصحابه والتابعون ومن جاء بعدهم من رجال خير القرون، ولن تهزم أمة يقودها علماء دعاة يعتقدون بأن السجن خلوة والنفي سياحة والموت شهادة. وعندما فقدت أمتنا هذه النهاج من الرجال الدعاة سلط الله علينا أعداءنا، وصرنا هدفاً لشذاذ الآفاق وحُثالة الأمم، وأصبح المسلمون غنَاءً كغشاء السيل لا يرهبهم أحد، ولا يحسب لهم أي حساب.

(١) الكلم الطيب لابن القيم [عن الكواكب الدررية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية].



ومن المؤسف جداً أن كثيراً من الدعاة إذا سمع أحدهم أن السلطة تراقب تحركاته، اعتراه الخوف، واشتد قلقه، وصار يشك بأقرب الناس إليه، وربما تحول الخوف من السلطة عند بعضهم إلى مرض عقلي مزمن والعياذ بالله، ولهذا فبعض الذين ينافقون للطاغوت لا ينشدون وظيفة عنده أو مالاً، وإنما يأملون السلامة منه ومن حرسه وجواسيسه، وما تزال نفوسهم تضعف من كثرة تردادهم على مجالس السلطان أو مجالس كبار موظفيه حتى يصبحوا أداة من أدوات الطاغوت لا يعصون له أمراً ولا يردون له طلباً، ومن المفارقات العجيبة أن بعضاً من هؤلاء الدعاة قد يتحدثون ساعات وساعات في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ [آل عمران]

اللهم املاً قلوبنا بالخوف منك ومن نارك، وحررها من خوف غيرك يا رب العالمين، وارزقنا اللهم الشهادة في سبيلك، وأحسن ختامنا وختام المسلمين، وحبب اللهم إلينا التأسى بأنبيائك الذين لم يخشوا أحداً غيرك يا رب العالمين.

### الدرس الثالث: المسلمون كالجسد الواحد

المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر، ورأس جسد هذه الأمة كان إبراهيم عليه السلام في عصره، وله المكانة التي تلي الرأس بعد بعثة خاتم الأنبياء ﷺ .

فليس مستغرباً أن يذكر كل مسلم شيئاً من قصة خليل الرحمن وشيخ الأنبياء

مع قومه المجرمين الظالمين صباح مساء في كل يوم من سني عمره.

ومن مظاهر هذه المشاركة الشعورية الكثيرة نختار قصة [الْوَزْغ] <sup>(١)</sup>

عن سعيد بن المسيب، عن أم شريك رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال:

«كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام» <sup>(٢)</sup> وفي رواية لأحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم» قال: فكانت عائشة تقتلهن.

وفي رواية أخرى لأحمد أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟! فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ:

«أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه». وتفرد به أحمد من هذين الوجهين <sup>(٣)</sup>.

(١) الوَزْغ: جمع وَزَغَة حيوان صغير يلحق بفيه، وبييض، ويقال لكبارها سَامٌ أبرص. وتجمع أيضاً على أوزاغ ووُزغان.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٢٠٤ / ٧) واللفظ له، ورواه مسلم من حديث ابن جريج، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ص (١٨٥)، دار الكتب الحديثية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، قال محقق الكتاب عن قصة الوزغ: (لا نستطيع الاطمئنان إلى هذه المرويات ما دامت تخالف العقل، فليس هناك تكليف للحيوان، وليس الوزغ من الفواسق التي أمرنا الرسول بقتلها، وإذا صح أنه =

- سبحانك يا رب أي دين عظيم هذا الذي هديتنا إليه ورزقتنا إتباعه؟!

- آية مشاركة وجدانية تلك المشاركة التي أوجدها الإسلام بين أفرادها!!

منذ آلاف السنين وكلما رأى المسلمون وزغاً سارعوا إلى قتله لأنه كان ينفخ النار على أبنائنا إبراهيم عليه السلام، ولأن عدو إبراهيم عدو لكل مسلم... وسيبقى المسلمون على ذلك حتى يبعث الله الأرض ومن عليها، فلا وُد ولا مُصالحة مع أعداء الله ولو كانوا حيوانات صغيرة كالأوزاغ.

وقضية الوزغ وغيره يعرفها خاصة المسلمين وعامتهم، فلو رأى فتى صغير في قرية نائية وزغاً لسارع إلى قتله لأنه رأى أهله يقتلونه وسمع منهم أنه كان ينفخ النار على خليل الرحمن عليه السلام.

ومن المحزن حقاً أن المشاركة الشعورية بين أعضاء الجسد الإسلامي الواحد أصابها كثير من الضعف والفتور في زمننا... فكم يسجن ويعدم أعداء الإسلام من الدعاة إلى الله وإخوانهم في بلدان العالم الإسلامي لا يعرفون عنهم شيئاً، وإن عرفوا وتأثروا فيكون تأثيرهم عابراً كسحب الصيف... ولهذا فقد أصبحت عمليات إبادة المسلمين ونصب المشانق لهم من الأمور العادية التي لا تستحق

---

=أمر بقتله فينبغي أن تكون هناك علة أخرى). أي عقل هذا الذي يرد أحاديث رسول الله ﷺ التي رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما، كما رواها أحمد والنسائي وابن ماجه.. وكم ظلم ابن كثير رحمه الله عندما زعم عبد الواحد أنه حقق كتابه البداية والنهاية!.

اهتماماً، بل إن مباراة الكرة بين دولة وأخرى تثير اهتمام أجهزة الإعلام العالمية أكثر من تدمير مخيمي صبرا وشاتيلا في لبنان.

إنه لمن المؤلم أن تقوم الدنيا ولا تقعد لمقتل أو سجن يهودي والمسلمون يذبحون في كل بقعة من العالم، ويلقى جلاذوهم كل التأييد ودعم من جميع الدول الكبرى في العالم، بل ومن الدول التي تحكم شعوباً تدين بالإسلام.

### الدرس الرابع: مثالن من أصنام وأوشان هذا العصر

كل من يقرأ سيرة إبراهيم عليه السلام يستغرب أشد الاستغراب سخف قومه، وبلادة عقولهم، وقسوة ضمائرهم، إذ كيف يلقون رجلاً عاقلاً حكيماً منهم في النار لأنه حطم بعض الحجارة والصور التي أسموها آلهة!!.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه:

لماذا لا يستغرب هؤلاء الناس جميعاً ما يجري في هذا العصر من سخف وظلم وهمجية... ولندلل على ذلك بالمثال التالي:

لو أن إنساناً حطم تمثالاً من التماثيل التي تعتبرها الدولة رمز استقلالها - كصورة زعيم الحزب الحاكم أو صورة من وصفوه بزعيم الاستقلال - ماذا سيكون مصير الجاني؟!

مما لا شك فيه أن هذا الإنسان سيقتل قبل أن يحطم التمثال، لأن قوات الأمن التي تحرس هذه الأصنام ليل نهار مأمورة بإطلاق النار في مثل هذه الأحوال.

وإذا سلم هذا الإنسان من القتل فسوف يتم اعتقاله في سجون مظلمة يراها زبانية لا تعرف قلوبهم الشفقة أو الرحمة... وفي هذه الأوكار التي لا يعرف السجين فيها الليل من النهار، وفي جو من الإرهاب لا مثيل له يبدأ المجرمون التحقيق مع الجاني، فإن ثبت أنه عضو في تنظيم قتلوه وقتلوا معه قادة هذا التنظيم، وإذا تبين لهم أنه لا صلة للجاني بأحد قتلوه وحده.

وفي كلا الحالتين لن يسمحوا للجاني أن يبين وجهة نظره وما هي الدوافع والأسباب التي دعت به إلى القيام بهذا العمل الذي أقدم عليه.

وما يجدر ذكره أنه لا فرق بين تمثال زعيم حزب الدولة وبين أصنام قوم إبراهيم إلا في كون التماثيل الحديثة أفخم لأنها تصنع من مادة البرونز، وتبنى عليها قباب من الذهب.

ثمّة أمر يجعل قوم إبراهيم أقل خبثاً من طواغيت عصرنا ذلك لأنهم حاولوا قتل إبراهيم وحده ولم يتعرضوا لجماعته -لوط وسارة- بأذى، أما السلاطين التقدميون في زمننا فيأخذون الناس بالشبهات، ويبطشون بجماعة المتهم وأقربائه ولو كانوا أبرياء.

وإذن لماذا يكثر بعض الذين ابتليت بهم الدعوة الإسلامية من الحديث عن أصنام قوم إبراهيم ونوح وغيرهما من أنبياء الله، ويسكتون عن الأصنام الحديثة؟

### الدرس الخامس: عدم موالة المشركين

ما نشاهد أن بعض الناس يقيمون أوثق العلاقات مع السفهاء والملاحدة من أقربائهم ورؤسائهم، فيترددون على مجالسهم، ويحضرون ندواتهم واحتفالاتهم العامة، وقد يسخر هؤلاء الملاحدة من الدعوة وأصحابنا جالسون لا يظهر على وجوههم الامتعاض ولا يغضبون الله.

وربما كتبوا في الصحف يمدحون بعض أعمال الطغاة، وإذا سألتهم عن الأسباب التي تدعوهم لاتخاذ مثل هذه المواقف قالوا: لقد علمنا الإسلام أن نقول للمُحسِن: أحسنت، وللمُسيء: لقد خالفت الصواب، ولنا أسوة حسنة في إبراهيم عليه السلام. قد كان رقيق القلب، كثير الحلم، واسع الصدر، لين الجانب مع والده وأهله، وقد وصفه الله بهذه الصفات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) [هود].

ودعا لأعدائه في قوله تعالى على لسانه: ﴿...فَمَنْ تَعَنَّيْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي

فَأَنَّاكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٦) [إبراهيم]

ولا أدري لماذا يستدل هؤلاء بأسلوب إبراهيم عند بداية الدعوة وينسون أو يتناسون -وهو الأرجح- موقف إبراهيم من أبيه وقومه بعد أن علم منهم إصرارهم على الشرك.

لقد أعلن لهم العداوة والبغضاء، وتبرأ منهم، واعتزل نواديهم ومجالسهم العامة

والخاصة، وتميز بعقيدته وسلوكه عنهم، وتوج مواقفهم بتحطيم أصنامهم، ووقف أمامهم يقول بكل جرأة: ﴿ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء]

- أف من عقولكم الجامدة التي ارتضت هذه الحجارة آلهة!.

- أف لما أنتم عليه من ضلالة وتقليد لما كان عليه آباؤكم وأجدادكم!!

- أف من آهتكم هذه التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تجلب نفعاً!!.

وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾... [المتحنة]

بهذا كان خليل الرحمن أسوة حسنة، في إعلان العداوة والبغضاء لأبيه وقومه، وإعلان البراءة منهم ومما يعبدون من دون الله.

وفي قوله تعالى ﴿..إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [المتحنة] قال أكثر المفسرين: إن هذا القول من إبراهيم ليس موضع التأسى<sup>(١)</sup> رغم أنه كان في بداية الدعوة وكان يرجو أن يلين قلبه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

ولا بد من القول اللين عند تبليغ الدعوة للآخرين، أما عند الإصرار على

(١) أضواء البيان: (٨/١٣٩).

الشرك فلا يجوز التودد لأعداء الله سبحانه وتعالى، ومن يتولهم فإنه منهم. فليتنق الله الدعاة، وليقتدوا بإبراهيم عليه السلام، ولا يسوغوا لأنفسهم الأعدار الواهية والحجج الباطلة، وإذا كانوا غير قادرين على قول كلمة الحق فلا يقولوا الباطل، وذلك أضعف الإيمان.

وهؤلاء أنفسهم الذين يقولون للمسيء من الملاحظة خالفت الصواب، نراهم يقولون لإخوانهم من الدعاة أشد الكلام وأقساه، فليخشوا أن تصيبهم قارعة من الله أو يجلب بهم عذاب أليم .

### الدرس السادس: قوة إبراهيم وجرأته

امتازت سيرة إبراهيم عليه السلام بكثرة مناظراته مع أبيه وقومه والنمرود، وفي جميع هذه المناظرات كان يخرس أفواه خصومه بالحق، ويلجم ألسنتهم بالأدلة القاطعة... وفوق ذلك كان عليه السلام هو الذي يستدرج قومه، ثم ينقلهم من إخراج إلى إخراج آخر لا يحسدون عليه، وكان يقف بينهم متهمًا فإذا به يصبح قاضياً وهم موضع الاتهام، ويبقى زمام المبادرة بيده، فهو الذي يحدد لهم زمن ومكان المبادرة، ثم يخرج من بينهم منتصراً، وقد أقام عليهم الحجة التي أمره الله بتبليغها.

انظر إلى قوله تعالى عن مناظرته مع النمرود بعد أن أقام عليه الحجة: ﴿فَبُهِتَ

الَّذِي كَفَرَ﴾ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة]

وقوله تعالى يصف حالة قومه بعد أن أعوزهم الدليل: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ



فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ  
يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنبياء]

ومردّ قوة إبراهيم أولاً وأخيراً إلى الله سبحانه وتعالى الذي منّ عليه بالقدرة  
على الإقناع. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ  
مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام]، إن الله عليم بالمواهب التي  
تفضل بها على عبده ورسوله إبراهيم، لقد كان ذكياً فطناً، حسن الأسلوب، غزير  
العلم، صادق النية... ولهذا كان أمة في قومه رغم أن الناس كانوا جميعاً ضده وليس  
معه إلا زوجه وابن أخيه.

وفي المقابل نجد أن الدعوة في زمننا كثر ويعدون بالملايين لكنهم جميعاً ليسوا في  
مستوى قوة إبراهيم عليه السلام، وهذا يدعونا إلى التأكيد بأن القضية قضية كيف  
وليست قضية كم!!.

قليل جداً من هؤلاء الدعاة من يجتمع فيه صدق النية، وغزارة العلم، والقدرة  
على وضع الكلمة المناسبة في مكانها المناسب، والجرأة على الصدع بالحق فقد يكون  
هناك رجال صادقون مجاهدون لكن الأمور تتلبس عليهم لقلّة علمهم وعدم  
إحاطتهم بأحكام الدين، وقد يكون هناك علماء لكنهم لا يصدعون بالحق... ألا ما  
أشدّ حاجة أمتنا الإسلامية إلى رجال يتأسون بإبراهيم عليه السلام ويطبقون حجة  
الله على خلقه في كل مكان وزمان.

### الدرس السابع: كانت الدعوة إلى الله كل شيء في حياة إبراهيم

صدع إبراهيم عليه السلام بدعوة الحق منذ أن آتاه الله رشده، فكان لا يترك مجالاً، ولا تفوته مناسبة إلا ويعلن فيها الدعوة إلى توحيد الله، ونبذ ما يعبد من دونه من أصنام وأوثان. فلم تكن دعوة خليل الرحمن سرّية مقصورة على فئة محدودة من الناس، ولا مجهولة عند عامة الناس. لقد كان سكان المدن والحضر، وعامة قومه وخاصتهم والناس كل الناس يعرفون معالم الدعوة التي يبشر بها الفتى إبراهيم!!.

وعندما هدده أبوه بالضرب والرجم... وعندما نفذ صبر قومه وتوعدوه بالقتل والإعدام - وكان يعلم أنهم يعنون ما يقولون - لم يتراجع، ولم يغير من أصول دعوته ليلتقي معهم في منتصف الطريق، ولم يلتمس لنفسه الأعذار ويدخل سرداباً من سرايب السرية أو يسكت عن المهجوم على أصنام قومه متذرعاً بمصلحة الدعوة.

لم يفعل شيئاً من ذلك، وحاشاه أن يتراجع أو أن يساوم وهو الذي وصفه الحق جلّ وعلا بالأمانة والاستقامة والصدق والوفاء. لقد كانت الدعوة عنده أهم من نفسه وزوجه وأبيه وأهله وقومه وماله، وكانت شغله الشاغل، وقضيته التي لا تقدّم عليها قضية... وفي أشد ساعات الخطر أقدم على تحطيم أصنام قومه وهي أعز شيء عندهم، وعندما حطم هذه الأصنام لم يهرب ويتوار عن أنظارهم، لا بل اتخذ من محاكمتهم مجالاً لنشر دعوته وإقامة الحجة عليهم، وكان هو بوادٍ وهم بوادٍ آخر.

ومن يقلب أوراق التاريخ يعلم أن الأنبياء والدعاة المصلحين سلكوا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام، فكان يعرفهم القاصي والداني،

وكانوا يصدعون بالحق لا يخافون الجبابة ولا يخشون الظالمين، وكانت المحن والمصائب تزيدهم ثباتاً واستقامة على المحجة البيضاء، ولذلك استجاب لهم الناس، ونصر الله بهم دينه، أما النكرات من الدعاة الذين لا يعرفهم أحد من الناس، ويتوجسون خيفة من الأشباح، ومحسبون كل صيحة عليهم، وتسيطر عليهم الأوهام، وتنهار عزائمهم إذا حلَّ بهم مكروه... إن هؤلاء أعجز من أن يغيروا واقعاً لأنهم عجزوا عن تغيير ما بأنفسهم.

إن الذين يخلطون بين مصالحهم والدعوة، ويقبلون أنصاف وأرباع الحلول، ويقضون معظم حياتهم الدعوية في دهاليز السرية، ولا يرون بأساً في مصادقة الطغاة... هؤلاء أخطر على الدعوة الإسلامية من أعدائها، وعلى أتباعهم أن يتنبهوا إلى خطر الفتاوى التي تدبجها يراع شيوخهم ولينظروا إليها بعين الحذر.

ولا بد من التنويه إلى أن الدعاة قد يضطرون في فترة من الفترات إلى اللجوء إلى السرية في العمل كما فعل ﷺ عند بداية الدعوة... لكن هذه السرية استثناء وليست أصلاً، ضرورة وليست منهجاً، ولا يصح بعد نزول قوله تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر] أن تكون جوانب الدعوة كلها سرية، فلا بد من وجود رجال أعلام يبلغون الدعوة، ويصبرون على كل أذى يصيهم في سبيل الله، وتكون حياتهم كلها للدعوة كما كانت حياة إبراهيم عليه السلام.

## المبحث الخامس

### لوط عليه السلام

\* أولاً: أخلاق قوم لوط.

\* ثانياً: خطورة اللّواط.

\* ثالثاً: رد قوم لوط على نبيهم.

\* رابعاً: لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط.

\* خامساً: هلاك قوم لوط.

## أولاً: أخلاق قوم لوط

أما لوط فهو: لوط بن هاران بن أزر آمن بدعوة عمه إبراهيم عليهما السلام، وهاجر معه من بابل كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ

هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ [العنكبوت]

وصاحبه في جميع رحلاته حتى استقر به المقام في سدوم من أرض غور زُغَر بعد عودتهم من مصر، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم سبعاً وعشرين مرة، ومن السور التي ورد ذكره فيها: الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل والتحريم<sup>(١)</sup>.

وكان أهل سدوم من أفجر الناس، وأخبثهم سريرة وسيرة، وأسوأهم طوية... وكانوا يجاربون الله وأنبياءه، ويسعون في الأرض فساداً، ويقطعون الطريق، ويخونون الصديق، ويأتون في ناديهم المنكر جهاراً علناً دون حياءٍ أو خجل، وما كان فيهم رجل واحد رشيد.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ

(١) قصص الأنبياء للنجار ص (٧٨). وللمفسرين قولان في ضمير [قال] في قوله تعالى:

﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ...﴾ ﴿٦١﴾ فبعضهم قال يعود الضمير إلى إبراهيم، وبعضهم الآخر قال يعود إلى لوط، وعلى كل حال فلو ط هاجر إلى ربه مع إبراهيم عليهما السلام.

مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف] وقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ  
 الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيُنْكُمُ لِلتَّائُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ  
 تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ [النمل] وقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ  
 الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيُنْكُمُ لِلتَّائُونَ  
 الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ... ﴿٢٩﴾ [العنكبوت] وقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِونَ  
 ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ  
 أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ  
 لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْوَابِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ [الشعراء].

وإذن: كان قوم لوط يفعلون الفاحشة، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء،  
 ولم يسبقهم بهذا الفعل الشنيع أحد من العالمين، ولهذا كانت معظم الآيات التي ذكر  
 فيها اسم لوط عليه السلام تشير إلى فساد فطرة قومه المتمثلة في إتيانهم الذكران من  
 العالمين، وترك ما خلق من نساء لعباده المؤمنين...

فليس من المستغرب أن تكون مشكلة إتيان الذكران من العالمين أهم قضية في  
 دعوة لوط عليه السلام لأن قومه لو استجابوا له في دعوته إلى الإيمان بالله وعدم  
 الإشراف به لكانت استجاباتهم ناقصة أشد النقص إذا لم يقلعوا عن عاداتهم الخبيثة  
 التي اجتمعوا عليها، ولم يتستروا في فعلها، بل أصبحت جزءاً من نظام حياتهم إلى

درجة أنهم كانوا يستغربون من لوط دعوتهم إلى نبذ هذه الأعمال المشينة.

ولو أن إتيان الذكران من العالمين كان خُلُقاً فردياً عند قوم لوط، يستتر المجرمون في فعله لهان الأمر، غير أن الله تعالت أسماؤه وصفاته أخبرنا أنه لم يكن في قوم لوط رجل واحد رشيد!!.

ثمة أمر لا بد من التنويه إليه وهو أن كل نبي بعثه الله لهداية قومه، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم وعاداتهم، وهذا يقتضي أن يتصدى النبي لعلاج ومواجهة أخطر المشكلات مهما كلفه ذلك من تضحيات، وهذا يخالف سلوك بعض الدعاة في عصرنا الذين يعالجون قضايا عفا عليها الزمن، ويسكتون عن قضايا لأن إثارها تغضب الطغاة، وأمثال هؤلاء الدعاة يريدون دعوة لا تكلفهم محناً وابتلاءات.

### ثانياً: خطورة اللواط

اللواط كانت من أهم الأسباب في هلاك قوم لوط، وأخشى أن تكون اليوم سبباً في هلاك أمم اعتبرت دولها اللواط عملاً مشروعاً، وسنت من أجل حمايته القوانين لأنه -كما يرون- يدخل في إطار الحقوق الشخصية للمواطن التي لا يجوز المساس بها.

ولهؤلاء الذين يسمونهم اليوم [المثليين] تجمعات منظمة: تنظم المظاهرات، وتعد الندوات، وتجري الاتصالات مع منظمات حقوق الإنسان التي تتبنى قضاياهم، وتدافع عنهم، وتتصدى للدول التي تجرم قوانينها مثل هذه الأفعال...

ولهذا لا بد لنا فيما يلي من بيان أقوال المختصين من الأطباء في هذه المسألة الخطيرة:  
 من شأن اللّوامة أن تصرف الرجل عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز  
 عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد  
 النسل. ولو قدرّ لمثل هذا الرجل أن يتزوج، فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا،  
 فلا تظفر بالسكن، ولا بالمودة والرحمة، فتقضي حياتها معذبة معلقة، لا هي  
 متزوجة ولا مطلقة.

- وإن هذه العادة تغزو النفس، وتؤثر في الأعصاب تأثيراً خاصاً أحد نتائجه  
 الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد، فيشعر في صميم نفسه بأنه ما خلق  
 ليكون رجلاً، وينقلب الشعور إلى شذوذ.

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي، بل هنالك ما  
 تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك،  
 وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسية شائنة  
 تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة، فتحيي فيه لوثات وراثية  
 خاصة وتظهر عليه آفات عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة، ومثل هذه  
 الآفات العصبية النفسية: الأمراض السادية، والماسوشية وغيرها.

- واللّواط بجانب ذلك يسبب اختلالاً كبيراً في توازن عقل المرء،  
 وارتباكاً عاماً في تفكيره، وركوداً غريباً في تصورات، وبلاهة واضحة في  
 عقله، وضعفاً شديداً في إرادته.



- واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسي خطير، فتجد جميع من يتصفون به سيئي الخلق فاسدي الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والرذائل، ضعيفي الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسي عن السطو على الأطفال الصغار، واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة، والتجروء على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيراً ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها، ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب.

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك أن يمكن أن تنتشر كذلك بطريق اللواط، وتصيب أصحابه فتفتك بهم فتكاً ذريعاً فتبلى أجسامهم، وتحصد أرواحهم<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: رد قوم لوط على نبيهم

لم يكتف قوم لوط بالصدود والإعراض عن دعوة نبيهم، وإنما هددوه بالإخراج من قريتهم، ولم ينجلوا في بيان سبب التهديد. قال تعالى على لسانهم:

﴿قَالُوا لَيْن لَمْ نَنْتَه يَلُوطَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء]

والإخراج يعني مصادرة أملاكه، وإسقاط الجنسية عنه كما يقولون في لغة أهل هذا العصر، أما عن سبب طرده فيقول تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ

(١) كتاب [الإسلام والطب] للدكتور محمد وصفي [عن كتاب فقه السنة] للشيخ سيد سابق:

فَالْوَأْخِرِيُّوآءَآلِ لُوٓطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَآسٌ يَّنطَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ [النمل]،

والشاهد هنا قوله تعالى: ﴿ أَنَآسٌ يَّنطَهَرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾ إنهم -أي آل لوط- يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر، ويدعون إلى توحيد الله وعدم الإشرآك به، وينكرون علينا إتيان الذكران من العالمين، ويحتننون الفواحش والبغي والإثم.

إن الذي نعرفه عن الطغاة أنهم يقلبون الحقائق، ويلصقون بالدعاة أعمالاً قبيحة، ويزعمون أنهم دعاة إصلاح، أما قوم لوط، فقد قالوها صريحة واضحة مجلجلة: لا مقام لمن يتطهر في أرضنا!!، ولا نؤمن بشيء اسمه الشرف والعفة!!.

إن طغاة عصرنا يشبهون قوم لوط في جوانب كثيرة من أهمها: مطاردة الدعاة إلى الله وتشجيع دعاة الفاحشة، والتعاون مع المجرمين وتجار المخدرات والخمور، وإسناد أرفع المناصب للملاحدة والمنحرفين والشاذين من الناس، ورحم الله من قال:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

ويختلف هؤلاء الطغاة عن طغاة قوم لوط في جانب واحد، فهم لا يسمون الأمور بأسمائها، ولهذا فهم يزعمون بأنهم رواد إصلاح ونهضة، أما الدعاة إلى الله فهم مجرمون وقطاع طرق.

وبلغ الاستهتار عند قوم لوط منتهاه عندما راحوا يستعجلون عذاب الله قال

تعالى: ﴿ وَلُوٓطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطَعُونَ السَّبِيلَ

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا  
بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ [العنكبوت]، انظر إلى قولهم: ﴿.. أَأَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ  
كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ويبدو أن نفوسهم الأمارة بالسوء حدثتهم بأن  
لوطاً ليس صادقاً، ولن يجلب بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم،  
وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون ﴿... قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾، قالها نوح بعد أن نفذ صبره، واستنفد جميع طاقاته في الأمر  
بالمعروف والنهي عن المنكر... قالها لوط بعد أن ازدادت جرأة قومه على الله،  
وتدادوا في فجورهم، واستهانوا بكل القيم والأخلاق.. قالها يشكو ضعف قوته،  
وقلة حيلته، وهوانه على قومه.. قالها وهو مؤمن بان الله لن يتخلى عنه، ولن يخذله،  
لأنه عبده ونيبه، ولأن النصر للذين يأخذون بأسباب النصر سنة ثابتة من سنن الله  
التي لا يعترها تغيير ولا تبديل.

#### رابعاً: لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط؟

استجاب الله تعالى دعوة نبيه لوط عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى  
الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت].

فأرسل ملائكته إلى قوم لوط لينفذوا أمره في أهل قرية [سدوم] التي  
خلت من الصالحين، ولم ينفع في أهلها التهديد ولا الوعيد، ولم يستجب

لنبي الله رجل واحد بعد أمد طويل من تبليغ الدعوة وإقامة الحجّة.

وشاء الله تعالى أن تكون [التيمن] أول محطة في طريق ملائكة الرحمن إلى القرية. وفيها - أي التيمن - اجتمعوا بخليل الرحمن عليه السلام، فأحسن استقبالهم، وقدم إليهم أفضل ما عنده من طعام، مع أنه لم يكن يعرفهم، وهذا يعني أن الكرم والجود وإقراء الضيف خلق فطري وطبع أصيل عند إبراهيم وعند جميع أنبياء الله ورسله.

ولما رأى أيديهم لا تمتد إلى العجل الحنيذ الذي قدمه إليهم، أو جس منهم خيفة، فما لبثوا أن عرفوه بأنفسهم وبالمهمّة التي كلفهم رب العزة بها، وأخذ عليه السلام يجادلهم في قوم لوط، ولا غرابة في هذا، فلقد كان إبراهيم حليماً أوهاماً منيباً، فقد كان يرجو لقوم لوط غير هذا المصير، كما كان يخشى على لوط أن يناله نصيب من هذا العذاب.

وقطع ملائكة الرحمن طريق المجادلة على إبراهيم عندما أخبروه بأن أمر الله قد جاء في أهل هذه القرية، ولا راد لقضائه وقدره، بل وإبراهيم عليه السلام أول من يعلم بأن أمر الله إذا جاء لا يتقدم أو يتأخر لحظة واحدة.

وفي هذه الزيارة المباركة بشّر الملائكة خليل الرحمن بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، كما بشروه بأن لوطاً لن يحل به أذى أو مكروه إلا زوجته التي خانتها وكانت تنقل أسرارهم لقومه... ومن شاء مزيداً من المعلومات عن هذه الزيارة الكريمة فليعد إلى سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا : لماذا أخبر الملائكة إبراهيم قبل لوط، مع أن مهمتهم تتعلق بسدوم وليست بالتيمن؟.

وجوابنا على هذا السؤال يتلخص في النقاط التالية:

١- إن لوطاً كان أول من آمن بدعوة إبراهيم في بابل، وشاركه في معظم محنه ومصائبه، وخرج معه مهاجراً في أرض الله الواسعة، وعندما أكرمه الله بالنبوة لم تنقطع صلته بإبراهيم لقوة الأواصر التي تربط بينهما، فكلاهما عضوان في حزب الله، وإن كان بينهما تفاوت في الرتبة، فإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء و خليل الرحمن، ومن أولي العزم، وهو فوق ذلك أقرب الأنبياء والرسل من ربه بعد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

ومن غير الممكن أن تعيش جماعة من المسلمين في عصر واحد، وفي أمكنة متقاربة، ولا تكون بينهم روابط منظمة، وأواصر قوية.

٢- إذا كان هناك من يقول: لم يكن لإبراهيم صلوات مع لوط بعد أن صار نبياً... فهل كان الملائكة يفضون بما أمرهم به ربهم لرجل غير معني بالأمر؟! وهل كان إبراهيم -وهو يجادل ملائكة الرحمن في أمر قوم لوط- فضولياً يتدخل بأمور لا تعنيه؟! لا يجوز لمسلم أن يعتقد مثل هذا الاعتقاد بالملائكة ولا بإبراهيم عليه السلام.

ومن كل ما ذكرناه نعلم أن ملائكة الرحمن جاءوا يخبرون إبراهيم بما سيحل بقرية [سدوم]، لأن من حقه أن يعلم بهذه المسألة قبل لوط، فهو قائده وأستاذه، كما

أنه قائد كل موحد لله في عصره، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يصل الملائكة قرية [سدوم] خلال لحظات ودون أن يمروا على [التيمن].

٣- بعد أن استخرجنا من الآيات القرآنية ما يفهم منه أن إبراهيم كان قائداً للوط، ولكل مسلم في عصره؛ لا بأس من الالتفات إلى أقوال المؤرخين المحققين والاستئناس بها. قال ابن كثير رحمه الله: (... ثم إن لوطاً عليه السلام نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل إلى أرض الغور).

والشاهد هنا أن نزوح لوط إلى أرض الغور كان بأمر من الخليل عليها السلام، والأمر لا يكون إلا من قائد جندي في صفه.

وقال ابن كثير في موضع آخر: (... ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام، فأسروه وأخذوا أمواله، واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، فاستنقذ لوطاً واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً، وهزمهم وسار في آثارهم حتى وصل إلى شمال دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة<sup>(١)</sup>).

ولقد حرصنا على تأكيد ارتباط لوط بإبراهيم عليها السلام، ليعلم المسلمون حيثما كانوا، وفي أي أرض أقاموا بأن المنتسبين إلى حزب الله تعالى جماعة واحدة، وهذا منهج واحد لا يجوز أن يتعدد- ولها قيادة واحدة ترعى

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: (١٩٨ - ١٩٩ / ١). تحقيق عبد الواحد.

شؤونها، وتنظم كافة أمورها، وتعدد القيادات والجماعات الإسلامية اليوم حالة مرضية يجب أن لا تستمر بحال من الأحوال... وكل مسلم مسؤول عن علاج هذه الظاهرة ليعود المسلمون كما كانوا خير أمة أخرجت للناس، وليكون الدين كله لله<sup>(١)</sup>.

### خامساً: هلاك قوم لوط

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۗ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۗ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۗ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۗ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۗ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ ۗ ﴿٨٢﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۗ ﴿٨٣﴾ [هود].

(١) اطلع أحد الأصدقاء على هذا الكتاب قبل نشره، ولم يوافقني في هذه المسألة لأنني لم أعتد على دليل -حسب رأيه-، ولم أسبق إلى مثل هذا القول. ومع تقديري لوجهة نظر الصديق، فأنا مطمئن لما ذهبت إليه في هذه المسألة لأنني: لم أحمل النص القرآني ما لا يحتمل، ولم أخالف في فهمي له نصاً شرعياً، ولا أصلاً من الأصول الإسلامية.

- ﴿سَيِّءَ بَرٍّ﴾: ساءه مجيئهم لأنه خاف عليهم من قومه، وقد أتوا - كما قال المفسرون - أرض سدوم في صور شُبَّانِ حَسَّانِ اختبأراً من الله لقوم لوط.

أخرج الطبري عن حذيفة، أنه قال: (لما جاءت الرسل لوطاً أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهد لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة. فانطلق بهم، فلما مشى ساعة التفت، فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناساً أحبث منهم! قال: فمضى معهم. ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم. فلما بصرت بهم عجزوا السوء امرأته، انطلقت فأنذرتهم)<sup>(١)</sup>.

- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي جاءوه يهرولون متهيجة أعصابهم، كأن سائقاً يسوقهم، وكان لوط عليه السلام قد حاول أن يكون أمرهم سرياً، ولكن عجزوا الشر كشفت هذا السر، وكان من ورائه هلاك القوم، ولوط لا يدري ماذا سيفعل الله بهم.

- ﴿وَمَنْ قَبُلْ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾: ومن أفضح هذه السيئات الكثيرة التي كانوا يعملونها: إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ومجاهرتهم بها في أنديتهم ﴿قَالَ يَفْقَهُمْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾

(١) تفسير الطبري: (١٥/٤٠٨).



راح لوط عليه السلام يمانع قومه ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه  
وُولُوجَه، ولما عجز عن دفعهم وخشي من الإذلال وفضيحتته في ضيفه قال لهم:  
﴿ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ .

وزعم بعضهم أن لوطاً عليه السلام عرض على قومه الفساق المجرمين أن  
يستمتعوا ببنااته كما يشاؤون، ومثل هذا الزعم لا يسنده دليل بل ويخالف عقيدة  
أهل السنة والجماعة في أنبياء الله ورسله، ومعاذ الله أن يقع هذا الأمر من رجل  
صالح فضلاً عن نبي مرسل. ولقد كانت الدعوة إلى نبذ اللواط أهم شيء في  
رسالة لوط عليه السلام، فكيف يدعو قومه بعد ذلك إلى الزنا ببنااته؟!

بل وكيف يجوز لمسلم أن يعتقد أن لوطاً عليه السلام دعا قومه إلى الزنا ببنااته ثم  
قال: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ، كيف يجتمع الزنا مع الطهارة مع أن غسل  
الدم بالبول ليس من الطهارة في شيء؟!

لا يصح هذا الاعتقاد بلوط عليه السلام، وإن كان يعتقد أنهم لا يجيبونه إلى  
هذا الفعل، بل الذنب في هذه الحال أكبر لأنه أمر بالمنكر.

والدعوة إلى الزنا تتعارض مع قوله تعالى ﴿ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ كما تتعارض مع قوله  
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ ، فإن الزنا ليس من التقوى بل هو هدم  
لها، وإذا كان الاعتقاد بأن لوطاً دعا قومه إلى الزنا ببنااته مخالفاً لعقيدة أهل السنة  
والجماعة، وليس فيه دليل يعتد به، بل ويتعارض مع تنمة الآية في دعوته إلى الطهارة

والتقوى... إذا كان الأمر كذلك فلا بأس من ذكر بعض ما قاله المفسرون في تأويل هذه الآية:

- كان رؤساؤهم قد خطبوا بناته لصلبه فلم يجبهن، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه بالموافقة على تزويجهم. قاله ابن عباس.

- عرض عليهم بنات القرية وهن أزواجهن، لأن كل نبي أرسل إلى قوم فأولادهم أبناؤه ونساؤهم بناته. ولعل هذا القول هو أضعف الأقوال. قاله مجاهد وسعيد بن جبير.

- لا يعقل البتة أن يكون كل واحد من أهل القرية -الذين جاؤوا إليه يزفون- يأمل أن ينال حاجته من الملائكة، والذي يذكره المفسرون أنه كان لأهل القرية سيّدان مُطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه.

- ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ (٧٩) : إنك لتعلم يا لوط أن حاجتنا في غير بناتك، وأن الذي نريد هو ما تنهانا عنه.

- ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال أبو جعفر: (يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه، حين أبوا إلا المضي لما قد جاؤوا له من طلب الفاحشة، وأيس من أن يستجيبوا له إلى شيء مما عرض عليهم: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ﴾ ، بأنصار تنصرني عليكم، وأعوان تعينني) ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ، يقول أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم، حللت بينكم وبين ما جئتم تريدونه مني في

أضْيَافِي، وحذف جواب [لو] لدلالة الكلام عليه، وأن معناه مفهوم<sup>(١)</sup>

وبعد أن بلغ الضيق بلوط مبلغه، ولم يجد بين قومه رجلاً واحداً رشيداً، بل كانوا جميعاً سفهاء كفرة.. وبعد أن أضناه التعب في يوم شديد شره، عظيم بلاؤه نظر إلى قومه وقال: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾، أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»

وقال الحافظ بن حجر:

(ويقال إن قوم لوط لم يكن فيهم أحد يجتمع معه في نسبه لأنهم من سدوم وهي من الشام وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر معه لوط فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم فقال: لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدفعوا عن ضيفاني. ولهذا جاء في بعض طرق هذا الحديث كما أخرجه أحمد من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال لوط: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال: فإنه كان يأوي إلى ركن

(١) تفسير الطبري: (٤١٨/١٥) دار المعارف في القاهرة، واعتمدت كذلك في شرح الآيات على تفسير القرآن الحكيم - المنار - لمحمد رشيد رضا: (١٣٤/١٢) دار المعرفة، وتفسير القرطبي: (٧٦/١٠) دار الكتاب العربي .

شديد ولكنه عنى عشيرته فما بعث الله نبياً إلا في ذروة من قومه»<sup>(١)</sup>.

- ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾: هوّن عليك الأمر يا لوط، فإنهم لن يصلوا إليك وإلى ضيفك بمكروه، فقد جاء أمر الله... وعلم لوط عليه السلام أنه في حضرة رسل الله، وأن ركنه لشديد، فاطمأنت نفسه وذهب عنه القلق، وقام جبريل عليه السلام - كما ذكر المفسرون - فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحيه فطمست أعينهم<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القمر].

- ويبدو أن لوطاً سأل الملائكة استعجال العذاب فأجابوه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ بلى إنه قريب ووعده الله حق لا ريب فيه، وكل شيء عنده بمقدار، ولن يتأخر موعد هلاكهم أو يتقدم لحظة واحدة، وقد شاء الله أن يكون عند شروق الشمس.

قال تعالى ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر].

- خرج لوط عليه السلام من القرية الظالم أهلها ومعه ابنتاه، أما زوجه فكانت

(١) فتح الباري بشرح البخاري: (٢٢٦/٧) مطبعة الباي الحلبي.

(٢) قصص الأنبياء، ابن كثير: (٢٦٦/١).

من الهالكين. قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات]

خرج لوط مع ابنتيه في جنح الليل، ولم يلتفتوا أو يندموا على ما حلَّ بقومهم. قال تعالى: ﴿ ... وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ ۗ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ [هود: ٨١]، ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: (١)].

وخلال ثوانٍ معدودات جاءت الصيحة، وسقطت البلدة، وجعل الله عاليها سافلها، وأرسل جلّ وعلا مطراً من حجارة صلبة، فأهلك القوم كلهم جزاءً وفاقاً، وجعل الله مكان تلك البلدة بحرة منتنة لا يتتفع بمائها، ولا بها حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها... وفي ذلك آية على قدرة الله وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه. قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت]، ﴿ ... وَمَا هِيَ مِنْ

(١) معنى سجيل: الشديد الصلب القوي، ومعنى منضود: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء، ومعنى مسومة: معلّمة عند الله .

الظالمين ببعيد ﴿٨٣﴾ [هود].

إن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا، فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع الله بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذيبهم لوطاً عليه الصلاة والسلام. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله (١):

﴿ وَإِنَّكُمْ لَمُنُورُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ [الصفات].

وستبقى بحيرة قوم لوط وآثار ديارهم عبرة للظالمين حيثما كانوا، وإن من أشنع أنواع الحمق أن يغفل المشركون المتجبرون في الأرض عن قدرة الله وشدة بطشه، ويركنوا إلى حولهم وقوتهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله جلّت قدرته الذي أهلك قوم لوط بثوان معدودات قادر على إهلاكهم وتمزيق ملكهم مهما قويت شوكتهم وكثر عددهم وتزايد بطشهم. قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ [محمد].

أجل إن للكافرين أمثالها، وفي كل يوم تظهر لنا أدلة جديدة تؤكد لنا أن كيد الشيطان ضعيف، والطيبون من المسلمين الذين يغفلون عن سنن الله في خلقه يخسرون كثيراً، وربما قادتهم هذه الخسارة إلى فتنة والعياذ بالله سبحانه وتعالى .

(١) أضواء البيان: (٣/ ٣٥).

## المبحث السادس

### إسماعيل عليه السلام

\* أولاً: ولادة إسماعيل.

\* ثانياً: رواية ابن عباس.

\* ثالثاً: بناء البيت.

## أولاً: ولادة إسماعيل

كانت سارة عقيماً لا تلد، وبعد أن اشتعل رأسها شيباً، وبلغت من الكبر عتياً، نظرت إلى زوجها الوفي بعين العطف والشفقة، فساءها ما يلقاه من عنت في إدارة أرضه وأنعامه، فوهبته خادمتها هاجر، وأشارت عليه أن يدخل بها، لعل الله يرزقه منها ولداً يرث عن أبيه الدعوة إلى الله والنبوة، ويساعد على إدارة أملاكه والإشراف على خدمته.

ودخل الخليل بهاجر، فأكرمه الله منها بإسماعيل، ولكن فرحة إبراهيم بولده لم تطل، لأن الغيرة لم تلبث أن دبّت في قلب سارة، وأصبحت لا تطيق رؤية الغلام وأمه، فطلبت من زوجها أن يذهب بهاجر وابنها إلى مكان بعيد حتى لا تسمع صوتهما.

ولأمر يريده الله استجاب إبراهيم عليه السلام لرغبة زوجته سارة التي آمنت بدعوته، وكانت من أوائل الذين استجابوا له في أرض بابل، وشاركته آلامه وآماله، وهاجرت معه في رحلة شاقة، ونالها ما نالها من الأذى فصبرت، وصانت عرضها وأصبحت رضي الله عنها جزءاً لا يتجزأ من حياة خليل الرحمن.

وسوف نعرض فيما يلي رحلة إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل وزوجه هاجر منذ خرج بهما من بلاد الشام وإلى أن بنى الوالد وابنه بيت الله الحرام. وقد وجدت أن رواية ابن عباس التي أخرجها البخاري في صحيحه هي أصح الروايات التي وردت في كتب الحديث والتاريخ وأشملها، فقامت بسرده هذه الرواية، واستعنت بتعليقات وشروح الحافظ ابن حجر العسقلاني، لأنه فارس هذا



الميدان، وكان لي تعليقات قليلة عند الحاجة.

## ثانياً: رواية ابن عباس

قال ابن عباس:

(أول ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنطَقَ<sup>(١)</sup> من قبل أم إسماعيل، اتَّخَذَتْ مِّنطَقًا لِّتَعْفِي أَثْرَهَا عَلَى سَارَةٍ، ثم جاء بها إبراهيم وبنها إسماعيل وهي تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ<sup>(٢)</sup> فَوْقَ الزَّمْزَمِ<sup>(٣)</sup> فِي أَعْلَى المَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهَا هُنَاكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمَ مَنطَلِقًا. فَتَبِعْتَهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنَيْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَمِثُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمْرُكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ،

(١) المِنطَقُ بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء هو ما يشد به الوسط، ووقع في رواية ابن جريج: النَّطُّقُ، بضم النون والطاء وهو جمع مَنطَق. وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم، فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطَقًا فشدت به وسطها وهربت وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة. ويقال إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة: حللي يمينك بأن تتقي أذنيها وتخفضيها. ووقع في رواية ابن علية عند الإسماعيلي: أول ما أحدث العرب جر الذبول عن أم إسماعيل، وذكر الحديث. عن فتح الباري (٧/٢٠٨).

(٢) الدوحة: الشجرة الكبيرة من أي شجر كان أو الجمع (دوح).

(٣) الزمزم: وهو البئر المعروف اليوم، ولم يكن المسجد حينئذ بُني، بل وما كانت مكة مسكونة.

قَالَتْ إِذْنٌ لَا يُضَيِّعُنَا<sup>(١)</sup> ثُمَّ رَجَعَتْ فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ النَّيْتِ<sup>(٢)</sup> حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتِ<sup>(٣)</sup> ثُمَّ دَعَا بِهِؤَلَاءِ

(١) كيف استجاب إبراهيم عليه السلام لرغبة زوجته [سارة]، وألقى بفلذة كبده وقرعة عينه إسماعيل في صحراء موحشة ليس فيها أنيس ولا معين؟! وكيف نجّم بين حلم إبراهيم ورقة قلبه وبين صلابة موقفه من ابنه إسماعيل وأمه هاجر؟! إن الجواب على هذين السؤالين واضح بين في السؤال هاجر وجواب إبراهيم عليه السلام: (الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم).

وإذن: فلقد أرادت [سارة] يذهب إبراهيم بهاجر وابنها إلى أبعد مكان حتى لا تسمع صوتهما، وأراد الله من إبراهيم أن يسكن ابنه إسماعيل في مكة المكرمة لأمر لا يعلمه إلا هو تعالت أسأؤه وصفاته... ونفذ الخليل أمر ربه، وترك وحيده الصغير في واد غير ذي زرع، ثم انطلق عائداً من حيث جاء، وجعل لا يلتفت إلى هاجر ولا يبيها خشية أن يلين قلبه ويكون من وراء هذه الليونة عدم تنفيذ أمر الله. وإذا كان مثل هذا الموقف غير مستغرب عن الخليل عليه السلام، فالعجيب قول هاجر: (إذن لا يضيعنا)!! امرأة في أرض مقفرة جرداء ليس لها بيت تأوي إليه، ولا قوم تستأنس بهم، ولا نبع ماء تشرب منه وتسقي طفلها، ولا مورد رزق تعتمد عليه!! عندما علمت أن هذه المرأة أن الله هو الذي أمر إبراهيم بهذا، اطمأنت نفسها، ولم تعد تخشى السباع وغيرها من الوحوش المفترسة لأنها أضعف وأجبن من أن تلحق ضرراً بمن تحرسه عناية الله. ما أحوج الدعاة والعلماء إلى الإيمان بالله كإيمان هاجر، وانقياد له كانقياد هاجر.

(٢) جاء في رواية إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير التي أخرجه البخاري في صحيحه: «حتى لما بلغوا كدء» وهو الموضع الذي دخل ﷺ مكة منه.

(٣) فهم بعضهم من قوله «استقبل بوجهه البيت» وقوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج] أن البيت قديم وأول من بناه آدم عليه السلام، وبعضهم قال أول من بناه إدريس ثم جرفه طوفان نوح... وليس في هذه الأقوال دليل صحيح يعتد به.

الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ - رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ<sup>(١)</sup> - حتى بلغ - يشكرون - وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَذَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ<sup>(٢)</sup>، فَاَنْطَلَقْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدْتُ الصَّافَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ بِلَيْهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُ الْوَادِي رَفَعْتُ طَرْفَ دِرْعِيهَا<sup>(٣)</sup> ثُمَّ سَعَتْ سَعِيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزْتُ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَيْتُ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرْتُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

= قال ابن كثير: (ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام. ومن تمسك بقوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدره المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم. وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك هذا البيت، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك. ولكن كل هذه الأخبار عن بني إسرائيل. وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتاج بها) اهـ. عن قصص الأنبياء لابن كثير (١/٢٢٦)، وقال نحو هذا القول صاحب أضواء البيان (٥/٦٤).

(١) الآية: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم].

(٢) يتلَبَّطُ: أي يتمرغ ويضرب بأطرافه الأرض، وفي رواية الكشمهيني «يتلمظ» وهي رواية معمر أيضاً، وفي رواية إبراهيم بن نافع «كأنه ينشغ للموت»، أي يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع.

(٣) درع المرأة: قميصها وهو مذكر. عن مختار الصحاح.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما<sup>(١)</sup>، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً قالت صه<sup>(٢)</sup> تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث<sup>(٣)</sup>، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه<sup>(٤)</sup> أو

(١) انظر إلى قول الرسول ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» أي تكريم لهاجر أكبر من أن يسعى عشرات بل مئات الألوف بل الملايين من الناس بين الصفا والمروة كل عام كما كانت تسعى رضي الله عنها!! وأية مشاركة شعورية ووحدة مصير أعظم من أن يهرع المسلمون من كل فج عميق ليعيشوا مع هاجر بقلوبهم وعواطفهم وحركاتهم. قال الأستاذ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: (وخلد الله في هذه الحركة الاضطرابية، التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصه فجعلها حركة اختيارية، يكلف بها أعظم العقلاء، وأعظم الفلاسفة والنبغاء، وأعظم الملوك والعظماء، في كل عصر وفي كل جيل، فلا يتم نسكهم إلا بسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب، وغاية كل مطيع، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا العالم، فهو يجمع بين العقل والعاطفة، وبين الحس والعقيدة، إنه يستعين بالعقل، ويستخدمه في مصالح حياته، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة، التي هي أعمق من العقل، إذ يعيش في عالم قد حُف بالشهوات، وملئ بالخارف والمظاهر، لكنه يمر بينهما، كالساعي بين الصفا والمروة، لا يعرج على شيء، ولا يتقيد بشيء، إنما غايته وهمه ما يستقبله، يعتبر حياته أشواطاً محدودة، يقطعها إطاعة لربه، واقتداء بسلفه، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به، حركة قيمتها وروحها ورسالتها [الحب] و[الإنقياد]. عن كتاب الأركان الأربعة ص(٢٣٧).

(٢) صه: كأنها خاطبت نفسها فقالت لها أسكتي.

(٣) أي أغثني، وفي رواية إبراهيم بن نافع وابن جريح: فقالت أغثني إن كان عندك خير.

(٤) بعقبه: أي بمؤخر رجله، وقوله «فبحث بعقبه أو قال بجناحه» شك من الراوي، وفي رواية إبراهيم

ابن نافع «فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض» وهي تعين أن ذلك كان بعقبه. عن فتح الباري.

قال<sup>(١)</sup> بجناحه، حتى ظَهَرَ الماء، فَجَعَلَتْ تَحْوِضَهُ<sup>(٢)</sup> وتقولُ بيديها هكذا، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تَرَكْتَ - أو قال - لو لم تَعْرِفِ من زمزم لكانت زمزمُ عيناً معيناً»<sup>(٣)</sup>، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضَّيعةَ<sup>(٤)</sup> فإن هذا بيتُ الله بيني<sup>(٥)</sup> هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله لا يُضَيِّعُ أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابِيَةِ تأتيه السُّيُولُ فتأخذُ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتَّى

(١) في رواية إبراهيم وابن جريح «فإذا جبريل» وفي حديث علي عند الطبري بإسناد حسن: «فناداها جبريل فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فيل من وكلكما؟ قالت: إلى الله تعالى قال: وكلكما إلى كافٍ».

(٢) «فجعلت تحوضه» واحد الأحواض، تصنع له بيديها في الأرض ما يشبه الحوض.

(٣) وقوله ﷺ «عينا معينا» أي ظاهراً جارية على وجه الأرض. وفي رواية ابن نافع «كان الماء ظاهراً». قال ابن الجوزي: (كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل عامل، فلمَّا خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر، فقضرت على ذلك فأعنى ذلك عن توجيه تذكير معين مع أن الموصوف وهو المعين مؤنث).

(٤) «لا تخافوا الضَّيعة»: أي الهلاك، وفي حديث أبي جهم «لا تخافي أن ينفد الماء»، وفي رواية علي بن الوازع عن أيوب عند الفاكهي: «لا تخافي على أهل هذا الوادي ظمأً فإنها عين يشرب بها ضيفان الله».

(٥) «بينى هذا الغلام» كذا فيه بحذف المفعول، وفي رواية الإسماعيلي «بينيه». وفي قوله: «فشربت وأرضعت» إشعار بأنها كانت تغتذي بهاء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب.

مرت بهم رُفْقَةٌ<sup>(١)</sup> من جُرْهُمَ<sup>(٢)</sup> أو أهل بيتٍ من جُرْهُمَ مُقبِلين من طريق كداءٍ، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً<sup>(٣)</sup> عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهْدُنَا بهذا الوادي وما فيه ماءً، فأرسلوا جرياً<sup>(٤)</sup> أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم لكن لا حق لكم في الماء قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى<sup>(٥)</sup> ذلك أم إسماعيل وهي تُحِبُّ الأَنْسَ فنزلوا فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل آيات منهم، وشبَّ الغلام وتعلم العربية<sup>(٦)</sup> منهم. وأنفسهم<sup>(٧)</sup> وأعجبهم حين شبَّ، فلما

(١) رفقة: هم الجماعة المختلطون سواء كانوا في سفر أم لا.

(٢) جرهم هو ابن قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، قال ابن إسحاق: وكان جرهم وأخوه قطوراً أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسن، وكان رئيس جرهم مضاض بن عمروورئيس قطوراً السמידع، ويطلق على الجميع جرهم. وفي رواية عطا بن السائب: وكانت جرهم يومئذ بوادٍ قريب من مكة، وقيل إن أصلهم من العمالق.

(٣) فرأوا طائراً عائفاً: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

(٤) فأرسلوا جرياً: أي رسولاً، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. قيل: سمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعاً في حوائجه، وفي رواية إبراهيم بن نافع: «فأرسلوا رسولاً».

(٥) فألفى إلفاء ذلك أم إسماعيل: وجد، صادف، والأنس ضد الوحشة.

(٦) «وتعلم العربية منهم»: فيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربياً، إلا أنه كان أفصح من نطق بالعربية.

(٧) أنفسهم: بفتح الفاء والسين من النفاسة أي كثرت رغبتهم فيه. ووقع عند الإسماعيلي [وأنسهم]

[وأنسهم] بغير فاء من الأَنْس.

فلما أدرك زوجته امرأةً منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته<sup>(١)</sup> فلم يجد إسماعيل. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا<sup>(٢)</sup>، ثم سألتها عن عيشتهم<sup>(٣)</sup> وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه<sup>(٤)</sup>، قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يُغيّر عتبةً بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا، فأخبرته أنّا في جهدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غيّر عتبةً بابك<sup>(٥)</sup>. قال: ذاك أبي، وقد

(١) يطالع تركته: أي يتفقد حال ما تركه هناك، وكان موت هاجر خلال زواج إسماعيل... وهكذا يسر الله هاجر وابنها الماء والأنس، ثم طوع لهم قبيلة جرهم حيث قبلوا شرط أن لا يكون لهم حق في ماء زمزم مع أن معظم معارك العرب كانت من أجل الماء ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...﴾ [الطلاق: ٢-٣]

(٢) «يبتغي لنا»: أي يطلب لنا الرزق، وفي رواية ابن جريح: «وكان عيش إسماعيل الصيد يخرج فيتصيد». وأخرج البخاري في صحيحه عن سلمة بن الأكوع ؓ قال: مرّ النبي ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون، فقال رسول ﷺ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً...».

(٣) زاد في رواية عطاء بن سائد: وقال: «هل عندك ضيافة».

(٤) في حديث أبي جهم «فقال لها: هل من منزل؟ قالت: لاها الله إذن، قال: فكيف عيشتكم؟ قال: فذكرت جهداً، فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فلا تحلب إلا المصراً أي الشَّحْب، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ».

(٥) تغيير عتبة الباب كناية من كنايات الطلاق، وذلك واضح من قول إسماعيل «ذاك أبي، وقد=

وقد أمرني أن أفارقك، الحقني بأهلك فَطَلَّقَهَا. وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْهُمْ فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ. فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَتَّبِعُنِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرِبْتُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ <sup>(١)</sup> بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ.

قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذٍ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قَالَ: فَهَمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا <sup>(٢)</sup> أَحَدٌ بَغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِّيهِ يَثْبُتُ عَتَبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلَ

=أمرني أن أفارقك».

قلت: والسبب الذي دعا إبراهيم عليه السلام إلى أمر ابنه بطلاق زوجته الأولى هو سخطها من قضاء الله وقدره الذي عبرت عنه بقولها: «نحن بشر»، والمسلم كل أمره له خير ما دام منقاداً لأمر الله جلّ وعلا، وقد يكون الشر في الغنى، ورسول الله ﷺ مات ودرعه مرهون عند يهودي، وكان يمر عليه الهلال والمهلالان فلا يوقد في بيته ناراً... ثمة سبب آخر نوجزه في سوء استقبال زوجة إسماعيل للضيوف، ومن أخص أخلاق إبراهيم الكرم وإقراء الضيف. والله أعلم.

(١) وفي رواية إبراهيم بن نافع «اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم»... وجاء أيضاً في رواية إبراهيم بن نافع «بركة بدعوة إبراهيم» وفيه حذف تقديره في طعام أهل مكة وشرابهم بركة.

(٢) خلوت بالشيء واختليت إذا لم أخلط به غيره. وفي حديث أبي جهم «ليس أحد يخلو على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه». وزاد في حديثه -أي أبو جهم- وكذا في حديث عطاء بن السائب نحوه: فقالت: «انزل رحمك الله فاطعم واشرب، قال: إني لا أستطيع النزول، قالت: فإني أراك أشعث، أفلا أغسل رأسك وأدهنته؟ قال: بلى... إلى آخر الحديث».



قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَنَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَنْتَ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتَهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتَهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ: فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ<sup>(١)</sup> قَالَ: ذَلِكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ<sup>(٢)</sup> ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دُوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ<sup>(٣)</sup>، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ<sup>(٤)</sup>.

قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ<sup>(٥)</sup> جَاءَ

(١) زاد في حديث أبي جهم «ولقد كنت علي كريمة وقد إزددت علي كرامه فولدت لإسماعيل عشرة ذكور».

(٢) في قوله: «ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك» دليل على أن إبراهيم عليه السلام، كان يتردد على مكة ويزور ابنه بين كل فترة وأخرى، وكان إسماعيل يعرف هيئة أبيه مع أنه كان طفلاً عندما تركه الخليل في مكة.

(٣) النَّبْلُ: السهم قبل أن يركب فيه نصل وريشة وهو السهم العربي.

(٤) «فصنعنا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد» يعني من الاعتناق والمصافحة ونحو ذلك.

(٥) جاء في رواية أبي جهم: «وأدخل الحجر في البيت وكان قبل ذلك زرباً لغنم إسماعيل، وإنما بناه=

بهذا الحجر<sup>(١)</sup> فَوَضَعَهُ لَهُ، فقام عَلَيْهِ، وهو يَبْنِي، وإسماعيل يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - قَالَ: فَجَعَلَا بَيْنَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ - رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). انتهت رواية البخاري<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: بناء البيت

تبين لنا من حديث ابن عباس -الذي أخرجه البخاري في صحيحه- أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمر إبراهيم عليه السلام بإسكان بعض من ذريته بواد غير ذي زرع -مكة المكرمة- ليقوموا الصلاة، وليعبدوا الله في أرض مباركة طيبة تفتقر إلى دعاة يغرسون فيها بذور الإيمان.

ثم جاء أمر الله ببناء البيت ورفع قواعده، وسارع إسماعيل عليه السلام بتلبية أمر الله.

=بحجارة بعضها على بعض، ولم يجعل له سقفاً وجعل له باباً، وحفر له بئراً عند بابه خزانة للبيت يلقي فيها ما يهدى للبيت».

(١) جاء بهذا الحجر يعني المقام، وفي رواية إبراهيم بن نافع: «حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام»، زاد في حديث عثمان: «ونزل عليه الركن والمقام، فكان إبراهيم يقوم على المقام يبنى عليه ويرفع له إسماعيل، فلما بلغ الموضع الذي فيه الركن وضعه يومئذ موضعه وأخذ المقام فجعله لاصقاً بالبيت، فلما فرغ إبراهيم من بناء الكعبة حاء جبريل فأراه المناسك كلها، ثم قام إبراهيم على المقام فقال: يا أيها الناس أجيئوا بركم فوق إبراهيم وإسماعيل تلك المواقف».

(٢) فتح الباري: (٧/ ٢٠٨-٢١٥)، مطبعة الباي الحلبي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيْنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة]

وبعد أن تم بناء البيت نودي إبراهيم: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكَّدُ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقْتَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج]

-وتقبل الله من خليله عليه السلام، فجعل البيت الذي بناه قبلة للموحدين، ومهوى أفئدة المؤمنين، وملاذ الخائفين... وضمن الله جل وعلا لسكان البيت الرزق والأمن. قال تعالى: ﴿...أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قریش].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة:

«لا هجرة لكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا». وقال يوم الفتح فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من النهار فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوْكُهُ، ولا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، ولا يَلْتَقِطُ إلا من عَرَفَهَا، ولا يُخْتَلَى خَلَالَهَا» فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لَقَيْنِهِمْ ولبيوتهم، فقال: «إلا الأذخر»<sup>(١)</sup>.

- وتقبل الله من نبيه ورسوله إبراهيم عليه السلام، فجعل ذريته أمة مسلمة، وبعث في الأمة العربية رسولا منهم، يعلمهم الكتاب والحكمة، ويظهرهم من الشرك وسائر الأرجاس، وكان محمد ﷺ هو هذا النبي الذي ختم الله به أنبياءه ورسله، واختاره الله من ولد إسماعيل عليه السلام. قال ﷺ:

«أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت»<sup>(٢)</sup>

- وتقبل الله من إبراهيم عليه السلام، فأراه المناسك كلها، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج، فاستجاب الناس لهذا النداء، وأخذوا من كل حذب ينسلون إلى بيت الله الحرام ركباناً ومشاةً، وكان الحج قبل الإسلام فكان العرب يحجون إلى بيت الله

(١) رواه مسلم في صحيحه باب تحريم مكة: (١٢٣/٩)، صحيح مسلم بشرح النووي: العضد: القطع. والخلا: الرطب من الكلاء كالعشب والحشيش والهشيم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: (٢٦٢/٥) طبعة الحلبي. وأخرج نحوه عن أبي أمامة، [عن تفسير

القاسمي: (٢/٢٥٨)].

الحرام، وأصبح الحج ركناً من أركان الإسلام الخمسة. قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان»<sup>(١)</sup>.

وها نحن نرى المسلمين يتواردون إلى مكة من كل فج عميق، وينطلقون في حشد لم يعرف ولن يعرف التاريخ له مثيلاً في العدد والنظام ووحدة المشاعر والهدف وجميعهم يرددون بصوت واحد: (ليكن اللهم ليكن، ليكن لا شريك لك ليكن، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

مئات الألوف من الناس يقفون يوم التاسع من ذي الحجة في كل عام في أرض عرفات... يقفون وقد خلعوا ملابسهم إلا لباس الإحرام، وأقبلوا على الله داعين مليونين، وتتحرك هذه الجماهير المحتشدة كلها من عرفة قبل غروب الشمس، كما تتحرك من مزدلفة بعد صلاة الفجر، وكل شيء في هذه الشعائر يذكرها بإبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام، فعندما يطوفون في البيت العتيق يتذكرون من بناه وكيف كان إبراهيم وإسماعيل يدوران حول البيت ويرددان:

(ربنا تقبل منا إنّك أنت السميع العليم).

وعندما يسعون بين الصفا والمروة يتذكرون سعي هاجر الحزينة، وهي تبحث عن يغيثها وينقذ ابنها من الهلاك.

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

وعندما يشربون من زمزم يتذكرون كيف فجر الله هذا الماء ومنَّ به على عبده ونبيه إسماعيل عليه السلام.

وعند رمي جمرات العقبة يتذكرون كيف اعترض الشيطان إبراهيم عليه السلام ليفتنه بمعصية، أو يدخل على حجه شبهة، وكيف رماه الخليل بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله.

وعند ذبح الهدي يتذكرون إسماعيل الذبيح، وكيف فداه الله بكبشٍ عظيم. إنَّ الحج بمناسكه وأركانه يتجلى فيه منتهى الانقياد لله، وغاية الاستسلام والإذعان لله، وفيه يجدد المسلمون العهد من أجل أن يعودوا خير أمة أخرجت للناس. قال الأستاذ أبو الحسن الندوي:

(والحج بمناسكه وأركانه، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتنال للأمر المجرد، وسعي وراء الأمر، وتلبية إجابة الطلب، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة يقيم ويرحل ويمكث وينتقل ويخيم ويقلع، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر، ليست له إرادة ولا حكم، وليس له اختيار ولا حرية، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات، من غير أن يقف بالمزدلفة، ويقف بعرفات، ويظل سحابة النهار مشغلاً بالدعاء والعبادة، وتحذثه نفسه بالمكث بعد الغروب، ليستجم ويستريح، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفه لأنه عبد لربه، ليس عبداً لصلاته وعاداته، فلا يصلحها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء، وتطيب

له الإقامة في المزدلفة، فيريد أن يطيلها، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى منى. وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيمين، نزول وارتحال، ومكث وانتقال، وعقد وحل، ونقض وإبرام، ووصل وهجر، ولا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى<sup>(١)</sup>.

(١) الأركان الأربعة، أبو الحسن علي الحسن الندوي. ص (٢٣٠ و ٢٣١)، دار الفتح بيروت.

## المبحث السابع

### قصة الذبيح

\* أولاً: قصة الذبيح .

\* ثانياً: من هو الذبيح :

\* ثالثاً: الرأي الآخر .



## أولاً: قصة الذبيح

رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه، الذي هو بكره ووحيدته، ورؤيا الأنبياء وحي<sup>(١)</sup> فسارع الوالد إلى إخبار ابنه إسماعيل<sup>(٢)</sup> عليه السلام بأمر ربه، ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده، فما كان من الولد البار بأبيه، المستسلم لأمر ربه إلا أن قال: ﴿... قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَحِدِّي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

﴿١٠٢﴾ [الصافات]

- ﴿يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾: إنَّ القلم ليقف حيران أمام هذه العبارة...  
ماذا يكتب في تصويرها وبلاغتها وتقريبها من نفوس القارئ!!

- ﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ هذا هو الإسلام: انقياد، واستسلام، وطاعة، وامتنال،

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء وحي»، وأخرجه البخاري وغيره من قول عبيد بن عمير، عن فتح القدير: (٤/٤٠٦).

ومن الأدلة التي استدلت بها العلماء على أن رؤيا الأنبياء وحي قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿يَبْنِيْ لِىْ اِرْبًا فِى الْمَنَامِ اِنَّىْ اَذْبَحُكَ﴾ ﴿١٠٢﴾ [الصافات].

ورد إسماعيل: ﴿يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما رآه في المنام كان أمراً من الله سبحانه وتعالى. وقول عائشة أم المؤمنين في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح... إلى آخر الحديث» فتح الباري: (١/٢٥) والروض الأنف: (٢/١٩٣).

(٢) الذي نراه أن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق، وسنسط أدلتنا فيما بعد.

وتنفيذ... ولكن ليس للملوك والجبابة بل لله وحده ولرسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

- ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ يا أبت الحليم الأواه المنيب، إن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا الفانية، وسوف لا تراني ممتعضاً ولا متردداً، بل سأكون صابراً محتسب الأجر عند الله.

- ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فالله جلت قدرته اختارنا لتكون حملة رسالة، ونجوم هدى في أرضه وشموساً تبديد كل ظلام، ولن نتردد في بذل دماننا وأموالنا وكل ما نملك في سبيل الله.

- إن كثيراً من الناس يستشهدون في ساحات الوغى، ويضحون في سبيل الله بالمال والولد، ولكن عمل إبراهيم وإسماعيل لا يشبهه أية تضحية أو استشهاد... انظر للوالد الحنون يقول لابنه بكل رقة وشفقة: ﴿يَبْنَئِ إِيَّيَّ ارْأَى فِي الْمَنَامِ إِيَّيَّ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ويرد الولد بكل حب وتقدير ﴿يَأْتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ولو قال لابنه: اذهب للجهاد في سبيل الله وأرجو أن يشرفني الله بقتلك... لو قال مثل هذا القول لهان الأمر، لأن أعداء الله هم الذين سيقتلونه، أما هنا فالوالد المؤمن الداعية هو الذي سيقتل ابنه المؤمن الداعية... سيقتله ذبحاً وهو الذي لم

يقترب ذنباً أو يفعل ما يوجب إقامة الحد عليه!!.

ولقد كانت حياة إسماعيل كلها طاعة وامثال لكل ما يأمر به أبوه، وكان يعلم أن طاعته طاعة لله تعالى، فعندما أخبر زوجته أن تقول له: غَيَّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، سارع إلى طلاقها، ولم يمنعه من تنفيذ الأمر حبه لها، أو حرصه على مصلحة أولادها، وعندما أمره الخليل أن يساعده في بناء الكعبة سارع أيضاً إلى مساعدة أبيه دون كلل أو ملل.

ولن ننسى وكيف ننسى أن إسماعيل نشأ وترعرع في بيت امرأة كانت ثققتها بالله واستسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف... وقد رأينا فيما مضى أنها عندما علمت أن الله أمر إبراهيم بتركها مع ابنها في مكان ليس فيه مأوى ولا أمن، بل وليس فيه طعام ولا ماء كان ردّها: «إِذْنٌ لَا يُضِيعُنَا»

إذن هو إسماعيل الذي قال لأبيه: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾، وينتقل إبراهيم الخليل مع ابنه من الحوار والموافقة النظرية إلى التنفيذ والتطبيق العملي.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات: ١٠٣]. أسلما - أي استسلم الوالد وابنه-، فلم يسأل إبراهيم ربه عن سر هذا الأمر العجيب، وكيف يذبح بكره ووحيدته الذي انتظره طويلاً، وجاءه بعد أن اشتعل رأسه شيباً، وبلغ من الكبر عتياً، ثم يذبحه بعد أن أصبح شاباً وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل.

ولم يقل إسماعيل لأبيه: كيف ولماذا تذبحني، وأنا الذي لم أعصك طوال حياتي، أما يكفيك أنك ألقيتني في واد ليس به ماء ولا زرع وأنا طفل في حضن أمي وتركتنا

طعاماً للوحوش!!..

معاذ الله أن يقول شيئاً من هذا لأنه مؤمن، ويعلم أن أباه ينفذ أوامر الله في كل عمل يفعله، ومن أخص صفات المسلم الرضا بقضاء الله وقدره.

- بدأ إبراهيم تنفيذ أمر الله، فصرع ابنه، وأوثق قيده -مع أنه لم يتحرك طواعية من نفسه-، وأمسك السكين ثم وضعها على حلقه وأمرها فوق عنقه...

وفي هذه اللحظات سمع الخليل نداء ربه: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَّاكَ بَجَرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات]

فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض كبير فذبحه، وافتدى به ابنه وفلذة كبده، وصارت الأضحية سنة من سنن الإسلام، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الحرام.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. يقول ابن القيم رحمه الله: (... وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غيرة الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح

مصلحة، إذ كانت المصلحة هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر وفدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب<sup>(١)</sup> اهـ.

﴿... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْأَمِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصفافات]

أي يصرف الله عمّن أطاعه المكاره والشدائد، ويجعل لهم من أمره فرجاً ومخرجاً.

قال تعالى: ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٤﴾﴾

[الطلاق]

وجزاء الله لعباده المحسنين يكون بعد ابتلائه لهم، وبعد صبرهم على هذا الابتلاء، وثباتهم على الحق... وبعد هذه الابتلاءات المتتالية لإبراهيم وولده جعل الله في ذريتهما النبوة والحكمة، وأثنى الله على إسماعيل ووصفه بصدق الوعد.

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

لقد كان عليه السلام ﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾، أرسله الله إلى أهل تلك الناحية من

قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن، وأكرمه الله تعالى فجعل من نسله خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: (١/ ٧٤).

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ... ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

### ثانياً: من هو الذبيح؟

اختلف أهل العلم من سلف هذه الأمة في الذبيح: هل هو إسحاق، أم إسماعيل؟! وبعد أن قرأت وتأملت أدلة الطرفين ارتاحت نفسي إلى أن الذبيح إسماعيل، وسوف أستعرض فيما يلي طائفة من الأدلة الذين قالوا بهذا الرأي:

#### ١- محمد بن كعب القرظي<sup>(١)</sup>:

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك

(١) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي من حلفاء الأوس، وكان أبوه من سبي قريظة سكن الكوفة ثم المدينة. روى عن عدد من الصحابة. قال ابن سعد: كان ثقة عالماً كثير الحديث ورعاً. وقال العجلي: مدني تابعي ثقة رجل صالح عالم بالقرآن. وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً، وكان يقص في المسجد، فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ثمان عشرة وأرخه أبو بكر بن أبي شيبة وغير واحد سنة ثمان ومائة. وقال يعقوب بن شيبة وغيره: مات سنة سبع عشرة وهو ابن ثمان وسبعين سنة. عن تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني.

أن الله تعالى، حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات]. ويقول الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود] يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

قال ابن إسحاق: عن بريدة بن سفيان الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر: إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك. قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز. فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال: إسماعيل، والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم. والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل<sup>(١)</sup>.

٢- السيوطي:

قال السيوطي في [الإكليل]: ( واستدل بقوله تعالى بعد ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾

(١) تفسير ابن كثير: (١٨/٤)، مطبعة البابي الحلبي.

من قال إن الذبيح إسماعيل، وهو الذي رجحه جماعة. واحتجوا بأدلة، منها: وصفه بالحلم وذكر البشارة بإسحاق بعده، والبشارة بيعقوب من وراء إسحاق، وغير ذلك. وهي أمور ظنية لا قطعية. ثم قال: وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع أو يقرب منه - ولم أر من سبقني إلى استنباطه - وهو أن البشارة وقعت مرتين. مرة في قوله: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرِي فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدَّبُكَ ... (١٠٢) [الصفات] فهذه الآية قاطعة في إن هذا المبشر به هو الذبيح. ومرة في قوله: ﴿ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٧١) [هود] الآية. فقد صرح فيها أن المبشر به إسحاق، ولم يكن بسؤال من إبراهيم، بل قالت امرأته إنها عجوز، وإنه شيخ. وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في آخر أمره. إما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام، حين كان سنه لا يستغرب فيه الولد، ولذلك سأله. فعلمنا بذلك أنها بشارتان في وقتين، بغلامين. أحدهما بغير سؤال، وهو إسحاق صريحاً. والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح<sup>(١)</sup>.

### ٣- محمد الأمين الشنقيطي:

للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله كلام مهم في هذه المسألة، جمع فيه

(١) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين القاسمي: (١٤/٥٠٥٢-٥٠٥٧).



خلاصة أقوال من سبقه من العلماء المحققين: كابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير.  
قال رحمه الله:

(اعلم وفقني الله وإياك أن القرآن العظيم قد دل في موضعين، على أن الذبيح هو إسماعيل، لا إسحاق، أحدهما: في الصفات، والثاني: في هود.

أما دلالة آيات الصفات على ذلك فهي واضحة جداً من سياق الآيات،

وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيه إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَاهِدِينَ ۝١١٩﴾

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٢٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٢١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ

يَبْنِيٓ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ

سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٢٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٢٣﴾ وَتَدِينَهُ أَن

يَتَأَبْرَهُيمُ ۝١٢٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٢٥﴾ [الصفات]، قال

بعد ذلك عاطفاً على البشارة الأولى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٢٦﴾

[الصفات].

فدل ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشر به في الثانية، لأنه لا

يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق ثم بعد انتهاء قصة

ذبحه يقول أيضاً: وبشرناه بإسحاق فهو تكرار لا فائدة فيه ينزه عنه كلام

الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أولاً الذي فدى بالذبح العظيم،

وهو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نص الله عليها مستقلة بعد ذلك.

ومعلوم في اللغة العربية، أن العطف يقتضي المغايرة، فأية الصفات هذه دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقيناً عبر عنه في كلها بالعلم لا بالحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا بالعلم.

وأما الموضع الثاني الدال على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة هود فهو قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٧١) [هود]، لأن رسل الله من الملائكة بشَّرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب. فهذه الآية أيضاً دليل واضح على ما ذكرنا، فلا ينبغي للمصنف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الآية القرآنية على ذلك. والعلم عند الله تعالى (١).

#### ٤- ابن القيم:

وكان ابن القيم رحمه الله قد قال كلاماً شبيهاً بالكلام الذي أورده الشنقيطي في تفسيره -أضواء البيان- وفيه الزيادة التالية:

( فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان [يعقوب] مجروراً<sup>(٢)</sup> عطفاً على

(١) أضواء البيان: (٦/٦٩١).

(٢) مجروراً] هكذا وردت في الأصل والصواب [مجروراً].

إسحاق، فكانت القراءة ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنع الرفع أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارة قول مخصوص، وهي أول خبر سار صادق. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلاناً بقدم أخيه وثقله<sup>(١)</sup> في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا مما لا يستريب ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجر أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد ومن بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجر، فلا يفصل بيه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجر والمجرور<sup>(٢)</sup>.

#### ٥- قرائن أخرى:

هناك قرائن تشير إلى أن الذبيح إسماعيل، وليس إسحاق، نذكر منها ما يلي:

- وصف الله (إسماعيل بالصبر) دون إسحاق. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ

وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء]، كما وصفه تعالى بصدق الوعد:

﴿وَأَذْكُرِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم].

(١) ثقله: الثقل بفتح التين: متاع المسافر وحشمه.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: (١/٧٢)، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

ووصفه بالصبر يعني صبره على الذبح، كما أن وصفه بصدق الوعد يعني قوله

لأبيه: ﴿... أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات].

- كان إسماعيل أكبر من إسحاق قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى

الْكَبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وإبراهيم عليه السلام أمره الله بذبح وحيدته وبكره، فيكون إسماعيل.

- قلنا فيما مضى أن مكان الذبح وزمانه اتصل بالبيت الحرام الذي اشترك في

بنائه إبراهيم وإسماعيل، بينما كان إسحاق في بلاد الشام.

- ابتعث الله إسماعيل لأمة أراد الله لها أن تحافظ على أهم ما امتاز به إسماعيل

ومن بعده محمد صلى الله عليهما وسلم ألا وهو الانصياع الكامل والانقياد التام لأمر الله سبحانه وتعالى.

### ثالثاً: الرأي الآخر:

والذين قالوا بأن الذبيح إسحاق اعتمدوا على روايات منكرة لم يصح سندها

ولا متنها.

قال ابن كثير رحمه الله: (وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف

وغيرهم، وإنما أخذوه -والله أعلم- من كعب الأخبار، أو من صحف أهل

الكتاب، وليس في ذلك صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب

العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على

أنه إسماعيل<sup>(١)</sup>.

وقال في موضع آخر: (لما أسلم كعب الأخبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة -والله أعلم- حاجة إلى حرف واحد مما عنده)<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن القيم رحمه الله:

(وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره، وفي لفظ: وحيد، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده<sup>(٣)</sup>)، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: (١/١٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (٤/١٧).

(٣) جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من التوراة:

فقال الرب: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه [إسحاق] واذهب به إلى أرض الموريا، وأصعده محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك.

وفي الإصحاح -١٦- جاء الحديث عن تزويج سارة لإبراهيم من هاجر لأن الرب أمسكها عن الولادة، ثم ولدت إسماعيل، وكان عمر إبراهيم ٨٦ سنة.

=

إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله<sup>(١)</sup>.

= وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين أنه عندما ولد إسحاق كان عمره مائة سنة .

عن قصص الأنبياء ، ص (١٠٢).

(١) زاد المعاد: (٧٢ / ١)، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

## المبحث الثامن

### من فضائل إبراهيم عليه السلام

\* أولاً: كان إبراهيم أمة.

\* ثانياً: ملة إبراهيم.

\* ثالثاً: واتخذ الله إبراهيم خليلاً.

\* رابعاً: أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم.

\* خامساً: أهمية بلاد الشام.

من خلال عرضنا لسيرة إبراهيم عليه السلام، بيننا جملة من فضائله ومكارم أخلاقه، واستخرجنا عبراً وعظات كثيرة من قوة إيمانه وشدة صبره، ومع ذلك ما يزال هناك مجال واسع للحديث عن جلائل أعماله نذكر منها ما يلي:

### أولاً: كان إبراهيم أمة

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾  
شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْبَنُهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣١﴾ وَعَايَنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً  
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [النحل].

- ﴿أُمَّةً﴾ أي يعدل وحده جماعة فيما رزقه الله من إيمان وثبات وشييم.

- ﴿قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي قائماً بأمر الله تعالى، مائلاً إلى ملة الإسلام ميلاً لا يزول عنه.

قال ابن القيم رحمه الله: (إن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً...﴾ فهذه أربعة أنواع من الثناء، افتتحها بأنه ﴿أُمَّةً﴾ وهو القدوة الذي يؤتم به. قال ابن مسعود: [الأمة: المعلم للخير] وهي فعلة -بضم الفاء- من الإئتمام كالقدوة، وهو الذي يقتدى به. والفرق بين [الأمة] و[الإمام] من وجهين:



أحدهما: أن الإمام كان يؤتم به، سواء كان بقصدته وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إماماً. كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ [الحجر] أي بطريق واضح لا يخفى على السالك، ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أن [الأمة] فيه زيادة معنى. وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل، وهو الذي بقي فيها فرداً وحاده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه، وتفرقتها أو عدمها في غيره. ولفظ [الأمة] يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله. فإن الضمة من الواو، ومخرجها فيضم عند النطق بها. وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة. ومنه الحديث: «أن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده» فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد.

الثاني: قوله ﴿ فَأَيُّهَا ﴾ قال ابن مسعود: [القانت]: المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله ﴿ حَنِيفًا ﴾ والحنيف: المقبل على الله.

ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف، لأنه موضوعه لغة.

الرابع: قوله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها، وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب) فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الثلاثة.

والمقصود: أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم، والعمل بموجبه، ودعوة الخلق إليه<sup>(١)</sup>.

- أجل لقد كان إبراهيم عليه السلام أمة في إيمانه وعبوديته لله وشكره على نعمه.
- أمة في ثباته على الحق، وصبره على أذى قومه وظلمهم.
- أمة في حلمه، وسعة صدره، ولين جانبه، وحسن خلقه، وقوة حجته، وشدة ذكائه.
- أمة في سخائه وكرمه، وإنفاقه على من يعرف ومن لا يعرف.
- أمة في تمام تجرده، وشدة إذعانه وانقياده لأمر الله تعالى في جميع أموره.
- أمة في تبرئه من المشركين، وعدم موالاتهم، وتمييزه عنهم.

(١) مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل العلم، عن فتح المجيد ص(٥٨).

### ثانياً: ملة إبراهيم

اتفق اليهود والنصارى - رغم ما هم عليه من شرك وضلال - والمسلمون على أن إبراهيم عليه السلام إمام الهدى والمهتدين، ومن هنا جاء زعم اليهود بأن إبراهيم كان يهودياً، كما جاء زعم النصارى بأن إبراهيم كان نصرانياً، ولم يتفق أهل الكتاب مع المسلمين على علو مكانة نبي من الأنبياء غير إبراهيم الخليل، وحتى خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم لا يعترف اليهود والنصارى بنبوته، وهذه ميزة انفرد بها إبراهيم عليه السلام عن غيره من الأنبياء والمرسلين.

والحق الذي لا خلاف فيه أن إبراهيم الخليل بريء من شرك اليهود والنصارى كبراءته من عقيدة ودين أبيه وقومه.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران]

وقال: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة]

أي وما كان من اليهود الذين أشركوا بالله عندما زعموا بأن عزيزاً ابن الله، ولا من النصارى الذين أشركوا بالله عندما زعموا بأن المسيح ابن الله. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا

اللَّهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ [البقرة].

وعندما نفى الحق جلَّ وعلا اليهودية والنصرانية عن إبراهيم عليه السلام أكد في مواضع كثيرة أنه كان حنيفاً مسلماً.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ﴿١٣٥﴾ [النساء].

وكفى خليل الرحمن مكرمة وفضلاً أن الله أمر المصطفى ﷺ باتباع ملة إبراهيم، قال تعالى مخاطباً نبيه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٢٣﴾ [النحل].

واتخذه سبحانه وتعالى قدوة طيبة لكل من أسلم وجهه لله. قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ... ﴾ [المتحنة: ٤].

وكل من رغب عن ملة إبراهيم فقد سفه نفسه، وأشرك بالله وضل عن سبيله. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١٣٠﴾ [البقرة].

﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾: أي امتنهنها واستخف بها، كاليهود والنصارى والوثنيين من العرب، وبين الله جلَّ وعلا في الآيات التي تلي هذه الآية أن إبراهيم نال هذه المكانة الرفيعة لأنه أسلم أمره كله لرب العالمين، واستقام على الإسلام يفديه بنفسه وماله، ووصى بهذه العقيدة أبناءه من بعده قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة].

والقضية عند الله ليست قضية نسب أو قبيلة، وإنما هي قضية دين وعقيدة. قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فكل من اتبع إبراهيم في القديم والحديث من حقه أن ينتمي إليه ويعتز به وهو باتباعه له أولى الناس به، ولقد رأينا فيما مضى أنه عليه السلام تبرأ من أبيه وأقرب الناس إليه، فكيف لا يتبرأ ممن هم على عقيدة أبيه وقومه في هذا العصر وكل عصر؟!

كيف لا يتبرأ منهم والله جلَّ وعلا أخبره بأن الظالمين من أبنائه ليسوا أئمة ولا ينالهم عهده، بل كيف لا يتبرأ منهم وهو القائل: ﴿ ...فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

## ثالثاً: واتخذ الله إبراهيم خليلاً

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ [النساء]

الخلة: هي غاية المحبة، وسمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته، كما قال بعضهم:

قد تخللت مسلك الروح مني      وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاً

ولم ينل هذه المنزلة إلا إبراهيم عليه السلام، والمصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمر وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أيها الناس إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً» وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها:

«أيها الناس لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»

وأخرج البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون قال: (إن معاذاً لما قدم

اليمن صلى بهم الصبح فقراً ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ فقال رجل من القوم:

لقد قرت عين أم إبراهيم<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«إنكم تحشرون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ  
وَعَدًّا عَلَيْهِمْ أَنَا كَمَا فَتَحَلِينَا﴾ [١٠٤] [الأنبياء] وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم،  
وإن أناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي أصحابي، فيقول:  
إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح  
﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ - إلى قوله - الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ [المائدة ١١٧]» .

وروى البيهقي من وجه آخر عن ابن عباس مرفوعاً «أول من يكسى إبراهيم  
حلة من الجنة، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ويؤتى بي فأكسى حلة لا  
يقوم لها البشر»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني:

(ويقال إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك لكونه ألقى في النار عرياناً،  
وقيل لأنه أول من لبس السراويل).

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: (١/١٦٩).

(٢) حديث ابن عباس أخرجه البخاري في صحيحه، ورواية البيهقي ذكرها الحافظ في فتحه:

(٧/١٩٧).

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قيل: (يا رسول الله، من أكرم الناس؟) «قال أتقاهم». فقالوا: ليس عن هذا نسألك. «قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله...» إلى آخر الحديث).

وفي رواية أخرى لأبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه. قال: (قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟) «قال أكرمهم أتقاهم». قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك. «قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله...» إلى آخر الحديث<sup>(١)</sup>.

- الجواب الأول - أكرم الناس يوسف - من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثاني من جهة الشرف بالنسب الصالح.

٣- أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك حديثاً طويلاً عن الإسراء والمعراج جاء فيه:

«... ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور<sup>(٢)</sup>، وإذا هو يدخله كل يوم

(١) أخرجهما البخاري في صحيحه: فتح الباري: (١٨٩) و(٧/٢٢٥) الخليلي.

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري، باب الإسراء بالنبي: (٢٧/١).



سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه...»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى أخرجها مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في الإسراء:

«... ورأيت إبراهيم عليه السلام، وأنا أشبه ولده...»

وفي رواية أخرجها البخاري في صحيحه عن مالك بن صعصعة أن إبراهيم قال لنبينا عليها أفضل الصلاة والتسليم: «مرحباً بك من ابن ونبي...»<sup>(٢)</sup>.

والشاهد في ذلك كله أن إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة، أي أفضل من جميع أنبياء الله الذين رآهم رسول الله ﷺ في رحلته - أي الإسراء والمعراج -.

٤ - مرَّ معنا أن رسول الله ﷺ رد على الذين زعموا بأن إبراهيم شك بالله قبل أن يؤمن فقال:

«نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي

الْمَوْتِ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...﴾ [البقرة: ٢٦٠]»<sup>(٣)</sup>

وبيّنا - فيما مضى - أن معنى حديث رسول الله ﷺ: لو شك إبراهيم لكننا أحق

(١) البيت المعمور في السماء السابعة كما جاء في الرواية مسلم عن أنس والبخاري عن مالك بن صعصعة، أما الروايات الأخرى التي تتحدث عن شكل هذا البيت فليست صحيحة.

(٢) أخرجه - أي البخاري ومسلم - عن زاد المسير: (٤٦/٨).

(٣) فتح الباري: (٢٢٤/٧)، واللفظ للبخاري.

بالشك منه، ونحن لم نشك فإذن لم يشك إبراهيم.

٥- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

(كان النبي ﷺ يُعوذُ بالحسن والحسين، إن أباكما كان يعوذُ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذُ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)<sup>(١)</sup>.

٦- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا خير البرية! فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم عليه السلام»<sup>(٢)</sup>.

٧- عن عمرو بن سليم الزرقي قال: أخبرني أبو حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»

وفي رواية أخرى أخرجها البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك

(١) فتح الباري: (٧/٢٢١). الهوام: الدواب ذوات السموم، واللامة: كل داء وآفة تلم بالانسان من جنون وخبل.

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري: (٢/١٨٥).

حميد مجيد<sup>(١)</sup>

وصلاة الله: أي ثناؤه على نبيه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء.

وهذا تكريم من الله لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، فالمسلمون يدعون الله له كما يدعون لمحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وتكرر هذه الصلاة والأدعية خمس أوقات في كل يوم على الأقل.

٨- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحييت، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام «فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط» والأزلام: القداح يقتسمون بها، وروى الطبري من طريق سعيد بن جبير قال: الأزلام حصى بيض.

وفي رواية أخرى لابن عباس أن النبي ﷺ قال:

«أما لهم فقد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، هذا إبراهيم مُصَوَّرٌ فماله يستقسم؟»<sup>(٢)</sup>.

إن استقسما: إن نافية: أي والله ما استقسما بالأزلام قط.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم».

(١) فتح الباري: (٧/٢٢٠) و(١٠/١٥٢).

(٢) الحديثان أخرجهما البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٧/١٩٧-١٩٨).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة: منها أنه أول من ضاف الضيف، وقص الشارب واختتن ورأى الشيب وغير ذلك)<sup>(١)</sup>.

وقد أوضحنا عند بداية حديثنا عن إبراهيم أن سبب اختنانه بالقدوم: سرعة استجابته وتنفيذه لأوامر الله سبحانه وتعالى، ولو كان ذلك على حساب جسمه وصحته، أما قص الشارب وغيره ففيها دليل على أنه كان يعطي لكل حقه.

ومما يجدر ذكره أن الأحاديث التي دلت على أن إبراهيم عليه السلام خير البرية، وأكرم الناس وأول من يكسى يوم القيامة وما إلى ذلك، فإن هذه الأحاديث لا تعني أنه أفضل من نبينا محمد ﷺ. قال الإمام النووي رحمه الله:

(قال العلماء: إنها قال ﷺ هذا - أي إبراهيم خير البرية - تواضعاً واحتراماً لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوته، وإلا فنبينا أفضل كما قال ﷺ أنا سيد ولد آدم، ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه، بل قاله بياناً لما أمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: ولا فخر لينفي ما قد يتطرق إلى بعض المفاهيم السخيفة)<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن كثير رحمه الله:

(وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد

(١) حديث أبي هريرة أخرجه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٧/١٩٩).

(٢) صحيح المسلم بشرح النووي، الحاشية: (١٥/١٢١). دار الفكر، بيروت.

ولد آدم يوم القيامة<sup>(١)</sup> وكذلك حديث أبي بن كعب في صحيح مسلم: وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم. ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره قال: قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد» وقال تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم] قالوا وفَّى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، كتاب الفضل، مختصر صحيح مسلم: (٢/١٦٢).

(٢) البداية والنهاية: (١/١٧١).

## خامساً: أهمية بلاد الشام

رأينا في الصفحات الماضية من هذا البحث كيف تحلى إبراهيم الخليل عن قومه، عندما أعرضوا عن دعوته، ولم يعد ينفع فيهم الوعظ ولا الإرشاد، وخرج من وطنه مهاجراً في سبيل الله، ولم يتزود في رحلته المضنية الشاقة إلا بتقوى الله تعالى وحسن طاعته.

وفي مصر ابتلاه الله، فكانت قصة سارة مع طاغوتها، غير أن ربه لم يتخلَّ عنه في ساعة الضيق، ففرج كربه وصان عرضه، وبعد حين من الزمن عادت المتاعب إلى إبراهيم عليه السلام، فبات غير آمن على نفسه من حسد الحاسدين وكيد المجرمين، فاضطر إلى مغادرة مصر، وعاد إلى أرض التيمن - أي القدس وما والاها من بلاد الشام -.

وفي أرض القدس شعر إبراهيم عليه السلام براحة ما كان يشعر بها في بابل أو في مصر، وفوق ذلك فقد فتح الله عليه، فملك الأراضي الواسعة، والأنعام الكثيرة، والأموال التي لا تحصى، وأتم الله فضله على عبده ورسوله إبراهيم، فرزقه إسماعيل عليهما السلام، ثم وقعت مشكلة سارة مع هاجر، وأوحى الله إلى إبراهيم أن يستجيب لرغبة سارة، فخرج بإسماعيل وأمّه، وأسكنهما بوادٍ غير ذي زرع، ليس فيه ماء ولا بشر، ثم استجاب الله لدعوة الخليل، فأصبحت مكة مأهولة بالسكان، ونشأ إسماعيل وترعرع بين العرب - من قبيلة جرهم -، وعندما شب تزوج بفتاة منهم وكان أبوه يتفقده بين الحين والآخر، وعندما جاء أمر الله قام إبراهيم وولده إسماعيل ببناء بيت الله الحرام، ثم أراهما الله المناسك كلها، ومنذ

ذلك الحين والناس يتوافدون إلى مكة المكرمة من كل فج عميق.

سبحان الله!! ما كان إبراهيم يدري ما الله فاعل به عندما خرج من العراق، وكل الذي يدريه أنه رهنُ أمر الله تعالى، وكان عليه السلام لا يرتبط لا بأرض أو وطن، وشاء الله له أن يقيم منارة من منارات التوحيد في بلاد الشام، وورث إسحاق النبوة عن أبيه إبراهيم ومن بعد إسحاق جاء يعقوب، وهكذا إلى أن جاء سليمان عليه السلام وبنى المسجد الأقصى.

أما في مكة المكرمة، فقد جاء إبراهيم بهاجر من مصر، وشاء الله أن تكون هاجر أمّاً للعرب، وأرسل الله إسماعيل إلى عرب الحجاز واليمن، فدعاهم إلى الحنيفية فاستجابوا له، ولم تقطع آثار هذه الدعوة حتى بعث الله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان من نسل إسماعيل، عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

لقد توحدت بلاد الشام ممثلة بإسحاق مع شبه الجزيرة العربية ممثلة بإسماعيل، وكان إبراهيم الخليل رائد هذه الوحدة الكريمة، وأراد الله لخليله أن يكون له بيتان: أحدهما في القدس والآخر في مكة، وكان إبراهيم يتنقل بين هذين البيتين، وفي ذلك دليل واضح على أن هذه المنطقة كيان واحد، لا يجوز أن يفتت أو أن يتحول إلى دول وممالك.

وشاء الله تعالى أن يكون إسراء محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وهناك يصلي بأنبياء الله ورسله إماماً ثم يعرج إلى السماء.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ [الإسراء: ١]

لو أراد الله لكان عروج رسول الله من مكة وليس من القدس... ولكنه جلّ وعلا شاء أن يكون الإسراء من مكة إلى القدس، والعروج من القدس، وفي هذا دليل على ارتباط القدس بمكة، وقد أدرك أصحاب رسول الله هذه الحقيقة فسارعوا إلى فتح بلاد الشام وطهروا الأقصى من وثنيات الرومان، وحاول أعداء الله احتلال القدس مرات ومرات لكن هذه المحاولات تحطمت أمام صمود المسلمين وقوة بأسهم قال صاحب خطط الشام:

(أدرك العالم كله منذ القديم أهمية موقع بلاد الشام، فكانت هدفاً للغزاة الفاتحين... جاءها الفراعنة من البحر والبر، والبابليون والفرس من الشرق والشمال، وغازان وهولاكو وتيمورلنك من الشرق، ونابليون من الجنوب ومن الغرب بحراً وإبراهيم باشا المصري براً وبحراً أي من الغرب والجنوب الغربي، وجيوش الحلفاء الإنجليز والفرنسيين والعرب -يعني الكاتب بالعرب جنود فيصل بن الحسين- من الجنوب والغرب.

ورأت الشام طلعة عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة الجراح، وخالد بن الوليد، وموسى بن نصير، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان سليم من الفاتحين. وعمر بن عبد العزيز، وابن تيمية من المجددين. وبختنصر، وهولاكو،



وجنكيز، وغازان، وتيمور من المخربين<sup>(١)</sup>.

أيها المسلمون في بلاد الشام:

إنكم تعلمون جيداً أن بلدكم مهبط للوحي، وموئل للأنبياء، ومقر للخليل عليه السلام، وقد باركه الله من فوق سبع سماوات.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ...﴾ [الإسراء: ١]

وقال ﷺ: «طوبى للشام إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه»<sup>(٢)</sup>.

وسوف يشهد بلدكم نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، وسوف يصلي مأموماً وراء المهدي، الذي سيحكم شرع الله في الأرض، ويجاهد أعداءه ويتنصر عليهم.

أيها المسلمون في بلاد الشام: كيف أسلمتم زمام أموركم لأدعياء الوطنية والقومية من الصليبيين والعلمانيين والباطنيين؟!.. كيف صدقتم أن هؤلاء سيحررون فلسطين من اليهود المجرمين!؟

(١) خطط الشام، محمد كرد علي: (١٦، ١٢/١) بتصرف يسير.

(٢) أخرجه الترمذي: (٣٣/٢) وقال حديث حسن. والحاكم في المستدرک: (٢/ ١٨٤)، وقال

الألباني حديث صحيح، سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم: (٥٠٣/٥).

كفاكم عقوبة من الله ما تعاونه من اضطهاد وتنكيل منذ أكثر من نصف قرن... أن لكم أن تعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أن لكم أن تعودوا إلى الله عودة صادقة، وتوحدوا صفوفكم تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتأخذوا بكافة الأسباب التي تساعدكم على عودة بلادكم كما كانت أيام إبراهيم وإسحاق وداود وسليمان... وكما كانت أيام الفتح الإسلامي المجيد، وما ذلك على الله بعزيز.

شعيب عليه السلام

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخليته وأمينه على وحيه، أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى إخوانه أنبياء الله ورسله ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:

فمن أهم أمراض عصرنا ومشكلاته: الصد عن سبيل الله، والإفساد في الأرض، وبخس الناس حقوقهم، وتطفيف الكيل والميزان. وبشكل أكثر وضوحاً وشمولية نستطيع القول: إن من أهم مشكلات عصرنا الظلم على مختلف أشكاله وصوره سواء كان ظلم الإنسان لربه، أو ظلمه لنفسه، أو ظلمه لمن يقدر على ظلمهم من بني جنسه، أو حتى ظلمه للحيوانات... ومن يراقب الأحداث في مجتمعاتنا يشاهد هذه الظاهرة بشكل جليّ واضح: فالقوي يقهر الضعيف، والغني يستغل الفقير، وصاحب العمل يستعبد عماله ويأكل حقوقهم أو يعطيهم إياها منقوصة غير كاملة بعد أن يجف عرقهم، والدول الكبرى تستعمر الشعوب الضعيفة

تستذلها وتنهب خيراتها، وتحرص على بقائها فقيرة جاهلة متخلفة.

ولقد تصدى أنبياء الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم عبر مسيرتهم الكريمة لعلاج هذه الظاهرة، فبينوا لأقوامهم حرمة الظلم وأنه من أكبر الكبائر، وواجهوا الظالمين رغم كل ما كانوا عليه من جبروت وغرور وطغيان فدعوهم إلى العدل والمساواة والرحمة... حتى أنني كنت أحسّ وأنا أعد هذا الجزء [أي الجزء الثاني من كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] أن شعيباً عليه السلام وكأنه يخاطب الظالمين في عصرنا، يرشدهم إلى الطريق الصحيح، ويحذرهم من البخس والفساد والتطفيف، ومن الصد عن سبيل الله.

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى وحدانية الله تعالى، وإلى وجوب الإذعان التام، والانقياد المطلق لكل ما يأمر به سبحانه، وهذا يعني أنه عليه السلام بدأ دعوته بتربية رجال يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِم مَّجْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا نَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور]

ثم ربط مشكلات عصره بهذه الوجدانية، وكان قدوة حسنة لقومه في كل ما يأمر به ويدعو إليه... وهذا سر نجاح شعيب عليه السلام، فهو لم يتحدث عن التأميم والإصلاح الزراعي، ولم يقدم لهم قوانين جافة لا حياة ولا روح فيها، لأن الذين لا يخشون الله، من باب أولى لا يخشون هذه القوانين ولا يقيمون لها وزناً لاسيما إذا كانوا هم الذين وضعوها.. لقد كانت تربية شعيب عليه السلام عميقة

الجدور، راسخة البنيان، لا تهزها الرياح، ولا تقتلعها الأعاصير.

إن التاريخ يشهد والحقائق الدامغة تنطق بأن البشرية ما عرفت العدل والمساواة والرحمة والمؤاخاة إلا في ظل أنظمة يكون الدين فيها كله لله، أما الذين ينكرون أو يتجاهلون منهج الله وهديه فما عرفت البشرية في ظل حكمهم إلا الظلم والبغي والفساد والصد عن سبيل الله.

لقد بُلينا في هذا العصر بمن يبكي دموع التماسيح على ما يلقاه العمال والفلاحون من اضطهاد وذل واستعباد، وينادي بوجوب سحق الرأسماليين والإقطاعيين... ونجح هؤلاء أدعياء العدالة والاشتراكية - في بعض بلدان العالم الإسلامي - في استقطاب جمهور العمال والفلاحين وتجنيدهم في قواعد أحزابهم العلمانية الجاهلية، ووعدهم بجنات تجري من تحتها الأنهار.

وقامت انقلابات عسكرية ثورية في هذه البلدان المنكوبة شعارها الحرية والاشتراكية، وصفق الفقراء للقادة الجدد، وظنوا أن أيام البؤس والشقاء قد ولّت، وأن المصانع والمزارع ستكون ملكاً لهم.. وبعد بضع سنين أصبح المواطنون جميعاً فقراء، غير أنه ظهرت طبقة جديدة من الرأسماليين.. إنها طبقة القادة الجدد ومن يلوذ بكنفهم من الأقرباء والأصدقاء والمتنفذين في الحزب الحاكم.. وما اكتفى هؤلاء من تجويع العباد وتدمير الاقتصاد، وإنما حولوا البلد كله إلى سجن، وأشاعوا الذعر والإرهاب، وتناسوا بأن الرجال الأحرار يختارون الفقر والجوع على الذل والخنوع.. ولقد تحدثت عن أحوال هؤلاء في الفصل الأول من هذا

الكتاب [صور من الظلم في القديم والحديث].

ومن أجل أن لا تتحدع شعوبنا مرة أخرى بعملاء الشرق الشيوعي، أو بعملاء الغرب الرأسمالي العلماني أقدم هذه الدراسة عن نبي الله شعيب عليه السلام الذي أرسله الله جلّ وعلا ليحرر قومه من الكفر والظلم والفسوق والعصيان، ولهذا فقد كانت دعوته سفينة نوح في كل طوفان، وقسمت هذا البحث إلى الفصول التالية:

### الفصل الأول: قسمته إلى مبحثين:

- المبحث الأول: عرضت فيه صوراً من الظلم في القديم والحديث.

- والمبحث الثاني: عرضت فيه الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم، والحاجة إلى ذلك أنه قد يقول قائل: أنت تتحدث عن شعيب عليه السلام، ونحن لسنا ملزمين إلا بما جاء به نبينا ﷺ، وشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا.

ولهذا فقد عرضت آيات من كتاب الله، وعدداً من الأحاديث الصحيحة تؤكد كلها حرمة الظلم، وبينت أنواعه، وما توعده الله به الظالمين يوم الحشر والحساب.. هذا وقد ألزمت نفسي في هذه السلسلة [منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله] أن لا أذكر حكماً شرعياً دعا إليه نبي من أنبياء الله ثم أربطه بواقع عصرنا إلا وأذكر ما يؤيده من الأحاديث النبوية الصحيحة، بل وفي كثير من الحالات أذكر أقوال كبار علماء السلف فيه.

الفصل الثاني: قسمته إلى مبحثين:

-المبحث الأول: تحدث فيه بإيجاز عن سيرة شعيب عليه السلام.

-المبحث الثاني: يتألف من الفقرات التالية:

أولاً - دعاهم إلى وحدانية الله تعالى.

ثانياً - جاءهم بينة.

ثالثاً - كان عليه السلام قدوة حسنة.

رابعاً - واجه شعيب قومه بانحرافاتهم.

الفصل الثالث: تحدثت فيه عن صراع شعيب عليه السلام مع الملائ من أهل مدين منذ بداية بعثته، كيف كان يخاطبهم، وكيف كانوا يردون عليه.. وكيف تغير أسلوبه وأسلوبهم في المرحلة الأخيرة التي سبقت هلاكهم..

الفصل الرابع: مصارع الطغاة: تكلمت فيه عن هلاك الكافرين الظالمين من أهل مدين، ثم بينت سنة الله الماضية في هلاك الظالمين عندما يكفرون بالله ويعرضون عن منهج أنبيائه ويفسدون في الأرض، ثم عرضت أمثلة على ذلك في القديم والحديث، واخترت نماذج شاهدها وعاصرتها.

والذي دعاني إلى أفراد هذا الجزء بدعوة شعيب ورسالته أمران:

الأول: تكاد دعوته عليه السلام تكون قاصرة على محاربة الظلم والظالمين،



وربط هذه المسألة بوحدانية الله تعالى.

الثاني: الحاجة الملحة إلى طرق هذا الموضوع، واقتفاء أثر محمد الرسول ﷺ وشعيب عليه السلام وغيرهما من أنبياء الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

# الفصل الأول

• تمهيد.

\* المبحث الأول: صور من الظلم في القديم و الحديث .

\* المبحث الثاني: الأدلة من الكتاب و السنة على تحريم

الظلم.

## تمهيد

الظُّلم: وضع الشيء في غير موضعه. ومن أمثال العرب في الشَّبه:

من أشبَّهَ أباهُ فما ظلم؛ قال الأصمعي: ما ظَلَمَ أي ما وضع الشبه في غير موضعه. وفي المثل: من استرعى الذئب فقد ظلم.

وأصل الظُّلم: الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء: فمن زاد أو نقص فقد<sup>(١)</sup> أساء وظلم، أي أساء الأدب بتركه السُّنَّة والتأدب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصها من الثواب بترداد المرات في الوضوء.

والظُّلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: ألزم هذا الصواب ولا تظلم عنه، أي لا تجر عنه، والمتظلم: الذي يشكو رجلاً ظلَّمه، ويقال: تظلم فلان إلى الحاكم من فلان، فظلَّمه تظليماً، أي أنصفه من ظالمه، وأعانه عليه. والظلمة: المانعون أهل الحقوق حقوقهم<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن حجر العسقلاني:

(١) حديث الوضوء: رواه أحمد في المسند: (٦٦٨٤)، وابن ماجه في الطهارة: (٤٢٢)، والنسائي: (٨٨/١) كلهم من حديث موسى بن أبي عائشة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وإسناده حسن. ولفظه «أو نقص» الواردة عند أبي داود منكراً أو شاذة، والنقص جائز، والآثار بذلك صحيحة. هامش زاد المعاد.

(٢) انظر فعل [ظلم] لسان العرب، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (١٦١/٣).

(والمظالم جمع مظلمة مصدر ظلم يظلم، واسم لما أخذ بغير حق. والظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي، والغصب أخذ حق الغير بغير حق)<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الجوزي:

(الظلم يشتمل على معصيتين: أخذ مال الغير بغير حق، ومبارزة الرب بالمخالفة، والمعصية فيه أشد من غيرها لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً)<sup>(٢)</sup>.

وجميع أفعال قوم مدين وأقوالهم تدرج تحت ما ذكرناه من تعريفات الظلم اللغوية والشرعية.. لقد ظلموا ربهم سبحانه وتعالى فعبدوا غيره، وظلموا الناس فاعتدوا على أموالهم وأنفسهم بغير حق، وظلموا أنفسهم فتفتشت بينهم الذنوب والمعاصي والمنكرات، وكان نظام حياتهم من أوله إلى آخره يقوم على الظلم.

وتكاد رسالة شعيب عليه السلام بعد الدعوة إلى وحدانية الله تعالى تكون قاصرة على محاربة الظلم والتنديد بالظالمين، وكذلك أنبياء الله الذين سبقوه أو الذين جاءوا بعده كانوا دعاة إلى العدل والمساواة والمحبة.

(١) فتح الباري، كتاب المظالم: (٢٠/٦)، الحلبي.

(٢) فتح الباري: (٢٥/٦)، الحلبي.

ولما لهذا الموضوع من أهمية فقد قسمنا هذا الفصل إلى المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: صور من الظلم في القديم والحديث.

المبحث الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم.

## المبحث الأول

## صور من الظلم في القديم والحديث

رافق الظلم بني آدم منذ بداية وجودهم على هذا الكوكب الأرضي، وأقدم أحدهم على قتل أخيه ظلماً وحسداً. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِآلْحَقِي إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

وقال ﷺ: «لا تقتل نفساً ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ<sup>(١)</sup> من دمها، لأنه أول من سن القتل»<sup>(٢)</sup>.

ثم انتشر القتل، وكثر الظلم بعد جريمة ابن آدم الأول.. حتى أصبحت الحروب تنسب بين الدول والقبائل لأتفه الأسباب. وإذا نشبت فيكاد لا ينطفئ لهيبتها ولا يخمد أوارها.. وقد تتغلب الدولة أو القبيلة على أخرى حيناً من الزمن، ولكن الدولة أو القبيلة المغلوبة تثور عندما تستكمل أسباب القوة لتدفع عن نفسها البغي والظلم والهوان، وتحاول أن ترد الصاع صاعين.

(١) الكفل: بكسر أو له وسكون الفاء: النصيب، وأكثر ما يطلق على الأجر.

(٢) البخاري: (٦/٢٦٢)، ومسلم: (٣/١٣٠٣)، والترمذي: (٢/٩٢) من حديث ابن مسعود مرفوعاً.

وكان الظلم في المجتمع الجاهلي يعني القوة والشجاعة والعزة، قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

فالإنسان في المجتمع الجاهلي إما أن يكون ظالماً أو مظلوماً، وليس هناك حل وسط، وقد جاء هذا الوصف من شاعر كان يُنْفَرُ من الحرب والقتال، ويدعو إلى السلم وإصلاح ذات البين، ومع ذلك لم يترفع كثيراً عن مستوى العصر الذي كان يعيش فيه.

وعرفت البشرية بعد بعثة المصطفى ﷺ عدلاً ومساواة وأمناً لم تعهدها من قبل، ولم تعرفها الأنظمة التي أبت الانقياد والاستسلام والإذعان لأوامر الله ونواهيه فيما بعد، وما زال المسلمون في بجموحه من الخير والعدل والأمان إلى أن تعددت فرقهم، وصاروا شيعاً وأحزاباً وأصبح بأسهم بينهم. وهنا تغيرت الأحوال، واجتاح التتار والصليبيون واليهود بلدان العالم الإسلامي مرات ومرات، فنشروا فيها الفساد، واستغلوا شعوبها في محاربة أعدائهم وبناء مؤسساتهم الشائخة، وفضلاً عن هذا وذاك فقد أربعوا الأمنين، وطاردوا الدعاة وكمموا أفواههم... وبعد الجهاد الدائب خرجت جيوشهم دون أن تخرج أفكارهم ومعاهدتهم ومؤسساتهم. وخلف الأمريكان والسوفييت<sup>(١)</sup> الإنجليز والفرنسيين في استعمار بلدان العالم،

(١) كان هذا قبل سقوط نظام الاتحاد السوفييتي، ولا يزال الروس يحملون العقلية السابقة.

وابتزاز أموال الشعوب، ونهب خيراتهم.. وهما يتسابقان من أجل تحقيق مزيد من التسلط والهيمنة، ويستخدمان وسائل همجية يترفع عنها أقوام: نوح، وإبراهيم، وعاد، وثمود، ومدين، وعرب الجاهلية، ومن هذه الوسائل: تفجير الصراعات الطائفية، والعرقية، والقومية، والمذهبية في بلد من البلدان، أو بين دولتين متجاورتين، وتسارع الولايات المتحدة الأمريكية إلى تبني طرف من أطراف النزاع، وتقدم له الأسلحة الفتاكة بأسعار تفرضها كما تشاء، ويلجأ الطرف الآخر مرغماً إلى الاتحاد السوفيتي أو إلى كنف دولة من دول المعسكر الاشتراكي، فتفضل بتقديم الأسلحة المدمرة والخبراء الشيوعيين لهم.

ومن المؤسف أن هذه الحروب التي يفتعلها الأمريكان والسوفييت لم تهدأ منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وفي كل مرة تتوتر الأجواء بين الدولتين العظميين، ويرتعد العالم خوفاً وذعراً من حرب عالمية نووية جديدة.. وفجأة يلتقي زعيما الدولتين، ويتفقا على حل ما بينهما من خلافات، وتهدأ الزوبعة المفتعلة، ويتنفس الناس الصعداء، ثم تبين فيما بعد أن الزعيمين: السوفيتي والأمريكي لم يتفقا في اجتماعهما المغلق على تحقيق السلام في العالم، ولا على وضع حل عادل للتسابق النووي، ولا التنافس في عمل الخير.. لم يتفقا على شيء من ذلك، وهيهات لهما أن يفكرا بخير الإنسان وسعادته، وإنما يتفقا على مقايضة صفقة بصفقة، والصفقة ليست قمحاً ولا بترولاً ولا ماشية، وإنما هي بلاد وشعوب واسترقاق من



نوع جديد لا عهد للبشرية به من قبل.. وهكذا أصبح العالم قسمين: غربي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، وشرقي يتزعمه الاتحاد السوفيتي، وليس هناك حياد، سواء كان هذا الحياد إيجابياً أم غير إيجابي.

ولم تتغير الأحوال بعد رحيل الإنجليز والفرنسيين عن بلادنا. لقد سلموا مقاليد الحكم في معظم بلدان العالم الإسلامي لتلاميذهم الذين تربوا في معاهدهم وجامعاتهم، وتخلقوا بأخلاقهم، وكان التلامذة أشد استبداداً وتنكياً وظلماً من المستعمرين، ولهذا فقد أخذ الناس يبحثون مرة أخرى عن منقذ ينقذهم، وكانت هذه الأجواء الآسنة أرضية خصبة لقيام عدد من الانقلابات العسكرية في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وزعم قادة هذه الانقلابات أنه ليست عندهم أطماع في الحكم، وسوف يعودون إلى ثكناتهم عندما يصبح الشعب وليّ أمره، وتحقق الأمور التالية:

- القضاء على الإقطاع وسوء توزيع الثروة.
- القضاء على الرق بمختلف أشكاله وصوره.
- تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين.
- تحقيق الوحدة بين جميع البلدان العربية.
- تحرير فلسطين من العدو الصهيوني الدخيل.
- مكافحة الاستعمار وجيوبه في الداخل والخارج.
- سيادة القانون، ومحاربة التسلط والاستغلال.
- حرية المواطن في التعبير عن معتقداته وأفكاره.

ويسارع دهماء الناس - بل وخاصتهم في حالات كثيرة - إلى تصديق أقوال القادة الجدد، لأنهم سئموا الفساد وغلاء الأسعار وهيمنة حفنة من أصحاب رؤوس الأموال، وبشكل أوضح فالناس يريدون الخلاص من النظام القديم، ويجنون الشعارات الجديدة، وتقترن في أذهانهم صورة العسكريين مع هذه الشعارات فيؤيدونهم، ويصفقون لهم، ويظنون أن عهد الظلم قد ولى إلى غير رجعة، وأنه قد أظلمت أيام ستكون كأيام المهدي في آخر الزمان، حيث ستملأ الأرض عدلاً ورخاء بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.. وتمضي الأيام والشهور والسنون، والإنتاج الزراعي يتناقص، والمصانع تتوقف عن العمل بسبب إفلاسها، والبطالة يستفحل شرها، وعدد السكان يتضاعف، والاستبداد تترسخ جذوره، والحريات تصادر، والعسكريون يُسمّون الأمور بغير أسمائها: فالكبت والإرهاب عندهم حرية وشورى، والفقر والبطالة والجوع اشتراكية وثورية، والتجزئة والتشتت وحدة عربية، والطريق إلى تحرير فلسطين يمر من عواصم الدول الرجعية، والأوامر التي يصدرها الحاكم العسكري المستبد هي حكم الشعب كل الشعب وإذلاله وقهره. وهذا الذي كان يراه ويعتقده فرعون من قبل، قال تعالى: ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

وبعد أن يبلغ الفساد مبلغه يتحرك عسكريون جدد، فيطيحون بأساتذتهم بعد

انقلاب دموي، ويزعم القادة الجدد أنهم جاءوا لإنقاذ البلاد من التجزئة وعملاء الاستعمار، وإنقاذ العباد من الغلاء والفقر والمجاعة، ويكررون مقولة من سبقهم: سنعود إلى ثكثنا بعد أن يستتب الأمن ويختار الشعب ممثليه.

والشاهد هنا أن الأباطرة - أو إن شئتم فقولوا القياصرة - الجدد يكشفون لنا فضائح سلفهم: يذكرون الأراضي التي اشتروها بثمن رمزي لأنها من أملاك الدولة، والمباني والقصور التي اغتصبوها من أصحابها باسم التأميم، والشركات والمؤسسات التي تم إنشاؤها باسم أقاربهم وأصدقائهم، ومئات الملايين المودعة في بنوك أوروبا بأسماء مستعارة، وهم الذين كانوا يصورون أوروبا الغربية في صورة شيطان، ويوجهون لخصومهم تهمة الخيانة لأنهم أخرجوا أموالهم من بلدتهم وأنشؤوا بها شركات في أوروبا وغيرها أو أودعوها في بنوك أجنبية، وخصومهم ما فعلوا هذا الفعل إلا خوفاً من مصادرة أموالهم باسم التأميم.

والفضائح التي يتحرج القادة الجدد عن ذكرها، تكشفها أوراق وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية، أو تكشفها مذكرات كبار المسؤولين في المخابرات الأمريكية، أو كبار المسؤولين اليهود، كما فعل وزير خارجية النظام الصهيوني السابق [موشى دايان] في مذكراته.

لقد انتهى عهد الرق بشكله البدائي البسيط، وبدأ عهد الاسترقاق السياسي في ظل هذه الأنظمة العسكرية المستبدة وأمثالها، فالمواطن فيها لا يأمن على نفسه وولده وماله:

- لا يأمن المواطن على نفسه، لأنه قد يتم اعتقاله في أية لحظة، وإذا اعتقل، فقد يقتل أو يعيش بقية عمره في زنزانة لا يقبل أن يعيش فيها كلب أو قرد، ولا يحتاج النظام إلى تهمة تبرر الاعتقال أو القتل، فأقوال الطاغوت دستور لا يجوز لأحد مخالفتها أو التردد في تنفيذها، وقد يكون المعتقل المسكين أقدم على نقد النظام في غرفة مغلقة أمام صديق من أصدقائه أو قريب من أقربائه، ويتبين أن هذا الصديق أو القريب عين من عيون السلطة.

- ولا يأمن المواطن على ولده، فقد يعتقل كما اعتقل أبوه، وقد يدعى إلى خدمة العسكرية الاحتياطية، ويفرض عليه خوض معركة دفاعاً عن النظام ضد أهله وذويه، أو قد تكون المعركة مع العدو لكنها مفتعلة، ويريد النظام من ورائها مكاسب دينية.

- ولا يأمن المواطن على ماله وأرضه، فقد تصدر باسم التأميم، أو باسم مصلحة الوطن العليا، أو لأن المواطن اضطر إلى الفرار من بلده خوفاً من البطش والتنكيل، فصادر الظالمون أمواله المنقولة وغير المنقولة.

انتهى عهد الرق، وبدأ عهد الاسترقاق الاجتماعي، فالخدم يتم استيرادهم كما يستورد السكر، والشاي، والبصل، والقمح، والأرز، والملابس. وهناك مؤسسات وشركات تتاجر بالخدم، ولها نسبة معينة من الأرباح، والقوانين الأرضية الحائدة عن منهج الله تنظم هذه التجارة وتحميها، ومعظم السادة يعاملون خدمهم معاملة لا تليق بالبهائم، ولا أقول الكلاب لأنها مدللة مخدومة عند بعض هؤلاء الناس،

فهم لا يسمحون لزوج الخادمة بزيارتها، أو مشاركتها في الخدمة شريطة أن يسكن معها في غرفة واحدة، وكذلك الحال مع أولادها، وتعيش المسكينة بضع سنين بعيدة عن أولادها وزوجها وأهلها وأترابها، تتمنى أن يكون الصغير الذي تحدمه ابنها، وقد تتحمل الصبر على أمور كثيرة، لكنها لا تحتمل الضرب والشتم والإهانة، وفي كثير من الحالات تصاب الخادمة بانهيار عصبي، فتقتل أحد مخدوميها، وتعيش بقية عمرها في السجن أو في مستشفى الأمراض العصبية.

انتهى عقد الإقطاعيين والمرابين والمحكرين بصورته القديمة، وبرزت طبقة إقطاعيين ومرابين ومحتكرين من نوع جديد. إنها طبقة رئيس الانقلاب وحاشيته التي تتألف من شركائه في الحكم، وأقاربه، ورجال حزبه، وقادة حرسه.. وشتان شتان ما بين الطبقتين:

فالطبقة القديمة -على ما بها من فساد وانحراف- لا تخلو من إيجابيات من أهمها: الحرية، وتشغيل اليد العاملة، وقدر معين من التنافس بين التجار، ومثانة الاقتصاد. أما رجال الطبقة الجديدة فمهمتهم السلب والنهب والقهر والتسلط، ولهذا كثرت البطالة، وأفلست المصانع، وانهار الاقتصاد، ورغم ذلك لا يستطيع المواطن أن يجاهر بالحقيقة.

كان الإقطاعي فيما مضى مسؤولاً عن العبيد الذين يملكهم، فالرقيق يعيش مع زوجه وأولاده يأكلون ويلبسون تحت مظلة سيدهم، أما الخادم في العصر الذي أسموه عصر الديمقراطية والتقدمية فلا يسمح له سيده أن يضر معه زوجه.

إن الإقطاعيين الجدد يمنعون المزارعين من بيع محصولاتهم في الأسواق المحلية أو تصديرها إلى الخارج، وتبتاع السلطة هذه المحصولات بأبخس الأسعار، ثم تبيعها للمواطنين الفقراء أو تصدرها إلى الخارج بأضعاف ثمن شرائها، وقد يعود الفلاح المنكوب إلى السلطة ليبتاع منها ما يحتاجه لزراعة أرضه... لهذا ولغيره يتمنى معظم الفلاحين الذين كانوا يعملون في حقول ومزارع الإقطاعيين أن تعود الأمور كما كانت، ويتخلصوا من جحيم الإقطاعيين الثوريين الجدد.

أما ما يذكره الثوريون عن صراع الطبقات في العهد الماضي، وقولهم: لقد حطمتنا طبقة المحتكرين الذين كانوا يستعبدون العمال والفلاحين، وأصبح الفلاح سيد حقله، كما أصبحت المصانع للعمال، فزعم كاذب. لقد حطموا طبقة الإقطاع والمحتكرين، وأصبحوا بديلاً عنهم، بل أكثر منهم جشعاً واحتكاراً واستعباداً للعمال والفلاحين، وكان العمال والفلاحون يتظاهرون ويضربون عن العمل دفاعاً عن مصالحهم، ويفرضون على أصحاب المصانع زيادة أجورهم، وإذا عجزوا عن تحقيق مطلب من مطالبهم، فلا يستطيع أصحاب المصانع إعدام أحد منهم أو اعتقاله لأجل غير مسمى. أما الإقطاعيون الاشتراكيون فلا يسمحون للعمال والفلاحين بالتظاهر، لأن هذه المظاهرات - على حد زعمهم - مؤامرة صهيونية استعمارية ضد استقلال البلد ومكاسب الشعب، ومن يفعل ذلك فجزاؤه السجن أو القتل.

إن تاريخنا لا يعرف صراعاً طبقياً مثل هذا الصراع، فالقادة الذين ابتليت بهم أمتنا، أصبحوا قياصرة، وأباطرة، ومن كبار المحتكرين وأصحاب رؤوس الأموال

في العالم، ورغم ذلك تزعم أجهزة إعلامهم بأنهم مصلحون اشتراكيون ورواد مناضلون وما إلى ذلك من كلمات جوفاء رنانة، وشعوبنا مقهورة مغلوبة على أمرها لا يستطيع الجياع من أبنائها أن يقولوا: نحن جياع!!

تذكرني هذه الأوضاع المؤسفة بحوار طريف يحكى أنه جرى بين [الإسكندر المقدوني] و[عصابة من القراصنة البحار]: كان الإسكندر من كبار الحكام الذين يملكون ممالك تكاد لا تغيب عنها الشمس، وذات يوم جاءه رجال آمنه بعصابة من اللصوص. فقال لهم: أنتم قطاع طرق وقراصنة. قالوا: نحن لا ننكر أننا قراصنة وقطاع طرق، ولكننا نسرق سفينة أو سفناً محدودة في بحر من البحار، وعددنا محدود جداً لا يتجاوز بضعة أفراد، أما أنت فأكبر قاطع طريق في العالم لأنك تغتصب السفن، والبحار، والأنهار، والأنعام، والتجارة، والزراعة، وسائر موارد الدولة وتفعل بهذه الأموال ما تشاء، أما أفراد عصابتك، فرجال الحكومة والجيش والأمن، فمن الذي أباح لك هذا وحرمه علينا؟!.

وإذا كنا لا نملك أدلة تثبت أن قصة القراصنة مع الإسكندر قد حدثت فعلاً، فعندنا أدلة أكيدة ندين بها القراصنة الثوريين الجدد. ومن هذه الأدلة الأكيدة نختار المثالين الآتين:

#### المثال الأول:

جندي باطني من بلاد الشام، كان آخر رتبة حصل عليها رقيباً في الشرطة، وكان راتبه الشهري لا يتجاوز أربعين دولاراً، وكانت زوجته رقم [١] مدرسة،

وكان يستعين براتبها ليمضي بقية شهره لأنه من المدمنين على الخمرة وغيرها من الرذائل... دارت الأيام دورتها، ووصل شقيقه إلى الحكم بطريقة مشبوهة، وخلال زمن يسير جداً أصبح الرقيب ملازماً، ثم رائداً، ثم مقدماً، ثم عقيداً، ثم لواءً، ثم حصل على شهادة الدكتوراه من جامعات موسكو، ثم نائباً لأخيه... وجميع الرتب التي حصل عليها تهون أمام الأرقام الخيالية من الأموال التي يملكها، فهو يتنقل ومنذ أكثر من عامين<sup>(١)</sup> في أوروبا، ترافقه حاشية يزيد عددها على مائتي رجل وامرأة، وينفق من الأموال ما يزيد على مليوني دولار في كل شهر، ويعقد صفقات تجارية تقدر بمئات الملايين من الدولارات، فهل سمعتم أو رأيتم أن رئيساً أو زعيماً أو إقطاعياً أو تاجراً في بلاد الشام كان يملك أو ينفق ربع أو عشر ما يملكه وينفقه هذا الضابط الثوري المغمور؟! أما الجرائم التي اقترفتها، والأخايد التي حفرها، والأرواح التي أزهقها، فليس هذا هو موضع الحديث عنها.

### المثال الثاني:

ضابط صغير من أرض الكنانة، نشأ وترعرع في بلاط فرعون هذا العصر الذي كان يكنى برائد القومية والاشتراكية، وصاحب قرارات التأميم، والذي كان يكرر في خطبه نقد [عبود باشا] أحد كبار الإقطاعيين في مصر، ويزعم أنه جاء ليحرر مصر من عبود باشا وأمثاله. كان هذا الضابط المغمور مديراً لمكتب الرجل الثاني في نظام فرعون، وكان أحد كبار المسؤولين عن التعذيب واضطهاد العلماء والدعاة

(١) كتبت هذا البحث في منتصف عام ١٤٠٧هـ.



والمفكرين في سجون ومعتقلات: القناطر، والواحات، والحربي، وغيرها وغيرها.. ثم أصبح الضابط وزيراً، وكان يعيش مع سيده - أعني الرجل الثاني في النظام - حياة حافلة بالعبث والصخب والمجون، كانوا يسهرون الليالي الحمراء مع الفاجرات والراقصات اللواتي كان لبعضهن صلات مع نظام العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة، وكانوا يشربون الخمر ويتناولون المخدرات بنهم يتصدرهم الرجل الثاني في نظام فرعون.. وكان بعض رجال الحاشية من كبار تجار المخدرات، ويتزعمون بعض عصابات تجارة المخدرات في مصر، وكان اليهود هم الذين يصدرون معظم المخدرات إلى مصر لأنهم يعرفون أين تذهب، وما مصير الذين يدمنون عليها، وبسبب هذا وغيره كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ م.

لجأ هذا الضابط المغمور إلى أوروبا الغربية، بعد هلاك فرعون ونائبه، وبعد ملاحقة القضاء له بسبب الجرائم التي ارتكبها ضد المعتقلين في سجون مصر، وفي أوروبا برز اسمه كتاجر من كبار تجار النقل البحري فيها، وكان يعقد الصفقات بمئات الملايين من الجنيهات الإسترلينية، فمن أين جاء هذا الضابط المغمور و[اللورد] الجديد بمئات الملايين؟!، أمن تجارة المخدرات، أم من صفقات الأسلحة، أم من الاختلاسات التي كان يختلسها؟!!

ليس أمامنا إلا هذه الاحتمالات، لأن راتبه لو تقاضاه منذ ولدته أمه واستمر طوال سني عمره مع المكافآت وبدلات الجلد والتعذيب لما بلغ مليون جنيه إسترليني، ومثل هذا المبلغ تبرع به فعلاً لمؤسسة صليبية غربية، بل لا يكفي مثل

هذا المبلغ لبضع احتفالات من الاحتفالات الكثيرة التي يقيمها لخاصة أصحابه من الرجال والراقصات، ويقدم فيها الخمر والمخدرات. وهذا الضابط المغمور هو أحد أركان نظام فرعون الذي زعم أنه جاء ليظهر مصر من فاروق وعبود باشا وأمثالهما، فهل كان فاروق وعبود باشا وغيرهما من الإقطاعيين والمحتررين أكثر إجراماً وفجوراً وتبذيراً لأموال الأمة من هذا الدعي وأسياده ومن هم على شاكلته؟! وأنا لا أدافع عن فاروق وعبود باشا وأمثالهما، وقد قلت فيما مضى من ذم ما قلت: لقد كان استبدادهم وانحرافهم وفسادهم مبرراً لهذه الانقلابات التي فعلت الأفاعيل في عالمنا الإسلامي.

وفي أرض الكنانة وبلاد الشام وبلدان أخرى من عالمنا الإسلامي نماذج كثيرة وكثيرة جداً لهذين الضابطين المغمورين.. لهذا ولغيره فقد انهار الاقتصاد، وتضاعفت أسعار المواد الضرورية، وكثر السلب والنهب، وأصبحت الرشوة وكأنها ضريبة من الضرائب التي تفرضها الدولة على المواطنين، وكل عام يمر علينا تزداد الأحوال الاقتصادية سوءاً واضطراباً، وثالثة الأثافي الديون الخارجية التي تحولت إلى لون من ألوان الاستعمار الحديث، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن بعض بلدان العالم الإسلامي مهددة بالمجاعة، بل إن بعضها يعاني مجاعة فعلاً كما هو الحال في السودان وبعض دول إفريقيا وبنغلادش، مع أن بلادنا من أكثر بلدان العالم خصوبة وعطاءً.

وعندما تتعالى الهمسات، وتتحول إلى صيحات استنكار، يخشى الانقلابيون

الثوريون من ثورة شعبية جارفة تقتلعهم من جذورهم فيسارعون إلى إنشاء مؤسسات حكومية لمكافحة الغش والرشاوى والتلاعب بالأسعار، ويضطرون إلى اتخاذ موقف حازم، فيفرضون عقوبات صارمة على كل من يتلاعب بالأسعار، ويبطشون بعدد من رفاقهم تحديراً للمشاعر الناس، ويزعمون أنهم سيحسمون المشكلة خلال أشهر، وتمضي الشهور والأعوام والمشكلة تزداد خطورة، ويفاجأ الناس بأن الرفاق الذين بطشوا بهم لم يكن لهم علاقة بغلاء الأسعار، وقد ذهبوا ضحية بسبب خلافات مزمنة بينهم، أما التجار والباعة فيتفننون في التلاعب والتضليل، ويسهل عليهم شراء ضمائر المسؤولين عن مكافحة الغش.. وبعد حين تحتاج مؤسسات مكافحة الغش إلى مؤسسات أخرى لمراقبتها ومكافحة ما وقعت به من غش وسرقة، وكم في بلادنا من أمثلة تؤكد على أن الذين يكافحون تهريب المخدرات ضالعون في عصابات عالمية لتهريب المخدرات، وأن الذين يكافحون تهريب النقود وغيرها من الأشياء المحذورة هم الذين يهربونها.

وإذا عمل في مسؤولية هذه المؤسسات رجل مستقيم يخشى الله، فلسوف يجد نفسه محاطاً بأجواء خانقة مسمومة، فهذا يزدريه، وذاك يعرض عنه، ومعظم من حوله في المؤسسة يكيدون له، وقد يظن صاحبنا أن العيب في المؤسسة وليس في غيرها، ويلجأ إلى الجهات العليا محاولاً الإصلاح، وربما استقبلوه استقبالاً جيداً، وأحسنوا الإصغاء لما يقول ووعدوه بالتغيير ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ولكنه يجد نفسه بعد وقت قصير منقولاً إلى مؤسسة أخرى، وليس له

فيها عمل، أو ربما كلفوه بعمل لا يتناسب مع مواهبه ومؤهلاته... والعجيب أنه قد يزوج به في السجن بتهمة الرشوة والاختلاس، وحينئذ يعلم المسكين بأن للمرتشين واللصوص الثوريين وغيرهم عصابات هرمية [مافيا] في معظم دوائر الدولة ومؤسساتها... وهذه بعض آثار المستعمرين في بلادنا.

قد يقول من يقرأ هذه الأسطر: إن المؤلف بالغ أشد المبالغة فيما ذكره عن آثار الانقلابات العسكرية وأمثالها في بلادنا، كما أنه بالغ فيما ذكره عن مؤسسات مكافحة الغش، وربما كان يعرف نماذج وأمثلة سلبية قليلة فعمم الحكم وأطلق القول، ونظر إلى الواقع بمنظار مأساوي.. لهؤلاء أقول:

لقد أوجزت القول فيما ذكرت لأنني اكتفيت بالحديث عن الظلم الذي يتصل بموضوع هذا الكتاب، ولو شئت الحديث عما تعانیه أمتنا من ظلم وقهر لكتبت مجلدات ومجلدات مزدحمة بالأرقام والأسماء والإحصائيات. وما أشرت إليه في هذا البحث ليس سراً من الأسرار، ويستطيع من يشاء أن يطلع على الفضائح التي نشرت في الصحف والمجلات ووكالات الأنباء، ويستطيع أيضاً أن يقرأ عشرات الكتب التي ألفها الرفاق بعد أن انقلب الود بينهم إلى ضده، وما أكثر العداوات والبغضاء والحروب التي تقع بين الرفاق، وهم الذين يقولون: الثورة كالقطة تأكل أولادها، كما يستطيع الباحث عن الحق الاتصال بمكاتب ومؤسسات الضابطين المغمورين الذين تحدثت عنها قبل صفحات من هذا البحث... وهناك وسائل أخرى كثيرة للمعرفة ليس هذا موضع

الاسترسال في تعدادها وبيان كيفية الوصول إليها.

أما الدعاة المصلحون الذين يستغربون ما كتبناه، وما سوف نكتبه إن شاء الله عن الظلم والتسلط والفساد، فننصحهم أن يحيطوا بأمراض عصرهم ومشكلاته، ولن يحل هذه الأمراض والمشكلات إلا من كان يعرف حجمها، وزمن نشوئها، ومن الذين أصيبوا بعدواها، وما البديل عنها... وليعلم إخواننا الدعاة أن الدنيا ليست قاصرة على مساجدهم، وبيوتهم، وأقربائهم، والقلة القليلة من أصدقائهم، والكتب التي ألفوا دراستها، فهناك جوانب أخرى من المجتمع يجب الاطلاع عليها، ومعرفة ما يحدث فيها.

وبعد:

(لقد شهدنا والحمد لله فشل الظالمين المفسدين الذين رباهم الاستعمار وصنعهم على عينه، وجعل منهم أبطالاً ومناضلين ومنقذين وقادة، وسلمهم زمام الأمور قبل أن يرحل عن بلادنا، فكانوا أسوأ خلف لأسوأ سلف... وشهدنا فشل الأحزاب: الاشتراكية، والرأسمالية، والقومية، وسائر دعاة العلمانية وأصحاب العقائد المستوردة الدخيلة... شهدنا فشلهم، وتكشفت مخازيمهم لجميع أصحاب العقول والأبصار)<sup>(١)</sup>.

وسوف نمضي في رحلتنا الممتعة الشيقة مع أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة

(١) انظر باب [ما أشبه الليلة بالبارحة] في كتاب دراسات في السيرة للمؤلف.

والتسليم في دعوتهم وجهادهم، فطريقتهم هو الطريق الموصل إلى مرضاة الله  
سبحانه وتعالى... سنمضي ونحن نردد:

إذا لم تكونوا مثلهم فتشبهوا      إن التشبه بالكرام فلاح



## المبحث الثاني

## الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم

## أولاً: الأدلة من الكتاب

في كتاب الله الكريم بضع مئات من الآيات القرآنية التي تحدثنا عن الأمم والشعوب التي أهلكتها الله سبحانه وتعالى بسبب ظلمها وفسادها في الأرض وجعلها عبرة لمن يعتبر، وتنفر هذه الآيات من الظلم والظالمين، وتحذر من الفسوق والعصيان، وتدعو إلى وجوب التزام العدل في القول والعمل.

وإذا كان من المتعذر استقصاء هذه الآيات في مثل هذا البحث... فنكتفي باختيار نماذج منها:

- في وقت مبكر من بعثة المصطفى ﷺ أنزل الله سبحانه وتعالى آيات قرآنية تحذر من تطفيف الكيل، ولذلك سبب مهم، فمكة المكرمة إبان البعثة كانت مركزاً تجارياً مهماً، وكانت صلة الوصل بين اليمن والشام من جهة، وبين الحبشة ومناطق شرق الجزيرة العربية من جهة أخرى، وكان التجار وأصحاب الحاجات من القرى والبوادي يتدفقون عليها ليباعوا كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس... وكذلك كان حال يثرب -أي المدينة المنورة-، وإن كان مركزها التجاري أقل شهرة من مكة. ومن هنا يظهر الشبه واضحاً بين مركز مدين التجاري، عند بعثة شعيب عليه السلام، ومركز مكة والمدينة عند بعثة المصطفى ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين] والمطفف: الذي لا يوفي الكيل. وقال الزجاج: أنها قيل: مطفف، لأنه لا يكاد يسرق في الميزان والمكيال إلا الشيء الطفيف، وإنما أخذ من طف الشيء وهو جانبه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: من الناس، فكانوا إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل، وكذلك إذا اتزنوا، وإذا كالوا أو وزنوا لهم ينقصون. قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(عندما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ...﴾ وبعد نزول هذه الآيات أحسن أهل المدينة الكيل والوزن)<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿أَلَا تَطْغَوْنَ فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ

(١) انظر ابن ماجه: (٧٤٨/٢)، والطبري: (٩١/٣٠)، وأورد السيوطي في [الدر]: (٣٢٣/٦)، وزاد نسبه إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في [شعب الإيمان] بسند صحيح عن ابن عباس، عن حاشية زاد المسير. وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول (١٧٠)، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.



الْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ [الإسراء]

قوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العدل الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾: العهد عام فيما بين العبد وبين ربه، وفيما بينه وبين الناس، وقال آخرون: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد.

- وعن حال الظالمين يوم القيامة يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۗ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا آفَئِمَّةً مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم].

ومن إبداعات سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

(والرسول ﷺ لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون، ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله، لا يراه واقعاً بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب الأخذة الأخيرة، التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها. أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه

الأبصار من الفزع والهلع، فظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك. ثم يرسم مشهداً للقوم في زحمة الهول... مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكاً.

يتمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئاً يعونه أو يحفظوه أو يتذكروه، فهي هواء خواء<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿.. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء] وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم). اهـ

- وفي سورة هود أخبرنا جلّ وعلا عن أحوال المكذبين لأنبياء الله ورسله وكيف دمرهم سبحانه وتعالى وفي ختام هذا العرض قال جلّ من قائل: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يملئ للظالم، فإذا

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢١١١)، دار الشروق.

(٢) الحصيد: الذي قد أبيض وحصد، وتنيب: أي تدمير وإهلاك.

أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١)

- وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة]

- وفي آيات كثيرة بين لنا جلَّ وعلا بأنه يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما بين لنا جلَّ وعلا بأنه يحب المقسطين ويكره الظالمين. قال تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة] وقال: ﴿.. وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة] وقال ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿.. فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل] وقال: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

(١) رواه مسلم في صحيحه، انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري، باب في الإملاء للظالم، الحديث رقم (١٨٣١).

### ثانياً: الأدلة من السنة

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»<sup>(١)</sup>.

قوله: «المسلم من المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...» من لسانه: كالشتم، والغيبة، والنميمة... ومن يده: كضرب، أو السرقة، أو الاغتصاب.

وليس المراد في هذا الحديث نفي أصل الإسلام عمن يظلم المسلمين كما يعتقد أهل الغلو، وإنما المراد نفي تمامه وكماله، فالظالم قد يكون فاسقاً أو مجرمًا، ولا يجوز رميه بالردة والكفر إن كان لا ينكر معلوماً من الدين بالضرورة<sup>(٢)</sup>.

ومن فقه هذا الحديث أن مسالة المسلمين واجبة أصلاً، ومسالة غيرهم واجبة تبعاً لهم لمسالتهم إياهم<sup>(٣)</sup>، فلا يجوز الاعتداء على أهل الذمة، أما المحاربون منهم فلا يجب كف الأذى عنهم بل الواجب رد عدوانهم.

- وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روي عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي

(١) متفق عليه، انظر الفتح: (١/٥٤)، كتاب الإيذان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. ط السلفية. ثم قال الحافظ: وهذا من أفراد البخاري على مسلم، فيلاحظ هذا.

(٢) انظر الحكم بغير ما أنزل الله، وأهل الغلو، الجزء الأول، الفصل الخامس، بدعة تكفير مرتكبي الكبائر، للمؤلف.

(٣) انظر المختار من كنوز السنة، د. محمد عبدالله دراز، (٣٦٢).

كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم... إلخ»<sup>(١)</sup>.

-وسأل رسول الله ﷺ المسلمين في حجة الوداع:

«... فأبي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيُسميه بغير اسمه. قال: أليس البلدة؟ «وفي نسخة البلد الحرام» قلنا: بلى. قال: فأبي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيُسميه بغير اسمه. فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا تزرعوا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب فلعن بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه» ثم قال: «ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد»<sup>(٢)</sup>.

وعن معاذ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ فقال: «إني أتيت قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على

(١) رواه مسلم في صحيحه، انظر مختصر صحيح مسلم للمنذري، كتاب الظلم، الحديث (١٨٢٨).

(٢) متفق عليه، والحديث جزء من خطبة الوداع، انظر الفتوح: (٣/٥٧٣)، كتاب الحج باب الخطبة أيام

منى، وانظر مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ: (٢/٨٨٦، ح ١٤٧) ط. فؤاد عبد الباقي.

فُقَرَاءِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»<sup>(١)</sup>.

(والكرائم: جمع كريمة أي نفيسة، ففيه ترك أخذ خيار المال، والنكتة فيه أن الزكاة لمواساة الفقراء فلا يناسب ذلك الإجحاف بهال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك. قوله: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أي تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم. وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم.

وقوله: «حجاب» أي ليس لها صارف يصرفها ولا مانع، والمراد أنها مقبولة وإن كان عاصياً كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه» وإسناده حسن<sup>(٢)</sup>.

وقد اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث لأن هناك أحاديث أخرى سأذكرها عند الحديث عن أنواع الظلم ووجوب نصره المظلوم.

### أنواع الظلم

\* **الظلم الأكبر:** ومن الظلم الأكبر الإشراف في عبادة الله. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَكَ تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة وفي التوحيد، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، وأخرجه أبو داود الترمذي والنسائي وابن ماجه في الزكاة.

(٢) فتح الباري، الحاشية، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الاغنياء: (٤/ ١٠٢)، الحلبي.

عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴿ [لقمان] ومن الظلم الأكبر أيضاً الكفر بالله. قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ [البقرة] وقال: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩١﴾ [الإسراء] وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ءَأَن ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة].

فالذين يتعدون حدود الله، أو يرفضون تحكيم شرعه مجرمون ظلمة، وإن رفعوا راية العدل والمساواة.

قال تعالى: ﴿.. وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة] وقال: ﴿.. وَمَن يَنعَدِّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣٩﴾ [البقرة].

والذين يتولون الكافرين ظلمة. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَّبِعُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمُ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُوَلُّوهُمْ وَمَن يُوَلِّهِمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [المتحنة] وقال: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَاُولَٰئِكَ

هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة].

والذين يجحدون بآيات الله ظالمون، وإن زعم أنصارهم بأنهم أبطال ومن رواد الوطنية والاستقلال. قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ [الأنعام]

لقد التبست هذه الحقيقة الناصعة البينة الجليلة على أنصاف المثقفين وجمهور العامة من أبناء أمتنا وما أكثرهم، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك بلاد الشام، فالناس فيها قد افتتنوا بشخصيات صليبية مشرقة حاقدة، أو شيوعية كافرة ماكرة... وكثيراً ما كنت أسمع أناساً من أنصاف المثقفين يقولون لي ولغيري:

إن [ميشيل عفلق] خير من شيو خكم ودعاتكم، لأنه نصير للعمال والفلاحين، ورائد من رواد الوطنية والتحرر والوحدة، ومناضل جريء... وكنا نحاول إقناع هؤلاء الضائعين بحقيقة عفلق، والذين وراء عفلق، ولكن هيهات... ومضت الأيام وابتليت بلاد الشام بعفلق وحزبه، فذاق الناس الويلات والنكبات، ولم يسلم أنصاف المثقفين هؤلاء!! من جحيم عفلق وحزبه، فنفر منهم أعدم، وبعضهم لا يزال رهين سجون الوحدة والحرية!!، وبعضهم الآخر تمكن من الهرب وعاش في المنفى... وبعد سنين من القهر والبطش والتسلط أدرك المسلمون وغيرهم أن عفلق وزملاءه وجميع أعضاء حزبه من أظلم الظالمين!!

ما هكذا يا سعد تورد الإبل، ولا ينبغي أن تتحكم العواطف الهوجاء



بعقولنا... وحكمنا على الآخرين يجب أن ينطلق من معرفتنا لعقائدهم وتصوراتهم ومناهجهم، فإن كانوا يهوداً أو نصارى أو شوعيين أو علمانيين ملاحدة نعتناهم بما يستحقون... ولا تتم هذه المعرفة عن طريق التجارب البشرية والممارسات الشخصية، ولا يجوز بحال من الأحوال أن نضيع ثلاثين عاماً من تاريخ أمتنا لنعرف فيما إذا كان عفلق ظالماً أو غير ظالم... وقد يتعلق أنصاف المثقفين بطاغوت آخر بعد عفلق ويجدون من يسير وراءهم في صحراء التيه.

والذي نريده من العلماء الدعاة المخلصين أن يبينوا لجمهور الأمة القواعد والضوابط الشرعية التي نعرف من خلالها الظلم وأنواعه. نريد من العلماء الدعاة المخلصين أن يبينوا لجمهور الأمة معاني ومدلولات قوله تعالى: ﴿..وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة]، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ﴾ [الأعراف: ٣٧] وقوله: ﴿..فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ [الأنعام: ١٤٤] وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ..﴾ [العنكبوت: ٦٨].

إن ظلم الذين يجاربون الله ورسوله، ويتخذون من أنفسهم آله، ويسخرون من شريعة الله، ويفترون على الله الكذب... لا يقارن -ظلم هؤلاء- بظلم الذين يغتصبون مالاً أو عقاراً إذا كانوا لا يؤمنون بغير الإسلام ديناً، ولأنهم قد يتوبون وينيبون إلى الله تعالى، فهل يوضح العلماء الدعاة هذه الحقيقة لجمهور الأمة!؟

هل يوضح العلماء الدعوة لجمهور الأمة حقيقية المستعمرين الجدد من الأمريكان والسوفييت، وأن ظلمهم لا يقارن بظلم قطاع الطرق وزعماء العصابات، وهل يبينون حكم موالاتهم... ويكون ذلك بالأدلة والأرقام، وليس بالشتائم والعواطف الجوفاء، نرجو ذلك.

\* **ظلم الناس:** وهو ظلم العبد لغيره من عباد الله ومخلوقاته، كالاغتداء على أموالهم أو أعراضهم أو أبدانهم، ومن المؤكد أن الظالم المعتدي يكون من الأقوياء، كولاة الجور، وبعض شيوخ القبائل، وزعماء الانقلابات العسكرية وغيرهم وغيرهم، ولهذا فقد كان بعض السلف يقول: لا تظلم الضعفاء فتكون من أشرار الأقوياء<sup>(١)</sup>... والأحاديث الآتية تبين لنا خطورة هذا النوع من الظلم.

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»<sup>(٢)</sup>.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدَّنَ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلهاء من الشاة القرناء»<sup>(٣)</sup>. والشاة الجلهاء: الجهاء التي

(١) كتاب الكبائر، للإمام الذهبي، مكتبة الرياض (ص ١١٥).

(٢) رواه مسلم، المنذري، باب تحريم الظلم حديث (١٨٢٩) والبخاري، باب الظلم ظلمات يوم القيامة.

(٣) رواه مسلم، المنذري، حديث (١٨٣٧).

لا قرن لها، ويقاد: يقتص... والقصاص بين الحيوانات يوم القيامة، ليس من قصاص التكليف، ومع ذلك لا بد من القصاص، فليتعظ بهذا العقلاء.

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». وقيد: أي قَدَرَ. وفي رواية أخرى للبخاري في صحيحه عن سالم عن أبيه [أي عبد الله بن عمر] رضي الله عنهم قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا بغيرِ حَقِّهِ خَسَفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup>.

- وعن أبي حميد عبد الرحمن بن سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

«اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدِي إِلَيَّ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُنْبَرِ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدَ فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ نَمًّا وَلَا نِيَّةَ اللَّهِ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتُ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بغيرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بغيرِ أَلِهِ رُغَاءً أَوْ بَقْرَةً لَهَا خُورًا أَوْ شاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَوَى بَيَاضَ إِبْطِيهِ فَقَالَ:

(١) رواه البخاري، فتح الباري، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض (٧٤ / ٥) دار

المعرفة - بيروت، ورواه مسلم (١٤٣١ / ٣) كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم، ط عبد الباقي.

اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ»<sup>(١)</sup>.

الرغاء: صوت البعير، والحوار: صوت البقرة، وتيعر: أي الشاة تصيح..  
وأصوات الحيوانات تفضح المرتشي - وكل من يستغل وظيفته - يوم الحشر  
والندامة.

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

«كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ فَمَاتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُوَ فِي  
النَّارِ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا»<sup>(٢)</sup>.

كان على ثقل: العيال وما يثقل حمله من الأمتعة، ويشير الرسول ﷺ إلى السبب  
الذي أدخله النار. والغلول: الخيانة في المغنم. وفي الحديث تحريم قليل الغلول  
وكثيره<sup>(٣)</sup>.

- وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(١) متفق عليه، البخاري كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾ ومحاسبة المصدقين  
انظر الفتح: (٣/٣٦٥)، ط السلفية، ومسلم: (٣/١٤٦٣) كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال،  
وأبوداود: (٣/٣٥٤)، كتاب الخراج والإمارة، باب هدايا العمال.

(٢) رواه البخاري: كتاب الجهاد، باب القليل من الغلو، وأخرجه ابن ماجه ابن ماجه في كتاب  
الجهاد، باب الغلو: (٢/٩٥٠)، ط عبد الباقي.

(٣) فتح الباري: (٦/١٨٧-١٨٨) شرح الحديث للحافظ، ط السلفية.

«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: وإن قضيباً من أراك»<sup>(١)</sup>.

اقتطع: أي أخذ. والأراك: شجر معروف يستاك بأعواده.

يطير قلب المسلم الصادق هلعاً وتخور قواه، وهو يقرأ تلك الأحاديث ويتأمل معانيها... فمن منا يطيق لهيب جهنم وشررها ثم يكون ذلك مقابل عبادة اغتصبها في الدنيا؟!.

ومن منا يقبل أن تكشف أوراقه وتهتك أستاره يوم الحشر والندامة، والخلائق كلها تشهد فضيحته؟!.

ومن منا يقدر على حمل الإبل والأبقار والشيء والخيول... يحملها وهي تصيح ليعرف أهل المحشر ماذا كان يفعل هذا الظالم في الدنيا؟!.

وهؤلاء المتسلطون الظلمة من ولاية الجور لست أدري كم ستحمل رقابهم من أراض وأنعام وأموال؟!.

لقد مضوا بأوزارهم، وتركوا ما اغتصبوه لأبنائهم، والأبناء ينفقون المال الحرام فيما يغضب وجه الله من فسق وفساد، والآباء يعذبون بسبب الظلم وسوء تربية الأبناء.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينه.. حديث (٢١٨)، ط عبد الباقي.

وإذا كان الظالم من الرعية يخاصمه عدد محدود من المظلومين، فالحاكم الظالم المتسلط تخاصمه الرعية كلها، قال معقل بن يسار المزني: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته؟ إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة»<sup>(١)</sup>. والشاهد هنا قوله ﷺ «.. إلا حرم الله عليه الجنة»، وقليل جداً من هؤلاء الظلمة من يتعظ، وبعضهم يمرض ويشتد مرضه، ويرى الموت بعينه، ثم يكتب الله له الشفاء، ومع ذلك لا يرتدع ولا يتوب، بل يستمر في ظلمه وفجوره والعياذ بالله.

إن الخطب جَلَل، والموت آت لا ريب فيه، ووعد الله حق، ولا بد من التوبة الصادقة، فليحذر كل مسلم من الظلم، وليتق الله: الوالد مع أبنائه وأهل بيته، والرئيس مع مرؤوسيه، ورحم الله من قال:

كسبت يداك اليوم بالقسطاسِ	فخفِ القصاصَ غداً إذا وقيتَ ما
أو مهطعٌ أو مقنعٌ للرأس	في موقفٍ ما فيه إلا شاخصٌ
نارٌ وحاكمُهُم شديدُ الباسِ	أعضاؤهم فيه الشهود وسجنُهُم
فغداً تؤديها مع الإفلاسِ <sup>(٢)</sup>	إن تَمَطَّلِ اليومَ الحقوقَ مع الغنى

ولما كانت التوبة من ظلم الناس تتعلق بحق آدمي، فيضاف إلى الشروط الثلاثة

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من غش رعيته ولم ينصح لهم.

(٢) كتاب الكبائر، للذهبي، (١٢٠).

الواجب توفرها في التوبة [الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها] شرط رابع وهو التحلل من المظلوم، (فإن كان مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كان حدّ قذف ونحوه ممكنه منه أو طلب عفوّه، وإن كانت غيبة استحله منها)<sup>(١)</sup>.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيءٍ فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ أخذ منه بقدرٍ مظلمته، وإن لم يكن له حسناتٌ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»<sup>(٢)</sup>.

\* ظلم النفس: ما فيه ظلم للنفس فقط كشرب الخمر والزنا، وقد يجتمع النوعان [الثاني والثالث]، مثل أن يأخذ الحاكم أموال الناس يزني بها ويشرب بها الخمر<sup>(٣)</sup>.

والعاصي ظالم للنفس لأنه يوردها موارد الهلاك، ويدنسها بالخبائث والسيئات. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس] وقال عليه السلام: «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»<sup>(١٧)</sup> [آل عمران]، والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(١) رياض الصالحين، للنووي، باب التوبة.

(٢) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته، فتح الباري: (٧٣/٥)، دار المعرفة.

(٣) الاستقامة لابن تيمية: (٢/٢٤٦) تحقيق محمد رشاد سالم.

وهذه الذنوب - أي ذنوب النوع الثالث من الظلم - بين العباد وبين ربهم إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عاقبهم.

### نصر المظلوم

- عن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع»، وذكر من الأمور التي أمر بها الرسول ﷺ: «نصر المظلوم»<sup>(١)</sup>.

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن الرسول الله ﷺ قال:

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربةً، فرج الله بها كربةً من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

قوله: «ولا يسلمه» أي لا يتركه مع من يؤذيه بل ينصره ويدفع الظلم عنه.

«ونصر المظلوم» الذي ورد في حديث البراء بن عازب يكون بمنع الظالم عن ظلمه، والوقوف إلى جانب المظلوم وجوباً على من قدر على ذلك بفعله أو قوله.

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر فتح الباري، باب نصر المظلوم (٧٢/٥) دار المعرفة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٧٠/٥)، انظر فتح الباري: (٧٠/٥)، دار المعرفة.



وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فقال رجل: يا رسول الله أنصُرُهُ إذا كان مَظْلُومًا  
أرأيت إن كان ظالِمًا كيف أنصُرُهُ؟ قال: تَحْجُزُهُ -أو تَمْنَعُهُ- من الظلم فإن ذلك  
نَصْرُهُ»<sup>(١)</sup>.

«أرأيت»: أي أخبرني. تحجزه: أي تجعل نفسك حاجزاً له.

وأول من قال: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» جندب بن العنبر بن عمرو بن  
تميم، وأراد بذلك ظاهره وهو ما اعتاده من حمية الجاهلية لا ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم، وفي  
ذلك يقول شاعرهم:

إذا أنا لم أنصر أخِي وهو ظالم      على القوم لم أنصر أخِي حين يظلم<sup>(٢)</sup>

وقال ابن حجر العسقلاني عن نصر المظلوم:

(هو فرض كفاية وهو عام في المظلومين وكذلك في الناصرين بناء على أن فرض  
الكفاية مخاطب به الجميع وهو الراجح، ويتعين أحياناً على من له القدرة عليه وحده إذا  
لم يترتب على إنكار مفسدة المنكر فلو علم أو غلب على ظنه أنه لا يفيد سقط الوجوب  
وبقي أصل الاستحباب بالشرط المذكور، فلو تساوت المفسدتان تخير، وشرط الناصر

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالماً أو مظلوماً.

(٢) فتح الباري، نقله ابن حجر العسقلاني عن الفضل الضبي في كتابه الفاخر، (٥/ ٧٢).

أن يكون عالماً بكون الفعل ظلماً وهدده إن لم يبذله، وقد يقع قبل وهو كثير<sup>(١)</sup>.

وشرع الله للمظلوم أن يدفع عن نفسه الظلم بطرق مختلفة منها أن يشن حملة إعلامية ضد الظالم إلى أن يحصل على حقه، شريطة أن يكون صادقاً في كل ما يقوله، وأن يكون قصده الحصول على حقه، وليس إيذاء الظالم وتشويه سمعته. قال تعالى: ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠ ﴾ وَلَمِنَ أَنْصَرٍ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ٤١ ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ ﴾ وَلَمِنَ صَبْرٍ وَعَفْرٍ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنَ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ ﴾ [الشورى]، قال ابن كثير رحمه الله: ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وكقوله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ٥٥ ﴾ الآية، فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ٥٦ ﴾ ولهذا قال ما هنا: ﴿ فَمَن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة، ثم قال جَلَّ وَعَلَا:

(١) المصدر السابق، باب نصر المظلوم (٥/٧٢).

﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء].

وقال النووي رحمه الله: (اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا... ثم ذكر الخمسة الباقية)<sup>(٢)</sup>.

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: أخرج متاعك، فضعه على الطريق، فأخذ الرجل متاعه، فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جاري يؤذيني فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه. قال: فقال: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أؤذيك أبداً»<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير ابن كثير: (٤/١١٨)، دار إحياء التراث العربي.

(٢) رياض الصالحين للنووي، باب ما يباح من الغيبة، (٥٣٨)، تحقيق الألباني.

(٣) رواه أبو داود: (٤/٤٦٠)، والبخاري في الأدب المفرد: (١/٢١٦)، وهو حديث حسن. انظر

حاشية زاد المسير: (٢/٢٣٧).

### نظرية شاملة

وهكذا نرى أن موقف الإسلام من الظلم يتسم بالعمق والشمولية والواقعية، فمن جهة نكاد لا نجد آية أو حديثاً إلا وقد جاء فيها التحذير من سوء العاقبة مرادفاً للتحذير من الظلم.

انظر إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء].

وانظر إلى قوله ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه سبع أرضين» وقوله: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة».

والمسلم العاقل المنصف يكفيه هذا التحذير ليتوب إلى الله إن كان قد ظلم نفسه أو ظلم أحداً من عباد الله.

ومن جهة أخرى، فالمسلم قوي لا يرضى الضعف والهوان، عزيز لا يقبل الخنوع والذل، ولهذا فقد شرع الله له الدفاع عن نفسه إذا لحقه ظلم، وإذا مات وهو يدافع عن عرضه وماله فهو شهيد... وإذا علم الظلمة بأن الذين سيعتدون عليهم لن يستسلموا وسيقاومون العدوان سيفكرون طويلاً، ولن يقدموا على عمل إذا كانوا يعلمون أنه سوف يكلفهم خسائر فادحة.

ومن جهة ثالثة، فالمسلمون أعضاء في جماعة واحدة تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتها أدناها... ولن يقبل أعضاء هذه الجماعة أن يعتدى على أخ من إخوانهم وهم صامتون لا يدافعون عنه.. لن يقبلوا لأن دينهم أمرهم بنصر المظلوم وكبح جماح الظالم، وإذن فالمسلمون جميعاً مع المظلوم حتى يأخذ حقه ويسترد حرّيته.

ومن جهة رابعة، فالقوانين الإسلامية مع المظلوم ولو كان نكرة ليس له جاه ولا سلطان، ضد الظالم ولو كان أحد الولاة أو من كبار أهل الحل والعقد، وإمام المسلمين مسؤول أمام الله ثم أمام رعيته عن تنفيذ هذه القوانين، ولا يجوز أن يقدم عليها قولاً أو عملاً. والحق والمساواة إلا في ظل هذه القوانين.

ومن جهة خامسة، فلقد كان أنبياء الله ورسله.. ومن سار على نهجهم من المصلحين المجددين نماذج طيبة، وكانت هذه المعاني الرائعة تعيش في ضمائرهم ودمائهم ومشاعرهم، وبصدقهم مع ربهم وسعيهم الحثيث تمكنوا من تحويل هذه المعاني والأفكار إلى حقيقة ملموسة تتحرك في واقع الأرض.

وبعد: هذا هو منهج الأنبياء في مقاومة الظلم والظالمين... وهذا هو الإسلام في شموله وإحاطته بالمشكلات من كافة جوانبها، فإذا كان هناك من يقول: ولكن واقع المسلمين اليوم خلاف ذلك!! نقول له: نحن نحتج بالإسلام على هذا الواقع ولا يجوز العكس.

## الفصل الثاني

\* المبحث الأول: كلمة موجزة عن سيرة شعيب عليه السلام.

\* المبحث الثاني: دعوة شعيب عليه السلام .

## المبحث الأول

### كلمة موجزة عن سيرة شعيب عليه السلام

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة... وتقع مدين في ممر قوافل التجارة، وكان هذا الموقع يعطيها أهمية كبيرة، ويميزها عن غيرها من المدن القريبة منها، وفي حديث أبي ذر الذي رواه ابن حبان في صحيحه في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر»<sup>(١)</sup>.

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الآيك حولها غيظة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة بيخسون المكيال والميزان ويطففون فيها، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن التعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم، وكفر أكثرهم حتى أحل الله

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. انظر: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، ص (٥٢٠) ح (٩٤)، باب

السؤال للفائدة، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

بهم البأس الشديد.

وزعم بعض المفسرون كقتادة وغيره أن شعيباً عليه السلام بعث إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة.. وعمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [الشعراء]، ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا مَّسْؤَمَةً..﴾ [هود: ٨٤]

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلّة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة. والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) [الشعراء] لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة، وأما احتجاجهم بيوم الظلة فإن كان دليلاً على أنها أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن... وتتبع ابن كثير الأحاديث التي استدلت بها القائلون بأن أصحاب الأيكة غير قوم مدين فيين ضعفها وأنه لا يجوز الاحتجاج بها.

وقد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان فدل على أنهم أمة واحدة أهلكوا بأنواع من العذاب... وقال ابن حجر العسقلاني بعد أن فنّد أقوال المخالفين وبين بطلانها: (والجمهور على أن



أصحاب مدين هم أصحاب الأيكة).

### هل شعيب هو صهر موسى عليهما السلام؟

ساق ابن جرير الطبري أقوال الذين يقولون بأن شعيباً هو صهر موسى عليهما السلام... ثم ساق أقوال الذين يقولون بأنه ليس شعيباً نبي الله.. ثم قال معقباً:

(وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته فلا قول في ذلك

أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه) اهـ، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿... وَأَبُونَا

شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ [القصص]. وقال ابن كثير:

(وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال. أحدها: أنه شعيب

النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء. قال: وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم

شعيب، قال: وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة

طويلة، لأنه قال لقومه: ﴿... وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ [هود] وقد كان

هالك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين

الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة كما ذكره غير

واحد، قال: وما قيل: إن شعيباً عاش مدة طويلة إنها هو - والله أعلم - احتراز من

هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص

على اسمه في القرآن ها هنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في

قصة موسى، لم يصح إسناده).

وقد ورد اسم شعيب عليه السلام في القرآن الكريم عشر مرات، أما الآيات التي ورد فيها الحديث عن دعوته وصراعه مع قومه:

سورة الأعراف: ٨٥-٩٣.

سورة هود: ٨٤-٩٥.

سورة الشعراء: ١٧٦-١٩٠.

سورة العنكبوت: ٣٦-٣٧.<sup>(١)</sup>

---

(١) اعتمدت فيما كتبه عن سيرة شعيب عليه السلام على المصادر التالية:

البداية والنهاية: (١/١٨٤-٢٤٤)، وتفسير ابن كثير: (٣/٣٨٤)، الباي الحلبي، فتح الباري - الشرح - (٦/٣٢٤)، الباي الحلبي، تفسير الطبري، سورة القصص من الآية [٢٢-٢٨]، ج (٢٠)، ص (٤٠).

## المبحث الثاني

## دعوة شعيب عليه السلام

**أولاً: دعاهم إلى وحدانية الله تعالى**

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى وحدانية الله تعالى، وعدم الإشراف به. قال تعالى: ﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا نَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود].

وقال:

﴿وَالِى مَدِينِ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا نَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود].

وعندما كان قومه يقابلون دعوته بالتكذيب والاستخفاف والسخرية، كان

عليه السلام يخوفهم من بأس ربهم، ويأمرهم بتقواه وطاعته. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ

أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا

اللَّهُ وَأَطِيعُونَ ﴿١٧٨﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾  
 [هود]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء]، وقال:  
 ﴿قَالَ رَبِّي أَعَلَّمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء].

لقد بدأ شعيب بما بدأ به نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، ﴿... يَقَوْمِ  
 أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...﴾ [الأعراف: ٥٩]، وربط مشكلات عصره  
 بالعبودية: ﴿... قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا  
 الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...﴾ [هود: ٨٤]، ﴿... وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيَاءَ هُمْ  
 وَلَا يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا..﴾ [الأعراف: ٨٥]، ففي هذه  
 الآيات وغيرها تأكيد من الله سبحانه وتعالى على أن الذين يعبدون الله حق العبادة  
 لا ينقصون المكيال والميزان، ولا يبخسون الناس أشياءهم، ولا يفسدون في  
 الأرض، وعن غير هذا الطريق لا يكون هناك إصلاح ولا عدل ولا مساواة بين  
 الناس... ومثل هذه المسألة ينكرها العلمانيون، ومن سار على نهجهم ودعا  
 بدعوتهم من المنحرفين الذين ابتليت بهم أمتنا في هذا العصر الذي يعج بالفتن  
 والمصائب، ويتساءل هؤلاء العلمانيون باستغراب: مالنا وشعيب؟! وما علاقة  
 الصلاة والصيام وعبادة الله بغلاء الأسعار، والاحتكار، والبطالة، والرشوة؟!.

إن الذين حُرِّموا نعمة الإيمان يفكرون بمثل هذه الأفكار، ويرون بأنهم قادرون

على تحقيق العدالة الاجتماعية بما يرسمون من قوانين ومبادئ لا علاقة لها بالإيمان والإسلام، وربما نجح بعضهم في حل مشكلة غلاء الأسعار حيناً من الزمن، ولكن هذا النجاح يكون على حساب أمور أخرى تعد أشد خطراً وأكثر ظلماً من غلاء الأسعار كالاستبداد والبطش والإرهاب.. ومن جهة أخرى فقد تحدثت في الفصل الأول [صور من الظلم في القديم والحديث] عن فشل مثل هذه الأنظمة والأحزاب والمبادئ، ولم يعد الفشل سراً من الأسرار. لقد افترض أمرهم، وهتكت أستارهم، وظهر زيفهم، وانفض عنهم ألصق الناس بهم.

وعلى نقيض ذلك فلقد نجح شعيب ومن سبقه أو جاء بعده من أنبياء الله أيما نجاح لأنهم انطلقوا من الدعوة إلى وحدانية الله تعالى، ومن أخص معاني التوحيد: الانقياد المطلق لأوامر الله تعالى. قال جلّ من قائل: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]، وتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي ينقاد، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي موحد.

(ولفظ الإسلام: [والإسلام دين أنبياء الله جميعاً] يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ

وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ .. ﴿ [الزمر: ٢٩] فلا بد في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: [لا إله إلا الله] فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر] (١).

والله جلّ وعلا الذي أمر المسلمين بالصلاة والصوم، والحج، والزكاة، هو الذي أمرهم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم تطفيف الكيل والميزان، وحب الله ورسوله، وخشيته والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه وأمثال ذلك من العبادة التي عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: (العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الباطنة والظاهرة) (٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [١١٢] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام] ولا يعد مسلماً من جحد معلوماً من الدين بالضرورة، أو زعم أنه لا علاقة لدين الإسلام بالسياسة والحكم، أو بإباحة الربا وما إلى ذلك.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية: (٢/ ٨٣٦). تحقيق الدكتور ناصر العقل.

(٢) انظر كتاب العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء].

إن الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه يعدلون في أقوالهم وأفعالهم، ولا يبخسون الناس أشياءهم، ولا يظلمون أحداً من الناس، أو حتى من البهائم التي يملكونها، ويخشون الله أشد الخشية لأنه يعلم سرهم ونجواهم. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة] ويخافون بطش الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج] وقال: ﴿ ... إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود].

وقد لا يكون للقانون ورجال القانون سلطان على هؤلاء المؤمنين لأن المظلوم لا يملك دليلاً ضدهم... ولكن عقوبة الدنيا لا قيمة لها أمام ما أعده العلي القدير من عقوبات زاجرة ينتقم بها من الظالمين المتجبرين... ولهذا يسارعون إلى رد الحقوق لأصحابها، وإلى إرضائهم ولو طلبوا أضعاف حقهم، ويتوبون إلى الله جلّ وعلا ويرجون غفرانه ورحمته.

ومن هنا نعلم لماذا ابدأ شعيب وجميع أنبياء الله ورسله بالدعوة إلى وحدانية الله تعالت أسماؤه وصفاته.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا  
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ [النحل] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن  
قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء]

ومن هنا ندرك لماذا أمضى شعيب عليه السلام سني عمره في النبوة يربي جيلاً  
شعاره الانقياد المطلق والإذعان التام لأوامر الله ونواهيه... وهذا سر نجاح أنبياء  
الله ورسله ومن سار على نهجهم.

### ثانياً: جاءهم ببينة

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا  
لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ  
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا الْبَخْسُ أَسْيَاءٌ هُمْ وَلَا يُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ  
إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف]

والشاهد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جاءتكم (معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان بي والأخذ بما  
أمركم به والانتهاز عما أنهاكم عنه)<sup>(١)</sup>، ولم يبين لنا جلَّ وعلا نوع هذه المعجزة،

(١) انظر ما قاله صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية.



وحسبنا أنها معجزة، وليست أدلة وبراهين عقلية كما زعم بعض المفسرين من أهل الاعتزال أو من دعاة المدرسة الإصلاحية في هذا العصر الذين أُشربوا حب الحضارة الغربية... ودليلنا على أنها معجزة ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)<sup>(١)</sup>.

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث: («ما من الأنبياء نبي إلا أعطي» هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ولا يضره من أصر على المعاندة. [من الآيات] أي المعجزات الخوارق.

«ما مثله آمن عليه البشر.» والمعنى أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها، والنكتة في التعبير بها «وعليه» تضمنها معنى الغلبة أي يؤمن بذلك مغلوباً عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه لكن قد يجحد فيعاند كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] «وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي» أي أن معجزتي التي تحدت بها هي الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أن المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها

(١) فتح الباري، الحلبي: (٦/١٧).

بعينه غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه.

«فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» لأن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: كان - عليه السلام - قدوة حسنة

كان شعيب عليه السلام قدوة حسنة في سمو خلقه، ورجاحة عقله، وعفة لسانه، وعلو همته، وصفاء سريرته، ورباطة جأشه، فبعد أن دعا قومه إلى وحدانية الله تعالى، وإلى العدل والمساواة والرحمة قال بكل صدق وثقة:

﴿ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود]

قوله: ﴿.. وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ ﴾، كان لسان حاله يقول: يا قوم: أنتم تعرفونني حق المعرفة، لقد ولدت وترعرعت بينكم، وأنتم أهل قريتي وأقربائي وجيراني... وتعلمون بأنني لم أكن في يوم من الأيام مفسداً في الأرض، ولا صاداً عن سبيل الله، وقد رزقني الله منه رزقاً حسناً، فما طففت الكيل

(١) انظر فتح الباري، الحلبي: (١٠/٣٨٠).

والميزان، ولا ظلمت صاحب حق... وأعمالي ترجمة أمينة لأقوالي، وليس في خلقي اضطراب ولا تناقض أو انفصام، وقصارى القول وأنا أول المتمسكين بكل ما أمركم به، ولم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه.

وقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾: إنني لا أبغي من وراء هذه الدعوة مالا ولا جاهاً أو مغنماً، وكل الذي أريده إصلاح أمور دينكم وديناكم... وأنا أعلم جيداً بأن التوفيق والفلاح من الله وحده، ولهذا فقد توكلت عليه في جميع أموري، وإليه وحده أرجع في كل ما نابني، وأنا لا أرجو منكم أجراً، ولا أخاف منكم ضرراً.

وبعد هذا التحدي من شعيب لم يجروا أحد من قومه على اتهامه بتطيف الكيل والميزان أو بظلم الناس أو أن أعماله تخالف أقواله... لم يتهموا نبي الله بشيء من هذه الاتهامات، لكنهم خافوا من إعجاب الناس به، فراحوا يتهمون باتهامات أخرى، فإذا جاءهم بمعجزة ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (الشعراء)، وإذا أخبرهم بأن الله قد أرسله إليهم قالوا: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الشعراء)... وهذه كلها أعذار واهية تعبر عن هزيمتهم أمام الحق الذي صدع به شعيب عليه السلام، وتصور حسدهم لبشر منهم أكرمه الله بالرسالة...

وهم بهذا يرددون أقوال سلفهم من الكافرين الذين تصدوا لإبراهيم وصالح ونوح عليه السلام.

والله سبحانه وتعالى أخبرنا في محكم كتابه أن شعيباً وغيره من أنبياء الله كانوا من أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم استقامة.

قال تعالى: ﴿..اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وقال: ﴿وَأْتَاهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (٤٧) [ص: ٤٧].

وعندما كان الملام من قوم شعيب يردون عليه بانفعال وحقد وتشنج وحدة، كان يجيبهم بكل هدوء وتجرد ومحبة. انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨١) [هود] وقوله: ﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ (٨٤) [هود].

ولأنه عليه السلام كان قدوة حسنة أعجب به وبدعوته نفر من قومه وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد آخر... وتعد التربية بالقدوة من أفضل أنواع التربية وأشملها وأكثرها عمقاً يقول الأستاذ محمد قطب: (من السهل تأليف كتاب في التربية! ومن السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول.. ولكن هذا المنهج يظل حبراً على ورق.. يظل معلقاً في الفضاء.. ما لم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض.. ما لم يتحول إلى بشري ترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه. عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة، ويتحول إلى حركة ويتحول إلى تاريخ).

ولقد علم الله سبحانه - وهو يضع ذلك المنهج - أنه لا بد من ذلك البشر. لا بد من قلب إنسان يحمل المنهج ويجوله إلى حقيقة، لكي يعرف الناس أنه حق.. ثم يتبعوه.

لا بد من قدوة.. لذلك بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس: ﴿... لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ووضع في شخصه ﷺ الصورة الكاملة للمنهج الإسلامي.. الصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ. سألت عائشة رضي الله عنها، عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن! <sup>(١)</sup>.

إجابة دقيقة عجيبة مختصرة شاملة.. كان خلقه القرآن! كان الترجمة الحية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته.. ومن ثم كان - كالقرآن - قوة كونية عظيمة. قوة من صنع الله، يتكامل فيها الناموس، وتتكامل فيها القوى، وتلتقي السماء بالأرض أروع لقاء شهده الكون.

وكان قدوة للناس في واقع الأرض.. يرونه - وهو بشر منهم - تتمثل فيه هذه الصفات كلها وهذه الطاقات، فيصدقون هذه المبادئ الحية لأنهم يرونها رأي العين ولا يقرؤونها في كتاب! ويرونها في بشر، فتتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم، ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول ﷺ.. كل بقدر ما يطيق أن يقبس، وكل بقدر ما يحتمل كيانه الصعود.

(١) قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده: (٦/٥١-٥٢)، ورواه مسلم: (١/٥١٢)

بنحو حديث أحمد، عن حاشية زاد المسير، (٨/٣٢٩).

لا يياسون ولا ينصرفون.. ولا يدعونه حلماً مترفاً لذيداً يطوف بالأفهام لأنهم يرونه واقعاً يتحرك في واقع الأرض، ويرونه سلوكاً عملياً لا أماني في الخيال.

لذلك كان رسول الله ﷺ أكبر قدوة للبشر في تاريخها الطويل. وكان مريباً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به، سواء في ذلك القرآن المنزل وحديث الرسول ﷺ.

إن شخصية الرسول ﷺ ليست آية عصر ولا جيل ولا أمة ولا مذهب ولا بيئة، إنها آية كونية للناس كافة وللأجيال كافة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء، ١٠٧] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]

والإسلام يرى أن القدوة أعظم وسائل التربية، فيقيم تربيته الدائمة على هذا الأساس... لا بد للطفل من قدوة في أسرته ووالديه لكي يتشرب منذ طفولته المبادئ الإسلامية وينهج على نهجها الرفيع. ولا بد للناس من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وتقاليد النظيفه لكي يحملوا الأمانة لمن يربونهم من الأجيال. ولا بد للمجتمع من قدوة في قائدهم أو زعيمهم أو حاكمهم، تتحقق في شخصه المبادئ، وينسج على منواله المحكومون... والقدوة للجميع هي شخصية الرسول ﷺ التي تتمثل فيها كل مبادئ

الإسلام وقيمه وتعاليمه)<sup>(١)</sup>.

ومن المفيد أن نسوق بعض الأدلة والشواهد التي تؤكد أهمية التربية بالقدوة، ونبدأ بسيرة رسول الله وأهل بيته، وأصحابه رضي الله عنهم.

لقد فتح صلى الله عليه وسلم الأمصار، ودانت له الجزيرة العربية كلها، وأصبح سيداً لدولة مترامية الأطراف واسعة الأرجاء، وغنم أموالاً وأنعاماً كثيرة، فهل تغير نمط حياته، وهل وسع على نفسه وأهله؟!!

عن أنس رضي الله عنه قال: (لم يأكل النبي صلى الله عليه وسلم على خِوَانٍ حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات)<sup>(٢)</sup>.

وعن عائشة قالت: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليالٍ تباعاً حتى قُبِضَ)<sup>(٣)</sup>.

وعنها -أي عائشة رضي الله عنها- قالت: (كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) منهج التربية الإسلامية، للأستاذ محمد قطب، من وسائل التربية، التربية بالقدوة، (٢١٩-٢٢٧) وقد اخترت فقرات متفرقة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه. [خوان] هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل. [مرققاً]: الترقيق: التلين، وقال ابن الأثير وهو السميد وما يصنع به من كعك ونحوه. فتح الباري: المجلد الرابع عشر، ص (٥٨)، الحلبي.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، المجلد الرابع عشر، ص (٧٠)، الحلبي.

من آدم وحشوه ليف).<sup>(١)</sup>

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير)<sup>(٢)</sup>

وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها - قالت: (والله يا ابن أختي إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح، وكان يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها)<sup>(٣)</sup>.

قال ابن بطال: (تركه عليه الصلاة والسلام الأكل على الخوان وأكل المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختياراً لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة، فلم يحتاج النبي ﷺ إلى المال من هذا الوجه. وحاصله أن الخبر لا

(١) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري: (٧٢ / ١٤)، والأدم: الجلد.

(٢) متفق عليه. انظر رياض الصالحين للإمام النووي، تحقيق الألباني، باب فضل الجوع وخشونة العيش، ص (٢٢٩). البخاري: كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي ﷺ، الفتح: (٩٩ / ٦)، ح (٢٩١٦)، السلفية، ولم أجده في مسلم.

(٣) متفق عليه، انظر فتح الباري: (٧٢ / ١٤)، ورياض الصالحين، ص (٢٢٣)، البخاري، كتاب الهبة، الفتح: (١٩٧ / ٥)، ح (٢٥٦٧)، السلفية، ومسلم، كتاب الزهد، ح (٢٨ / ٤ / ٢٢٨٣)، عبد الباقي. ومنايح: جمع منيحة وهي الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رجلاً يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها [عن المصباح].



يدل على تفضيل الفقر على الغنى، بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا<sup>(١)</sup>

(وقد ثبت في الصحيحين أنه كان إذا جاءه ما فتح الله عليه من خير وغيرها من تمر وغيره يدخر قوت أهله سنة، ثم يجعل ما بقي عنده عدة في سبيل الله تعالى، ثم كان مع ذلك إذا طرأ عليه طارئ، أو نزل به ضيف يشير على أهله بإيثارهم فربما أدى ذلك إلى نفاذ ما عندهم أو معظمه)<sup>(٢)</sup>

هكذا كان يعيش رسول الله ﷺ، وكان يحكم دولة واسعة الأرجاء، ولا يرد أحد له طلباً، ولو شاء لجعل الله له بطحاء مكة ذهباً، لكنه ﷺ كان يزهد في طيبات الدنيا ونعيمها... وهكذا كان يعيش أصحابه وآل بيته:

روى البخاري في صحيحه عن علي ابن أبي طالب ؓ أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبي ﷺ سبياً فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها. فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم، فقال: على مكانكما، فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال:

«ألا أعلمكما خيراً مما سألتاني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعاً وثلاثين،

(١) فتح الباري: (٥٨/١٤).

(٢) فتح الباري: (٥٩/١٤)، والكلام لابن حجر العسقلاني.

وتسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»<sup>(١)</sup>

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذا الساعة؟» قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما» فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورطبٌ، فقال: كلوا وأخذ المديّة، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلُوب» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا. فلما أن شعبوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»<sup>(٢)</sup>

[يستعذب]: أي يطلب الماء العذب وهو الطيبُ.

[العذق]: بكسر العين وإسكان الذال المعجمة وهو الكباسةُ هي الغصن.

[المديّة]: بضم الميم وكسرها. هي السكين.

(١) قال الحافظ ابن حجر: اختار النبي ﷺ لابنته ما اختار لنفسه من ايثار الآخرة على أمر الدنيا،

ووسع على أهل الصفة بما قدم عليه ورأى لأهله الصبر [عن فتح الباري: (١٤/٧٤)].

(٢) رواه مسلم في كتاب الأشربة، ح(١٤٠/٣/١٦٠٩)، ط عبد الباقي.

[الخلوب]: ذات اللبن.

والسؤال عن هذا النعيم سؤال تعديد لا سؤال توبيخ وتعذيب، والله أعلم.  
وهذا الأنصاري الذي أتوه هو أبو الهيثم بن التيهان، كذا جاء مبيناً في رواية  
الترمذي وغيره<sup>(١)</sup>.

تأثر الشاعر حافظ إبراهيم بسيرة عمر بن الخطاب أشد التأثر، ووقف مشدوهاً  
أمام الانجازات الرائعة التي حققها أمير المؤمنين خلال سنوات قليلة وأهمها أنه ﷺ  
كان قدوة حسنة لرعيته: في عبادته، وطعامه، ولباسه، وأخلاقه، وفي أقواله  
وأفعاله، ولهذا فقد ملأ ﷺ الأرض عدلاً ورحمة ومساواة، وكان المسلمون جميعاً في  
نظرة سواسية كأنهم أسنان المشط...

وبسبب هذا التأثر وأمام هذا الإعجاب فاضت قريحة الشاعر بملحمة تعد من  
عيون الشعر العربي، ونحن نقتطف منها هذه الأبيات:

إن جاع في شدة قوم شركتهم	في الجوع أو تنجلي عنها غواشيها <sup>(٢)</sup>
جوع الخليفة والدينا بقبضته	في الزهد منزلة سبحانه موليها
فمن يباري أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشيها

(١) رياض الصالحين، النووي، ص(٢٢٥).

(٢) أي ما يغشاهم ويشملهم من الشدة والقحط، الواحدة غاشية، ويشير الشاعر إلى أن الفاروق  
ﷺ كان يجوع مع رعيته إن جاعت في عام الرمادة.

يوم اشتهدت زوجه الحلوى فقال له من أين لي ثمن الحلوى فأشريها  
 لا تمتطي شهوات النفس جامحةً فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها  
 وهل يفي بيت مال المسلمين بما توحى إليك إذا طاوعت موحياها

وعن قصته ﷺ مع رسول كسرى قال الشاعر:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً بين الرعيّة عطلاً<sup>(١)</sup> وهو راعيها  
 وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجنّد والأحراس يجميها  
 رآه مستغرِقاً في نومهِ فرأى فيها الجلالة في أسمى معانيها  
 فوق الثرى تحت ظلّ الدّوح<sup>(٢)</sup> مُشتملاً ببردّة كاد طول العهد يُليها  
 فهان في عينيه ما كان يكبرُهُ من الأكاسر والدنيا بأيديها  
 وقال قولة حقّ أصبحت مثلاً وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها  
 أمنت لما أقيمت العدل بينهم فنمت نومّ العين هانيها

وغني عن البيان أن شاعرنا كان يشيد في ملحمته بالإسلام العظيم الذي صنع شخصية عمر بن الخطاب ﷺ، كما صنع نماذج أخرى من الحكام والمحكومين على

(١) عطلاً [بالضم]، أي متجرداً من مظاهر الأبهة.

(٢) الدوح: جمع دوحه، وهي الشجرة العظيمة. واشتمل الرجل بثوبه: تلفف به، وأداره على

مرّ العصور والأزمان، ويشير حافظ إبراهيم في بداية قصيدته إلى شدة عمر على الإسلام والمسلمين قبل إسلامه فيقول:

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها      بنعمة الله حصناً من أعاديها<sup>(١)</sup>

أمرٌ آخر، فبعض ما ذكره الشاعر عن تقشف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وزهده قد يكون ضعيفاً، ولكن في كتب الحديث روايات صحيحة كثيرة تؤكد أن الفاروق رضي الله عنه كان زاهداً متقشفاً يرضى بالقليل، ويعرض عن شهوات الدنيا ونعيمها، كما كان قدوة حسنة لرعيته ولولاته في كل أمر من أمور دينهم ودنياهم.

لا شيء على الإطلاق يعدل التربية بالقدوة التي يكون منطلقها وهدفها الخوف من الله والإذعان له، والاعتقاد الجازم بأنه جلّ وعلا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

- في ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: إني زنيت. فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم، فلما شهد على نفسه أربع شهادات، سأله صلى الله عليه وسلم: «أبك جنون؟» قال: لا. قال: «فهل أحصنت؟» قال: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اذهبوا فارجموه»!!<sup>(٢)</sup>.

يا الله! آية تربية هذه التربية الرائعة الفريدة... رجل تزل قدمه فيزني ويبقى الأمر

(١) انظر ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت، ص(٧٧-٩٤).

(٢) رواه الشيخان، البخاري في كتاب الطلاق باب الطلاق في الأغلاق، الفتح: (٣٨٨/٩)، ج(٥٢٧٠)، ط السلفية، ومسلم في كتاب الحدود ح(١٦/١٣١٨)، ط عبد الباقي، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

سراً من الأسرار، وقد يعيش بقية عمره ويقضي نحبه ويموت هذا السر معه دون أن يعلم به أقرب الناس إليه.. ندم هذا الرجل على ما فعل، فخشي من الفضيحة الكبرى يوم الحشر والندامة، وجاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يطهره من ذنبه ويقيم الحد عليه، وهو يعلم أنه سوف يرحم بالحجارة حتى يموت، وأن أهل المدينة سيشهدون هذا المنظر، وسوف يفتضح أمره بينهم ويشاركون في رجمه... ولكنه رحمه الله كان يعلم بأن الله قد رآه عندما زنى وهمُّه الوحيد أن ينجو من عذابه ونقمته.

- وفي ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة، كانت فتاة من عامة المسلمين تقول لأُمها التي كانت تأمرها بغش الحليب: يا أماه: إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا!!.

- وفي ظل هذه التربية الرائدة بالقدوة، كان عمر بن عبد العزيز ينفق كل يوم درهمين، وقال عندما قام إليه ناس فأخذوا بعضديه وذهبوا به إلى المنبر:

(أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي مني فيه، ولا طلبه له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاخاروا لأنفسكم! فصاح الناس صيحة واحدة:

قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فلِ أمرنا باليمن والبركات) (١)

(١) سير أعلام النبلاء: (٥/١٣٦)، وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص (٦٥)، دار الكتب العلمية.

أولئك آبائي فجتني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع<sup>(١)</sup>

أولئك أنبيأؤنا وعظاء أمتنا من العلماء المجددين، فأين مثل هذه النماذج عند الاشتراكيين وأدعياء العدالة والمساواة من زعماء الأحزاب الجاهلية وقادة الانقلابات العسكرية؟!!

إذا كان رسول الله ﷺ قد اختار لابنته ما اختاره لنفسه من إيثار للأخرة على الدنيا، ووسع على أهل الصفة بما قدم عليه من السبي، ورأى لأهله الصبر، وإذا كان عمر بن الخطاب رفض أن يعطي زوجته ثمن قطعة الحلوى لأن هذا الثمن سيدفعه من بيت مال المسلمين، والفقراء أحق بهذا المال من زوجته كما كان يرى ﷺ... إذا كان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده كانوا يعيشون كذلك، فهل تدرون كيف تعيش زوجات وبنات أدعياء العدالة والاشتراكية؟!.

إن أحدهم عند زواج ابنته أرسل طائرة إلى باريس، وعادت محملة بالحلويات والثياب والورود، وقد حدث هذا في حين كان شعبه يعاني الويلات من ارتفاع ثمن الخبز وغيره من المواد الضرورية، وإذا كانت نفقة عمر بن عبد العزيز ﷺ درهمين في اليوم، فنفقة بطانة الرئيس القائد!! ونفقة حرسه وجواسيسه وخدمه تبلغ ملايين الدراهم في اليوم الواحد، وليست في الشهر أو السنة.. أما نفقة الرئيس فغير محدودة، وليس هناك من يجروء على المطالبة بتحديد لها.. وشتان شتان بين عمر

(١) ديوان الفرزدق.

ابن عبد العزيز، والرئيس الثوري الذي لا تعادل مساحة دولته ٥٪ من مساحة الدولة التي كان يحكمها أعظم مصلح جاء بعد الخلفاء الراشدين.

وإذا كان القادة المسلمون -الذين دانت لهم الممالك، وقهروا الجبارين- لا يتميزون عن رعيتهم في المأكل والمسكن وغيرهما، ويعتبرون الحكم ابتلاء ومغرمًا، ويخشون أن يظلم ولاتهم الرعية وهم لا يعلمون... فالعلمانيون من طغاة عصرنا لهم شأن آخر، فالحكم عندهم مغنم وتجارة و ثراء، ومن أجل الوصول إليه يفنون البشرية إن استطاعوا، ويهلكون أنفسهم من شدة إسرافهم في تناول ما يشتهون من الطعام والخمور والمخدرات.

أتدرون ما هو أثر هذه القيادات الفاسدة على الأجيال الناشئة؟! إن أهل الحل والعقد في الأحزاب العلمانية الجاهلية يعلمون حق العلم بأن قيادتهم تندد بالظلم وهي من أظلم الظالمين، تجمع بالحرية وهي التي تمارس أسوأ أنواع الاستبداد والإرهاب، تزعم نصره العمال والفلاحين وسائر المستضعفين الكادحين وهي من ألد أعدائهم، ومن أبعد الناس عنهم، ترفع شعار محاربة الاستعمار وهي من ألصق الناس به.

ومن ينشأ ويتربى في هذه الأجواء الآسنة المحمومة، لن ولن يكون عفيف النفس، طاهر القلب، بعيداً عن مواطن الشبهات. قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ، وَالَّذِي يَأْذِنُ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ [الأعراف].

ومن خلال تجاربنا ومشاهدتنا بأن التلامذة رقم [١] للقائد العلماني الفاسد



أكذب منه، وأكثر نفاقاً، وأعرق في البطش والإجرام، ولهذا يسارعون إلى تصفية قائدهم عندما تترسخ أقدامهم، وتشتد سواعدهم... ويعجب المراقب من نفاقهم لقائدهم وهو في أوج قوته، ومما صاروا يقولون عنه بعد الإطاحة به.

والتلامذة رقم [٢] أكذب وأسوأ من سلفهم، وهكذا كلما جاءت أمة منهم لعنت أختها، واعتاد الناس في البلدان المنكوبة على مثل هذه التناقضات، ولهذا فهم لا يصدقون أجهزة إعلان الحزب، ولو صدقت مرة من المرات. ويخطط هؤلاء المجرمون إلى تنشئة أجيال مبتورة الصلة بدينها وتاريخها، ويسعون بكل إمكاناتهم إلى نشر الفساد وإشاعة الرذيلة. ولن تفلح أمة تسوسها هذه القيادات الفاسدة المنحلة.

وبعد: لقد عشنا في هذه الصفحات مع شعيب عليه السلام في قوله لقومه:

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود]، وعرفنا أهمية التربية بالقدوة، والفرق بين

القدوات الطيبة الصالحة والقدوات الكافرة الفاسدة.

## رابعاً: واجه شعيب قومه بانحرافاتهم

واجه شعيب عليه السلام قومه بانحرافاتهم كلها دون خوف ولا ضعف.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ [هود].

وقال: ﴿وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ [هود].

وقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ ۗ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ [الأعراف].

وانحرافات قوم شعيب نوجزها فيما يلي:

- عبادة غير الله: من الأصنام والأوثان والأهواء وغيرها من الآلهة التي كان يعبدها الآباء والأجداد.

- سوء المعاملة في البيع والشراء... كانوا إذا اکتالوا من الناس يأخذون حقهم وزيادة، وإذا كالوهم ينقصون.

- كانوا يبخسون الناس أشياءهم، وهذا أعم مما سبق، فإن البخس يشمل النقص والعيب في كل شيء، والأشياء أعم من المكيل والموزون.

- الفساد في الأرض، بكل ما تعنيه كلمة فساد من ظلم وبغي وعدوان على الأنفس، والأعراض، والأموال.

- الصد عن سبيل الله: كانوا يجلسون في الطرقات، ويجذرون المارة من شعيب، وكانوا يتوعدون المؤمنين ويتهدونهم.

وشعيب عليه السلام كان حليماً عاقلاً، وكان يعرف العقلية التي يفكر بها الملائم من قومه، وكان يعلم أن ما يدعو إليه يعني سقوط النظام الفاسد، كما يعني سقوط أقطاب هذا النظام واستبدالهم برجال لا يعصون الله أمراً، ولا يبغون علواً ولا فساداً في الأرض... وكان نبي الله عليه السلام يعلم بأن مواجهة الملائم بواحدة من هذه الانحرافات كاف لتأليب الرأي العام ضده، ومناصبته العداء، والسعي الجاد من قبل كافة الأطراف لنفيه من مدين أو قتله، وفضلاً عن هذا فأنصاره قلة ضعاف - في مقياس أهل الأرض - لا يقدرّون على حمايته، ولا يملكون دفع الضر عنه... ومع كل هذه الأخطار المتوقعة فلقد كانت دعوة شعيب عليه السلام منذ بدايتها قوية شاملة ليس فيها هوان ولا تردد، ولا مجال فيها للمساومة وقبول أنصاف الحلول وأرباعها.

وعندما احمرّت أنوف قومه، وتطاير الشرر من أعينهم، وهددوا نبي الله بالقتل، أو بنفيه من أرض مدين وحرمانه من الحياة مع أهله وعشيرته... لم يضعف شعيب عليه السلام ولم يلتمس لنفسه الأعذار... لم يقل: فعلت وسعي وكفى، ولا بأس

من مهادنة الملام طالما تركوني ومن آمن بدعوتي نعبد الله ولا نشرك به شيئاً فلهم دينهم ولي دين... ولم يقل: كان من الأفضل مواجهتهم منذ بداية الدعوة بتطفيف الكيل والميزان فإن استجابوا واجهتهم بمشكلة أخرى، وبمثل هذه المرحلة أحقق فوائد أكثر، وتكون معارضتهم أخف وطأة، وأقل حدة<sup>(١)</sup> ولم يقل أحد من المؤمنين بدعوته: كلفتنا مالا نطيق، وأوقعت بيننا وبين قومنا العداوة والبغضاء، ولم تترك لنا من بينهم صديقاً نلجأ إليه أو نستعين به عند الشدائد.

لقد كان شعيب عليه السلام ومن معه مؤمنين بدعوتهم إيماناً لا يتزعزع، لا يخيفهم التهديد ولا الوعيد، وفي أحلك الظروف وأشدّها حرجاً. قال مخاطباً قومه كما أخبرنا الله جلّ وعلا:

﴿ وَيَقْوِرْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (ولما ينس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي طريقتكم وهذا تهديد شديد ﴿ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ على طريقتي ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وَأَرْتَقِبُوا ﴾ أي انتظروا)<sup>(٢)</sup>

(١) استفدت في هذا الموضوع من كتابات سيد قطب رحمه الله.

(٢) تفسير ابن كثير: (٢/٤٥٨)، الباي الحلي.

﴿ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾: اعملوا ما تمليه عليكم أهواءكم من فساد وظلم وطغيان وصد عن سبيل الله... ودبروا ما تقدرون عليه من مؤامرات ضدنا.. ونفذوا أوامر الشيطان.. افعلوا ما تشاءون.. لن نخشاكم، ولن نتكذب الطريق الذي سلكناه، ولن نضعف أو نستكين أو نتوانى !!

﴿ إِنِّي عَمِلٌ ﴾ سأمضي في طريق الرسالة لا أحمده، وسوف أستمري في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.. وستعلمون غداً الصادق من الكاذب، والأمين من الخائن.. إني واثق من نصر الله تعالى وتمكينه لنا. قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر] أجل سينصرنا الله تعاليت أسماؤه وصفاته.. وستعرفون ضعفكم وهوانكم يوم لا تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً.

ومواجهة شعيب عليه السلام لقومه بانحرافاتهم ليست رأياً شخصياً ارتآه أو اجتهداً اجتهد، فهو عبد لله ورسوله، وليس له من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ لِلَّذِينَ نَقُولُ لَهُمْ السُّلْطَانُ عَلَيْنَا لَنَقُولَنَّ لَهُمْ فِرْيَانًا وَمَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ بِحَافِظِينَ ﴾ [الحاقة]. إن هذه المواجهة أرادها الله جل وعلا، ونبي الله ينفذ أوامر ربه التي يأمره بتبليغها لعباده... وهي منهج رباني خالد لا يعتريه غموض ولا تكتنفه تناقضات... وبعد آلاف السنين مازلنا نقرأ فقرات هذا المنهج في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن نبي الله شعبياً عليه السلام لم يحذر قومه من منكرات لا يعرفونها، ولم يشغل أذهانهم في الحديث عن ذنوب ومعاصي لا وجود لها بينهم... فهو عليه السلام لم يحدث الملاء عن النفاق وأنواعه، ولم يذكر لهم صفات المنافقين وأساليبهم ووجوب الحذر منهم ومما يدبرون من مؤامرات وينشرون من شائعات... ولم يطلب من قومه الإقلاع عن شرب الخمر، ويبين لهم أخطاره والأضرار الناجمة عن تعاطيه... إن أنبياء الله جميعاً لا يشنون الحملات ضد أمور غير متفشية بين أقوامهم، ويسكتون عن المنكرات والمظالم الواقعة خوفاً من البطش والتنكيل كما يفعل كثير من المنسويين إلى العلم والدعوة في واقعنا المعاصر وما أكثرهم!!

وهذا هو منهج أنبياء الله جميعاً في الدعوة، فدعوة لوط عليه السلام تتلخص في عبادة الله وحده لا شريك له، وفي وجوب عدم إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء... وما زاده تهديد قومه ووعدهم إلا ثقة بنصر الله وثباتاً على الحق.

وواجه خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ أهل مكة بانحرافاتهم، فعاب آلهتهم، وسفه أحلامهم، ودعاهم إلى نبذ التقاليد التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، فعادته وأصحابه قريش، وظلمتهم، وضيق عليهم، وعذبتهم، فمات منهم من مات، وهاجر من هاجر، وعمي من عمي.

عن أبي عبد الله خباب بن الأرتؓ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع

على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليؤمنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»<sup>(١)</sup>.

ولم يثن اضطهاد قريش المسلمين عن المضي في طريق الدعوة إلى الله، وكانت الآيات القرآنية التي تنزل على رسول الله ﷺ تزيد من ضراوة المعركة بين المشركين والمسلمين. انظروا إلى قوله جلّ وعلا: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوكَ ۖ لَا تَعْبُدُونَ مَا عَبَدُوكُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْتُمْ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾ [الكافرون].

وقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ﴾ [المسد]، وقوله ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ ۚ ۖ وَدُوا لَوْ نُذِهْنُ فَيُدْهِنُونَ ۚ وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَاكِ مَهِينٍ ۚ ۖ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنِيمٍ ۚ ۖ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشِيرٍ ۚ ۖ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۚ ۖ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۚ ۖ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۚ ۖ سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرْطُورِ ۚ ۖ﴾ [القلم].

وفي تفسير قوله تعالى ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال البخاري في صحيحه:

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب الفتح: (٧/ ١٦٤)، ح (٣٨٥٢)، ط السلفية. وفي رواية: «هو موسد برده وقد لقينا من المشركين شدة».

(رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة. وقال الحافظ في [الفتح]: اختلف في الذي نزلت فيه، فقيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل الأسود بن عبد يغوث، وقيل: الأخنس بن شريق) (١)

ففي هذه الآيات مفصلة تامة بين المسلمين والمشركين، لقد أمر الله نبيه بعدم طاعتهم أو الركون إليهم، أو مهادنتهم، وليس هناك أي مجال للمصالحة مع اختلاف الدين والأهداف، ومما ينبغي التأكيد عليه أن هذه الآيات كانت تنزل في أخرج المراحل التي تمر بالدعوة الإسلامية، كان المسلمون قلة وكانوا مستضعفين، بينما كان المشركون هم الغالبية العظمى، وأهل الحل والعقد في مكة، وكان لهم شأن كبير في الجزيرة كلها... ومن جهة أخرى فهذه الآيات التي كانت تتوالى على رسول الله ﷺ لا تبقى تلاوتها سرّاً بين الرسول وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وإنما كانت تتلى على المشركين في نواديهم، وكان الصحابة يتسابقون في تنفيذ هذا الواجب مهما غلت التضحيات لأن تبليغ الدعوة عندهم كان أهم من الحياة الدنيا ونعيمها.

وماذا ننتظر أن يفعل زعماء قريش عندما يرون عبيدهم ومستضعفين منهم وهم يتلون هذه الآيات، ويتحدون بها الملائ... وماذا ننتظر أن يكون موقفهم من محمد ﷺ وهو يصف قيادتهم بالكذب والمداهنة والنميمة والإثم والبغي... ويكون هذا الوصف قرآناً يتلوه المسلمون صباح مساء؟!!

مما لا شك فيه أنهم فعلوا كل ما يقدر عليهم من إرهاب وبطش وتنكيل وتعذيب

(١) صحيح البخاري: (٥٠٧/٨)، والفتح: (٦٦٢/٨)، ح (٤٩١٧).



وتجويع ومطاردة وقتل... وكان لبني هاشم موقف طيب من رسول الله ﷺ، وفي حساب أهل الأرض من الذين يقدسون مصالحهم، ويهتمون بالتحالفات، ويحرصون على تحقيق الأرباح، ويتجنبون الخسائر... في حساب هؤلاء لا يصح أن يفجر المسلمون خلافاً مع بني هاشم في هذه المرحلة، ومن المصلحة أن يتجاوزوا عن أخطاء زعمائهم... هذه حسابات أهل الأرض التي تختلف اختلافاً جذرياً عما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه وتعالى لبنيهِ ومن آمن معه من المسلمين، فلا فرق بين أصنام بني هاشم وبقية قريش، وإذن فالدعوة الإسلامية كانت تستهدف عقائد وتقاليد بني هاشم كما كانت تستهدف عقائد وتقاليد بقية القرشيين، وما كان دفاع بني هاشم عن رسول الله ﷺ ليغير من منهج الله تعالى في مواجهة المبطلين.

ومن ثم فهناك أمر بالغ الحساسية، لقد أنزل الله جلَّ وعلا قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ وَأَبُو لَهَبٍ هُوَ عَبْدُ الْعَزَّيْ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وامرأته ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وسوف يغضب بنو هاشم من محمد ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وقد يكون غضبهم وغضب غيرهم أشد لأن المسلمين أصبحوا يتلون هذه السورة التي ورد فيها ذكر امرأة منهم!! ولا يغيب عن أذهاننا شدة الحرج الذي تشعر به القبيلة من مثل هذا الحدث... ولكن الله سبحانه وتعالى قد اختار لخاتم أنبيائه ورسوله هذا المنهج وأمره أن يصدع به ويعرض عن المشركين، كما أمره جلَّ أن يلتمس النصر والتمكين من الله وحده لا شريك له، وليس من هذه القبيلة أو تلك.

وبعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجه رسول الله ﷺ المنافقين واليهود بانحرافاتهم، وبين سبحانه وتعالى لنبيه أخلاق المنافين وصفاتهم ووسائلهم، كما بين تعالت أسماؤه وصفاته لنبيه أخلاق اليهود وعاداتهم ومواقفهم من أنبياء الله، وحذره من كيدهم، وفتنهم، وكانت هذه المواجهة شاقة مرهقة، وتختلف عن أسلوب مواجهة المشركين في مكة... ولهذا صرنا نجد آيات كثيرة وكثيرة جداً تتحدث عن المنافقين واليهود، وما بينهما من أحلاف ومواثيق سرية ضد رسول الله وأصحابه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، بل وكان المنافقون واليهود يتعاونون وينسقون سرّاً مع المشركين في مكة وما حولها، ولا غرابة في ذلك فالكفر ملة واحدة وإن اختلفت أسماؤهم وتباينت أساليبهم، وهذا هو شأنهم في القديم والحديث.

وسار الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المجددون على نهج نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم فواجهوا أقوامهم بانحرافهم. فلقد حاول الصحابة وفي طليعتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم إقناع أبي بكر الصديق بعدم قتال المرتدين - وكان معظم أهل الجزيرة قد ارتدوا - فأبى الصديق ﷺ، وبين للصحابة أهمية الأدلة التي يعتمد عليها، وأكد أنه لا بد من مواجهة المرتدين بما يستحقون، وكان الحق مع أبي بكر، وأدرك الصحابة جميعاً صحة أدلة الصديق، فانعقد إجماعهم على وجوب قتال المرتدين، ومن جملتهم الذين امتنعوا عن دفع الزكاة.

وواجه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أهل الحل والعقد من بني أمية بأخطائهم وانحرافاتهم، فعزل الولاة والقادة الظالمين، ورد المظالم إلى أصحابها،

ومنع سياسة التبذير والترف، وكان يعلم أنه سوف يصطدم مع أبناء عمومته وأقرب أقربائه، ومع ذلك اختار ما كان عليه الرسول والخلفاء الراشدون صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وواجهه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله المأمون بانحرافات، ورفض السكوت عن إنكار المنكر، وأثر السجن والتعذيب والنفي والتهديد بالقتل، ولم يقبل ما قبله غيره من علماء عصره من الرخص، وكان رحمه الله وهو مكبل بالقيود في السجن أقوى من المأمون وجيشه وقوات أمنه.

لقد دحض رحمه الله أباطيلهم، وفنّد شبهاتهم... وأخيراً أخذنا الله المأمون والمعتمّم والواثق وقادة أهل الاعتزال، ونصر الله بالإمام أحمد السنة، وقمع به البدعة والمبتدعين.

وواجه صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الرافضة الباطنيين بانحرافاتهم. لقد كانوا عوناً للغزاة الصليبيين، ومعاول هدم داخل الصف الإسلامي، ودعاة فتنة وإرهاب، وحاولوا قتل صلاح الدين، ولكن الله نجاه ومكنه من قهرهم ومن القضاء على ممالكهم، ونجح صلاح الدين في تحرير القدس وما حولها وهزم الصليبيين بعد أن هزم عملاءهم.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فواجه مشكلات وانحرافات كثيرة من أهمها:  
- التعصب المذهبي الذميمة، وتقديس الرجال، وتقديم أقوالهم على الكتاب والسنة.  
- غلاة الصوفية الذين يقولون بالحلول ووحدانية الوجود.

-الرافضة، وعموم الباطنيين كالدروز والنصيريين.

-أهل الاعتزال والفلاسفة.

-احتلال التتار لبلاد المسلمين

ولم يهادن رحمه الله جهة من هذه الجهات المنحرفة، ولا تراجع عن حق يدعو إليه رغبة أو رهبة، وفضلاً عن ذلك كله لقد حقد عليه كثير من علماء عصره، وكثر حساده الذين كانوا يتسابقون في التزلف للسلطان، وكانوا لا ينجحون من الكذب عليه ورميه بما ليس فيه، وكان رحمه الله يشفق عليهم ويعفو عنهم عند الاستطاعة، وكان يترفع عن الصغائر، ويزهد في ملاذ الدنيا ونعيمها، ودخل السجن مرات ومات فيه، وكان يراه نعمة من نعم الله عليه، وحقق شيخ الإسلام انتصارات رائعة بسيفه مع التتار والباطنيين، وبقلمه مع أعداء الإسلام ومع أصحاب البدع والأهواء وأعز الله به عقيدة ومنهج أهل السنة والجماعة.

وواجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قومه بانحرافاتهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ كل مال يعبدون من دونه من أوثان وأصنام لا تضر ولا تنفع، ودعاهم أيضاً إلى التمسك بالكتاب والسنة والبعد عن التعصب المذهبي الذميمة... فطارده الطغاة، واضطر إلى كثرة التنقل من مكان إلى آخر خوفاً من بطش أعدائه، وأخرجوه من قريته، وحاولوا قتله أكثر من مرة، فما زاده كيدهم إلا ثباتاً على الحق، واستمسكاً بالمنهج الذي يؤمن به ويدعو إليه، وبعد جهاد طويل يسر الله له من ينصره ويؤويه، فكان رحمه الله من أكبر المجددين في عصره،

ونصر الله به الحق وأهلك خصومه.

• وبعد:

هذه النماذج اخترناها من سير أنبياء الله ورسله ومن اقتفى أثرهم من المجددين المصلحين... لقد كانوا جميعاً يواجهون أقوامهم بانحرافاتهم... وكانوا جميعاً ينطلقون من منهج واضح... وكانوا يقدمون لمجتمعاتهم البديل الصحيح بكل حزم وشجاعة... ولسنا نخيرين في قبول هذا المنهج أو رفضه لأن الله جلّ وعلا أنزله، وأمرنا بإتباعه ولا يشذ عنه إلا هالك.

ولا يجادل عالم منصف في أن أخطر مشكلات وانحرافات هذا العصر استبعاد وتنحية شريعة الله، والاحتكام إلى الشرائع الأرضية الجائرة الفاسدة وإلى أقوال وآراء رجال منحرفين!!

- فما بال ناس من الناس ييغونها عوجاً؟!

- ما بال ناس من الناس يواجهون الفقراء المستضعفين بشركياتهم وبدعهم، ويسكتون عن شركيات وانحرافات عليّة القوم؟!

- ما بال هؤلاء الناس يهدرون أوقاتهم في عرض قضايا عفا عليها الزمن، ولا تخدم الأهداف والغايات التي يجاهد الدعاة المخلصون من أهل السنة لتحقيقها في هذا العصر؟!

- ما بالهم يحاربون المقلدين ودعاة التعصب المذهبي الذميمة، وهم الذين يجمدون

ويتعصبون لآراء وأقوال رجال ليسوا كرجال خير القرون بحال من الأحوال؟

- ما بالهم يتعصبون لبقع جغرافية ضيقة صنعها المستعمرون أعداء الإسلام

قبل أقل من قرون؟!!

ولو أنهم وقفوا عند هذا الحد لكان الأمر، ولكنهم بكل أسف تجاوزوا كل معقول وممكن عندما نصبوا أنفسهم محامين عن الظلمة في كل ما يقتربون من جرائم، ويتبارون في تسويغ الأعداء لهم، وفي إصدار الفتاوى المؤيدة لهم، ويشككون بمواقف ونوايا ضحايا الظلمة من الدعاة الذين يرفضون الدنية في دينهم، وينعتونهم بالغلو والتنطع.

كم قلنا لهؤلاء الناس: إذا كنتم لا تستطيعون أو لا تريدون قول الحق كله فلا تقولوا الباطل، وإذا كنتم ترون نقد إخوانكم إبان محتتهم بسبب أخطاء ارتكبوها بقصد تحذير الناس منها [وقد يكون من حقكم نقدهم]، فلماذا تسكتون عن نقد الطغاة الذين يستيبحون دماء الدعاة الأحرار، وأنتم تقرأون في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران]

لست أدري كيف يسكت هؤلاء عن بيان حقيقة الذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ألا يجشون أن يكون مثلهم كمثل الذين نزلت بحقهم الآية

الكريمة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي

الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ [البقرة]

والمشكلة أن بعض هؤلاء -الذين يسكتون عن جرائم الطغاة بل ويدافعون عنهم بحرارة- يعربون دوماً عن إعجابهم الشديد بسيرة أحمد بن حنبل وسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من علماء وأئمة أهل السنة والجماعة، وهذا الإعجاب -لو كانوا صادقين- يجب أن يتحول إلى واقع ملموس في أخلاقهم ومواقفهم. قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وقال بعضهم لأحمد بن حنبل إنه يثقل علي أن أقول فلان كذا وفلان كذا... فقال: إذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة والعبادات المخالفة للكتاب والسنة... فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع. فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه... وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين وهذا أفضل.

فتبين أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل الله إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشريعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فسادهم أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب... فإن هؤلاء إذا

استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين تبعاً وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداء) اهـ<sup>(١)</sup>.

ألا قاتل الله الهوى والذل والهوان وكرهية الموت في سبيل الله، فلو كان بيننا أحمد بن حنبل وابن تيمية وغيرهما من الأئمة الأعلام لما قبلوا أن يحتكم الناس في بلادنا لغير شرع الله... لو كان بيننا أمثال هؤلاء الرجال الأبطال لواجهوا من هم أكثر خبثاً من المأمون وأهل الاعتزال وغيرهم من المبتدعين الضالين الذين يفسدون القلوب ابتداء.

ومواجهة الملأ بانحرافاتهم لا تعني إشعال نار الفتنة بين المسلمين، فمن ينكر منكراً لا يجوز له أن يرتكب منكراً أكبر من الذي أنكره، وإطفاء النار بالنار لا يزيدها إلا اشتعالاً، فرسول الله ﷺ لم يطلب من الذين آمنوا بدعوته حمل السلاح وقتال الكافرين المشركين في مكة، وكذلك كان شعيب وغيره من أنبياء الله عليهم السلام، وكذلك فعل الإمام أحمد بن حنبل، لقد واجه المأمون بانحرافاته، ولم يطلب من أحد الخروج عليه ولا أفتى بكفره... وقد أحببت ذكر هذه الملاحظة حتى لا يساء فهم ما قصدت من المواجهة، وتفصيل ذلك سيكون في موضع آخر إن شاء الله.

(١) مجموعة الرسائل والمسائل: (٤/١١٠).



## الفصل الثالث

### صراع شعيب مع قومه

\* أولاً: رسول أمين.

\* ثانياً: ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

\* ثالثاً: الصد عن سبيل الله.

\* رابعاً: ردود مكررة.

\* خامساً: فصل الدين عن السياسة.

\* سادساً: ولولا رهطك لرجمناك.

\* سابعاً: التهديد بالنفي.

\* ثامناً: اعملوا على مكانتكم إني عامل.

## أولاً: رسول أمين

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا يَنْظُرُهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، قوله ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ أي إلى أهل مدين لأن مدين بلد، ومثله واسأل القرية واسأل العير يعني أهل القرية وأهل العير<sup>(١)</sup>.

وقوله ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب ولا أخوة دين... ومدين بلد صغير، وأهلها يعرفون بعضهم حق المعرفة، وفيها ولد شعيب عليه السلام، وعلى أرضها نشأ وترعرع، وليس بين أهلها من يجهل صدقه، وعفة لسانه، وطهارة قلبه. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوْنَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) [الشعراء].

قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٧٨): أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى، أمين فيما بينكم، فهم قد عرفوا من قبل أمانته وصدقه في جميع أقواله وأفعاله، ومن كان صادقاً أميناً في أمور الدنيا، لا يمكن أن يكذب على ربه، وكذلك أنبياء الله جميعاً. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِوْنَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ

(١) البخاري، باب قوله تعالى ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا يَنْظُرُهُمْ﴾ .. انظر فتح الباري:

رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ﴿١١٨﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَتْ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُوَذَا ٱلنُّذُرُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَتْ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَلِّحْ ٱلْأَنْثُقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَتْ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَّا نُنْقِزَكَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء].

فأنبياء الله كانوا أمناء صادقين، وكانوا أسوة حسنة لأقوامهم، وتكذيب قوم شعيب لرسولهم، تكذيب لجميع الرسل، لأن المكذبين قد حددوا موقفاً من المنهج الذي أنزله الله على جميع رسله، ومن التبجح والافتراء على الله أن تزعم طائفة أو قوم بأنهم يؤمنون بدعوة موسى أو عيسى وينكرون دعوة محمد ﷺ وعلى إخوانه أنبياء الله، وسوف يتبرأ الله جميعاً يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وإذن فشعيب عليه السلام كان أميناً صادقاً وقد جاء قومه ببينة تدل على صدقه نبوته، وما كان يسأل أهل مدين أجراً، أو يبغي عندهم جاهاً، أو يطلب منهم نفعاً. قال تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء] (١).

ولو كان يبحث عن مغنم، أو يبحث عن منصب لكان هناك مجال للشك به وبدعوته.

(١) وفي الفصل السابق [دعوة شعيب] بينت كيف كان عليه السلام قدوة حسنة لقومه.

وفضلاً عن هذا وذاك، فلقد كان يدعو قومه إلى العدل والرحمة والمساواة، ويجذرهم من الإشرak بالله والظلم والاستبداد... وبشكل أكثر وضوحاً كان يدعوهم إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكان حريصاً على هداية قومه، مترفعاً عن صغائرهم لا يقابل جهلهم بجهل ولا شططهم بشطط، وغريب جداً أن لا يستجيب قومه لدعوته، ولا يعقدوا اللواء له، والأغرب من هذا أن يتهموه بالكذب وغيره من الاتهامات الباطلة.

### ثانياً: ولا تبخسوا الناس أشياءهم

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود]

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم تفسير هذه الآية في الفصل السابق [دعوة شعيب] عليه السلام.

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: لا تطففوا، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل ناقص ووزن ناقص... والتطفيف من المحظورات أشد الحظر، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في

الأخذ والدفع، ولو في القليل. لأن من دُنُوت نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته، وأنه لا يقعه عن التوثب إلى الكثير إلا عجزاً أو رقابة<sup>(١)</sup>.

﴿إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾: يريد بثروة واسعة تغنيكم من التطفيف، أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما تآتونه من الشر كقول مؤمن آل فرعون: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا...﴾ [غافر: ٢٩]

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾<sup>(٨٤)</sup>: وتكرر قوله في هذه السورة وغيرها: ﴿يا قوم﴾ يريد: يا أهلي وأقربائي إني أحب لكم الخير والسداد في دينكم ودنياكم، وأخاف عليكم من عذاب مهلك إن لم تنتهوا عن الشرك والتطفيف.

وقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾<sup>(٨٤)</sup> أي: مهلك، أو لا يشذ منه أحد، كقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾ [الكهف: ٤٢]، وأصله من إحاطة العدو، وإحاطة اليوم تدل على إحاطة كل ما فيه من العذاب، وقد جاءتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وعذاب الدنيا لا يغني عن عذاب الآخرة فهم خالدون مخلدون في نار جهنم وبئس القرار.

وقول شعيب: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يذكرنا بقول نوح لقومه:

(١) الإكليل للسيوطي [عن محاسن التأويل] للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، مطبعة البابي الحلبي: (٦٠٩٢/١٧).

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف)، وهكذا أنبياء الله ورسله يشفقون على أقوامهم، ولا يقابلون السيئة بمثلاً، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إلى الله.

﴿وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أتموها، والقسط: العدل، وهو عدم الزيادة والنقص، وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير، وهذا أمر بالواجب بعد النهي عن ضده لتأكيدهِ (١).

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ عَلَيْهَا﴾ البُخس: الهضم والنقص، ويقال للمكس البُخس، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً كما تفعل السامسة، أو كانوا يمكسون الناس أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهبوا عن ذلك (٢). وقال الألوسي: (وقيل: المراد بالبُخس المكس كأخذ العشور على نحو ما يفعل اليوم). قلت: رحم الله الألوسي، لقد جاء قوله هذا في تفسيره: [روح المعاني] الذي كتبه قبل بضعة عقود، ترى ماذا كان سيقول لو عمّر قليلاً ورأى الأنظمة التي تسمى بالاشتراكية، وقوانين التأميم ومصادرة أموال الناس وممتلكاتهم؟!.

ماذا كان سيقول لو رأى القوانين الرّبوية والأنظمة المصرفية؟! لقد شاهد رحمه الله بدايات الانحراف، وكانت هذه البدايات مستغربة أشد الاستغراب عنده، وعند أمثاله

(١) الكشف، تفسير سورة الشعراء، ص (١٢٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي البغدادي، الجزء الثاني عشر، سورة هود، ص (١١٦).

من العلماء، وأصبحت هذه الانحرافات -رغم خطورتها وبشاعتها- شيئاً مألوفاً عند كثير من علماء عصرنا، مع أنه بينهم وبين الألويسي بضعة عقود من الزمن!!.

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى الحديث عن البُخس، جاء في المنار:

(هذا أعم مما سبقه فإن البُخس يشمل النقص والعيب في كل شيء، يقال بخسه حقه وبخسه ماله وبخسه علمه وفضله. والأشياء جمع شيء وهو أعم الألفاظ وجمعه يشمل ما للأفراد وما للجماعات والأقوام من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بالحدود الحسية ومن حقوق مادية ومعنوية)<sup>(١)</sup>.

وبُخس قوم شعيب ومعظم تجار عصرنا نوع من أنواع البُخس الكثيرة...

فمن البُخس: تشويه المستعمرين وعمالئهم لتاريخ استقلال معظم بلدان العالم الإسلامي. لقد عمدوا إلى ترويج الإشاعات وتلفيق التهم وإصاقها بالعلماء الأبطال الذين قادوا الأمة في جهادها ضد المستعمر الدخيل... ومن جهة أخرى فقد صنعوا زعامات مزيفة، وسلكوا سبلاً فيها من الخبث والدهاء ما يحير أولي العقول والألباب، ومن ذلك قيامهم باعتقال ومطاردة عملائهم من أجل أن يكسبوا عطف الجماهير التي تؤيد وتحب كل من يقاوم المستعمرين، وبعد حين يطلقون سراحهم، وتخرج الجماهير الساذجة لتتهافت لهؤلاء الذين أصبحوا في نظرها أبطالاً، ومن ثم ينطلق هؤلاء ليفاوضوا أسيادهم ويتمموا المسيرة المريبة بعدهم.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: (١٢/١٤٢)، دار المعرفة - بيروت.

ومن البُخس: ما يزعمه المستشرقون ودعاة التغريب من تجرد وحياد وموضوعية في أبحاثهم ومؤلفاتهم، ولكنهم فيما يكتبون عن الإسلام يتنكرون لما يزعمون من حياد أشد التنكر، ويلجؤون إلى الدس وتلفيق الروايات، ويستعينون بأكاذيب من سبقهم من أعداء الإسلام وأساطين الكفر والإلحاد... ثم تصبح - وبكل أسف - هذه المؤلفات مناهج في الجامعات والمعاهد العلمية في بلدان العالم الإسلامي.

ومن البُخس: اتهام العلماء الدعاة، والجماعات الإسلامية بالتطرف والإرهاب والتخلف والرجعية، أما المنافقون الذين يتاجرون بدين الله، ويبيعون الفتاوى بدريهمات معدودات فهؤلاء تطلق عليهم أجهزة الإعلام أوصافاً وألقاباً فضفاضة كقولها عنهم: دعاة الاعتدال والشرعية والتقدم... وإذا قام طاغية بحفر الأخاديد، ونصب المشائق، وفتح أبواب السجون والمعتقلات ليزج فيها بالأبرياء الآمنين.. تطوعت الصحافة ووكالات الأنباء العالمية بنقل الاتهامات المتناقضة المتهافئة، مع أن مثل هذا الموقف يخالف أبسط أهداف الصحافة وغاياتها.. فكيف يكون المعتدى عليهم إرهابيين، والمعتدي السفاح ليس إرهابياً؟! وكيف تعتمد الصحافة في أخبارها على أقوال طرف وتهمل معرفة أقوال الطرف الآخر!؟.

ومن البُخس: أن لا يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وبشكل أحص فيما يسمى دول العالم الثالث حيث تقدم الولاءات الشخصية والحزبية على كل اعتبار آخر.. ويطارد أصحاب الكفاءات والاختصاصات النادرة، ويفترى عليهم لأنهم يخالفون مواقف الطاغوت وحزبه، وكم جرّت هذه



السياسة الطائشة من النكبات والمصائب على أمتنا، فالضابط الطيار الذي أنفقت عليه أموال طائلة يعيش في السجن، وفي أحسن الأحوال في مكتب إداري وليس له عمل يستحق الذكر، هذا إذا كان ملتزماً بسلوكه الإسلامي ويعارض سياسة الحزب ومنهجه العلماني.

ومن البُخس: تنحية شريعة الله جل وعلا، والاحتكام إلى الشرائع الأرضية الجائرة الظالمة، ولا يقبل الطغاة مجرد المساواة بين ما أنزله الله وما أملتة أهواؤهم، ولا يعطون القضاة حرية الاختيار بين هذا وذاك.

ومن البُخس: ظلم العاملين في حقل الدعوة الإسلامية لإخوانهم الدعاة سواء كانوا أفراداً أو جماعات، فعندما يقع بينهم خلاف بسبب الحسد أو التنافس على حطام الدنيا الفانية، يصبح الأخ في عين أخيه وكأنه شيطان رجيم، فتراه ينقد أعماله وأقواله ومؤلفاته، ويتدخل بنواياه، ويفسر عباراته وألفاظه تفسيراً ظالماً ليس فيه أدنى عدل ولا إنصاف.. ويستنفر أنصاره وأعوانه في معركة لا يريد من ورائها وجه الله تعالى، ومعظم الأنصار ينصرون أخاهم وهو ظالم، ولا يطلبون منه برهاناً أو دليلاً... وقد يستعين بالظالمين ضد أخيه. وبعد هذا كله قد يعود المتخاصمان إلى سابق ودهما، ويعود الشيطان - على حد زعم الخصم الظالم - تقياً ورعاً طيباً.. ألا ما أحوجنا جميعاً إلى الالتزام بمعاني قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

## ثالثاً: الصد عن سبيل الله

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ<sup>ط</sup> وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف]

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام، فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة، وكمال الخلقة، ومن أشبع أنواع الفساد: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسله، ومخالفة أمره ونهيه.. ومن الفساد في الأرض أيضاً: القتل، والزنا، والسرقة<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء]، وهذا نهى آخر عام يشمل غير ما تقدم كقطع الطرق وتهديد الأمن والخروج على السلطان وقطع الشجر وقتل الحيوان، وقيده بقصد الإفساد لأن بعض ما هو إفساد في الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كالذي يقع في الحرب من قطع الأشجار، أو فتح سدود الأنهار، أو إحراق بعض الأشياء

(١) تفسير المنار: (٥٢٦/٨)، ودعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي، ص (١٥٦).

بالنار، ومنه حرق الخضر السفينة التي كانت لمساكين يعملون في البحر لمنع الملك الظالم الذي وراءهم من أخذها إذا أعجبته<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بابتعاث أنبيائه ورسله، ولهذا اجتباهم الله وأوحى إليهم وأرسلهم لإصلاح الأرض ومن عليها.. وكل من أعرض عن نهجهم أو اختار غير سبيلهم كان مفسداً ظالماً، فلا يغرنك لين قول دعاة الباطل، وقوة إعلامهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وإيفاء الناس حقوقهم، وترك الفساد في الأرض، فالله جلّ وعلا يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر، وكل ما يأمرنا به فيه خير وصلاح لنا في ديننا ودنيانا.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود].

قال أبو جعفر: (ما أبقاه الله لكم، بعد أن توفوا الناس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط، فأحلّه لكم، خير لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم الناس من حقوقهم بالمكيال والميزان). ومثل هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾

(١) تفسير المنار، تفسير سورة هود.

وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتُواكِ الْبَلْبِلَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

[المائدة].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨٥): أي إذا آمنتم بالله، وصدقتم بوعده ووعيده وحلاله وحرامه وقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾.

الصراط: الطريق. والصد عن سبيل الله: هو صرف الناس عن الطريق الذي قعدوا عليه ومنعهم من الوصول إلى شعيب عليه السلام، فإن سلوك الناس في ذلك السبيل للوصول إلى نبي الله هو سلوك سبيل الله.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.. [ثم ذكر ابن كثير قولين للمفسرين: الأول أن قوم شعيب كانوا عشارين، والثاني بأنهم كانوا يتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه] (١).

ومن خلال ما عرضنا من أقوال المفسرين يتبين لنا ما يلي:

- كان قوم شعيب قطاع طرق يروعون الأمنين، ويسلبون المارة، ويفسدون في

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٣١)، وتفسير الطبري: (٤٤٣/ ١٥) تحقيق محمود محمد شاكر.

الأرض.

- وكانوا عشارين ظلمة.. يأكلون أموال الناس بالباطل، ويتخذون من هذا الباطل قانوناً لا يجوز الخروج عنه.

- وكانوا يصدون عن سبيل الله، وهذا الصد ليس موقفاً شاذاً من المواقف التي يتخذونها في حياتهم، وإنما أصبح شغلهم الشاغل وأخص صفاتهم التي يتصفون بها، ولهذا فهم يمنعون أي قادم على مدينتهم من زيارة شعيب عليه السلام والتعرف عليه.

- وكانوا يبغونها عوجاً: أي ضلالاً عن الحق، وزيغاً عن الاستقامة على الهدى والمحجّة، و[العوج] لغة الأود والميل.

فأهل الكتاب يبغونها عوجاً، لأنهم غيروا وبدلوا في دين الله استجابة لنزواتهم وشهواتهم، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وصدوا عن سبيله. قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكُفْرُ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بَعُوثَهَا عَوْجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [آل عمران].

والذين يدعون إلى غير منهج أنبياء الله - في القديم والحديث - يبغونها عوجاً، لأنهم يتبعون ما تهوى الأنفس، ويستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويفسدون في الأرض. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عَوْجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقال:

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]، وبعض الذين يبغونها عوجاً يكفرون بالآخرة، وبعضهم الآخر لا يكفر بالآخرة، لكنهم يفضلون شهواتهم على كل شيء، فهم عبيد لها، ومن أجلها يخوضون المعارك، ويسفكون الدماء، ويستبيحون المحرمات... وهؤلاء ليسوا كأولئك لكنهم قريبو الشبه بهم.

ومن يسبر غور الذين يبغونها عوجاً من دعاة العلمانية والاشتراكية والرأسمالية ومن نحا نحوهم يجد العجب العجيب.. فهذا نكّل برفاق دربه لينفرد في حكمه، وذلك قتل أصحابه وألصق بهم أموراً عارية عن الصحة حتى لا يجد من يقول له [لا].. وصنف ثالث من الناس ملؤوا الدنيا صراخاً بشعارات وأهداف براءة وعندما وصلوا إلى الحكم أصبحوا من ألد أعداء هذه الشعارات التي كانوا يرفعونها، بل إن بعضهم قد تجده اليوم اشتراكياً وغداً رأسمالياً، أو تجده في حين من الزمن يوالي السوفييت، وفي حين آخر يوالي الأمريكان دون خجل ولا حياء.

وتتضاعف في نفوس هؤلاء حب الشهوات، فتغدو وظيفتهم الوحيدة في الأرض الصد عن سبيل الله تعالى، لأن سبيل الله يصطدم مع أهوائهم وشهواتهم ومواقفهم المتقلبة المتغيرة، وزين لهم الشيطان أعمالهم فأوها حسنة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل متفرقة، على كل سبيل

منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥] (١).

فصراط الله المستقيم ليس فيه عوج ولا انحراف، وهو الطريق الذي أمرنا جلَّ وعلا أن نتبعه ولا نحيد عنه، والخطوط التي خطها النبي ﷺ عن يمينه وعن شماله هي طرق معوجة تنتهي بسالكها إلى النار وبئس القرار، وجمع سبحانه وتعالى السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة] وتشمل هذه الفرق كل فرقة أو مذهب أو حزب أو جماعة تعبد غير الله تعالى أو تشرك به أحداً من خلقه أو تنادي بغير المنهج الذي أنزله على أنبيائه عليهم أفضل الصلاة والتسليم.

### رابعاً: ردود مكررة

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾ [هود: ٩١].

(١) رواه أحمد في المسند، انظر الفتح الرباني مع بلوغ الأمان من أسرار الفتح الرباني، لمؤلفه الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا: (١٨ / ٢٧٤)، باب وأن هذا صراطي مستقيماً. قال محقق الطبري: صحيح الإسناد. وقد فصل ابن كثير في تفسيره شرح هذا الإسناد، وما فيه من اختلاف الرواية (٣/ ٤٢٧). انظر تفسير الطبري: (١٢ / ٢٣٠)، الأثر رقم (١٤١٦٨).

قال المفسرون: أي ما نفهم ما تقول، وكأن كلامه من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه.. وقيل: قالوا ذلك استهانة به عليه السلام كما يقول الرجل لمن لا يعبأ به: لا أدري ما تقول، وكما قال مشركو مكة لرسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت] (١). ومعنى الآية أوسع وأشمل مما ذكره من قدر لي أن أطلع على أقوالهم من المفسرين... فلقد كان قوم مدين لا يفقهون حقاً ما يقوله لهم نبيهم. وهنا قد يسأل سائل:

كيف لا يفهم قوم شعيب بأن السرقة، والإفساد في الأرض، وبخس الناس حقوقهم مخالفة للفطرة مستقبحة أشد الاستقباح؟!!

وجوابنا على ذلك: يستنكر هذه الأعمال ويستقبحها من شرح الله صدره بالإسلام، وذاق حلاوة الإيمان.. أما الكافرون والمنافقون والمصرون على معاصيهم من المسلمين، فلهم من هذه المسألة موقف آخر، فبعضهم يسمى الأمور بغير مسمياتها، فالسرقة، وبخس للناس حقوقهم يسمونها: اشتراكية، وتأميماً، وفوائد ربوية، وضرائب باهظة يرفعون نسبتها من حين لآخر كيفما يشاءون، وبعضهم الآخر يسمى السرقة: [حذقة] و[مهارة]، ولا ينجل هؤلاء الغشاشون والمحتكرون عندما يكشف الناس أساليبهم القبيحة، وأكاذيبهم المزعجة ويقولون بكل صفاقة:

(١) أكنة: جمع كنان وهو الغطاء. وقر: صمم، وأصل الوقر: الثقل.



(هذه سياسة ومهارة وأنتم تسمونها سرقة وغشاً واحتكاراً !!)

ونوضح المسألة بالمثال الآتي: فالمسلم عندما تنزل قدمه ويُضِلُّه رفقاء السوء فيسرق أول مرة يندم، ويؤنبه ضميره فلا ينام الليل، ويخشى أن يظهر أمره بين أهله وأصدقائه... ثم يخف الندم عندما يسرق للمرة الثانية، ويتحدث شركاؤه عن بطولته المزعومة ورباطة جأشه.. ثم تصبح السرقة مهنة في حياته كالنجارة والزراعة والتجارة.. بل ويحاول إقناع الآخرين بامتهان هذه المهنة، ومن وسائل الإقناع التي يعرضها قوله لأحد أقربائه وأصدقائه من أصحاب الخلق والاستقامة: في عملية واحدة تستمر بضع ساعات يكون في جيبي ما يمكن أن تجنبه من عملك خلال عام أو عدة أعوام. وقل مثل ذلك في بقية الغشاشين والمحتركين وغيرهم وغيرهم.

قال ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه»، وفي رواية «حتى تغلف قلبه فذلك الرآن الذي قال تعالى فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: (١)].

فإذا قال نبي من أنبياء الله تعالى أو داعية مصلح لهذه النماذج من الناس: اتقوا الله ولا تفسدوا في الأرض، قالوا: [ما نفقه كثيراً مما تقول]، وكأنه يقول لهم: تخلوا عن أعمالكم ووظائفكم وتجارتكم التي يرون بأنها مشروعة ولا حياة لهم بدونها.

(١) أخرجه الترمذي: (٤٣٤/٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه: (١٤١٨/٢)، وحسنه

الألباني: الجامع الصحيح: (١٦٦٦)، والآية في سورة المطففين: (١٤).

وعن أمثال هؤلاء قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ۗ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ۗ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف]

ويعجز [القلم] عن الإحاطة بمعاني هذه الآية وأبعادها، وغريب أمر هذه الجبال البشيرية التي لا تنتفع بما رزقها الله جلّ وعلا من جوارح، فقلوبهم مغلقة، وأذانهم صماً لا تسمع حقاً... ولا تبصر عيونهم النور وآيات الله في خلقه... ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ أولئك كالبقرة والغنم والإبل لأنهم عطلوا الأجهزة التي تميزهم عن الأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الدواب قد تستجيب لراعيها وإن لم تفقه كلامه - بخلاف هؤلاء - ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ ولو اخترعوا أحدث الاختراعات وأدقها.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ ولو ملكوا الأساطيل والجيش، والمال وبسطوا نفوذهم على سكان المعمورة كلها.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ ولو حصلوا على الشهادات العالية وأشادوا المعاهد والجامعات، قال تعالى عن المنافقين:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا نُفِيقُوا عَلَىٰ مَن عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا إِلَيْهِ خَزَائِنُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴿[المنافقون].

وعن الكافرين قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة]

وقال: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ... ﴿٦١﴾﴾ [الأحقاف].

ولهذا فقد كان أهل مدين لا يفقهون قول نبيهم، وكان الكفار والمنافقون لا يفقهون ولا يتعظون... وهذه أحوالهم في القديم والحديث... ولهذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم كالبقرة والأغنام والإبل، قد يفقهون أمور دنياهم ومعاشهم، لكنهم لا يفقهون أمور آخرتهم ومعادهم. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم]

وإذا كانت هذه هي حال أرباب المال والنهي والسلطان الذين أضلهم الله وطمس على بصيرتهم، فكيف تكون حال خدمهم وعمالهم؟!

من يدرس أحوال خدمهم وعمالهم، ويسبر غورهم، يعلم أنه ليس هناك أتعس ولا أتفه من الذين ينافقون للذين هم أحط من البقر والغنم والإبل، وقد يغضب الذين يحرصون على تهذيب اللفظ ورقته مما نكتب فنقول لهم: أنتم مسلمون وهذا وصف الله لهم ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف] واقروا إن شئتم قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، فتأدبوا يا هؤلاء بأدب القرآن الكريم.

نعود إلى القول: ليس هناك أتفه من الذين يوالون ويخدمون الذين هم أحط وأضل من البقر، فتراهم يكتبون دفاعاً عنهم، ويتحدثون عن مآثرهم النبيلة [على حد قولهم]، ويزعمون إعجابهم بمواقفهم، وينفذون أوامرهم، ويفكرون بعقول أسيادهم، وويل لمن كان سادته من البقر، ولست أدري كيف يعيش هؤلاء في تناقضات وإحراجات من أجل مطامع دنيوية رخيصة؟! والأنكى من ذلك كله أن بعض هؤلاء الخدم والعمال من أشباه الدعاة وما أكثرهم في هذا العصر!!

وسوف نمضي بعد هذا الاستطراد في عرض ردود أهل مدين على نبي الله شعيب عليه السلام. قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: أي من قد سحر مرة بعد مرة، وقال ابن جرير

الطبري: (والصواب من القول في ذلك عندي أن معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولست رباً ولا ملكاً فنعطيك ونعلم أنك صادق فيما تقول، قال: والمسحّر: المفعّل من السحرة، وهو الذي له سحرة)<sup>(١)</sup>.

ولم يكن شعيب ساحراً أو مسحوراً، وقومه يعرفون تاريخه، ويعرفون صدقه وفضله واستقامته، لكنهم يهربون من مواجهة الحقيقة الجليلة البينة بمثل هذه الادعاءات المتهافئة.

### خامساً: فصل الدين عن السياسة

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتَك تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود].

الاستفهام في قوله تعالى ﴿ أَسْلَوْتَك ﴾ للإِنكار عليه والاستهزاء به، وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، وكانت هذه الصلاة أهم أثر عملي تطبيقي لدين شعيب، وكانوا من فرط سفههم يظنون أن هذه الصلاة من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين، ولهذا كانوا يقولون لنبيهم:

ما علاقة صلاتك بديننا وعقائدنا التي ورثناها عن آبائنا جيلاً بعد جيل؟! وما علاقة صلاتك بأموالنا وتجارتنا التي من حقنا أن نفعل فيها ما نشاء من تطفيف ومكوس؟!!

(١) تفسير الطبري (١١/١٠٩).

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧) قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

وهذه الآية تذكرنا بما قلناه في الصفحات الماضية عند تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَدْعُبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، فأهل مدين يستغربون دعوة نبيهم لأنهم - كما يرون - يتدخل بأمور ليس من حقه أن يتدخل بها. إنه فرد من عامة الناس، وهم أهل الحل والعقد في بلدهم.. فكيف يجرؤ فرد من العامة على تسفيه دين قومه، والخروج على عقائد وتقاليد الآباء والأجداد والتنديد بها... ومهما أحسنوا الظن به، ومهما صبروا على تحدياته فلن يغفروا له إصراره على وجوب تغيير نظام حياتهم... فليصل ما شاء، وليعبد ربه بالطريقة التي يريد، ولكن عليه أن يتجنب خلط الدين بالسياسة.

وبعد أن تيسرت للبشرية أسباب المعرفة، واندثرت عصور الجهل والهمجية والتخلف مع ذلك لا زلنا نسمع أصواتاً محمومة تنادي بفصل الدين عن السياسة، فبالأمس وقف فرعون الصغير الذي أهلكه الله تعالى... في احتفال حاشد وقال فيه: إنه لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، ولن أسمح لرجال الدين أن يتدخلوا في السياسة... وكانت الإذاعات العالمية ووكالات الأنباء تنقل أقوال هذا الظالم المتجبر المفسد في الأرض.

ولم يكن صوت فرعون نشازاً فكثير من فراعنة عصرنا قالوا مثل قوله وأشد، وبعضهم يقول متلطفاً: نحن مسلمون، وحرية الاعتقاد مصونة في دستورنا، ونهتّم

ببناء المساجد ورعايتها، ولا نمنع أحداً من الصلاة والصوم والحج.. ولكننا لا نسمح ولن نسمح لرجال الدين أن يتدخلوا بشؤون الحكم والسياسة. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل صحيح بأن المسلمين في مختلف بلدان العالم الإسلامي أحرار في مساجدهم؟! سوف نؤخر الجواب على هذا السؤال قليلاً.

وفصل الدين عن السياسة لم يكن له وجود في جميع مراحل تاريخنا الإسلامي، وكل مسلم يعلم بالضرورة بأن الإسلام قد حرم الربا وأوجب إقامة الحدود، كما يعلم بالضرورة وجوب تنصيب خليفة للمسلمين، ويقرأ الأحاديث والآيات التي تنص على ذلك أو يسمع من يقرؤها إن كان أمياً.. والاستعمار هو الذي بدأ بترويج هذه الأفكار المسمومة منذ أقل من قرن، ثم نهض بهذه الدعوة أفراد قلائل من الذين ابتلي بهم الأزهر أمثال الشيخ علي عبد الرازق الذي أنكر الخلافة والحكم في كتابه [لإسلام وأصول الحكم].. ثم بدأت تنتشر أفكار دعاة العلمانية الذين تخرجوا من الجامعات والمعاهد الأوروبية، ومما ساعد على انتشارها انقلابات أتاتورك وأشباه أتاتورك في عالمنا الإسلامي المنكوب.

ولهذا فلقد أصبح من السهل أن يرفع من شاء رأسه قائلاً: ما علاقة الدين بالحكم والسياسة، وهؤلاء الذين يحشرون السياسة بالإسلام ليسوا أكثر من طلاب حكم، ومن أجل ذلك يغرون بالشباب ويوردونهم موارد الهلاك؟!!

وما علاقة الدين بلباس المرأة وحجابها وعملها وتعليمها.. هل يريد هؤلاء المتزمتون أن يعودوا بالبشرية إلى عصور الانحطاط والتخلف؟! وما علاقة الدين

بالبنوك والمصارف وسائر المؤسسات الاقتصادية، وما الفرق بين بنوكهم الإسلامية التي ابتدعوها وغيرها من البنوك، ولماذا يتاجرون بالدين ويتخذون منه سلاحاً ضد خصومهم ومنافسيهم؟!

وما علاقة الدين بالسياحة والاصطياف؟! وما علاقة الدين بالخمرة وأين يذهب الناس بكميات العنب الهائلة التي تنتجها الأرض؟!

ولو قلت لهم أي شيء لقالوا لك ما علاقة الدين به؟! ولو حاولت أن تقنعهم بأن الإسلام دين شامل يشمل الصلاة والصوم والحج والزكاة، كما يشمل الحكم والسياسة والاقتصاد، وينظم شؤون الفرد والمجتمع، والله جلّ وعلا حرم الخمر والميسر كما حرم الاختلاط والتهتك والفجور... لو حاولت ذلك، وذكرت لهم عشرات الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة لقالوا لك:

هذا فهمك وفهم أمثالك من الذين يريدون [تسييس] الدين وتطويعه لمصالحهم وأطاعهم.. وعلى كل حال فلست أكثر فهماً من الشيخ علي عبد الرازق، أو الشيخ فلان وفلان... وقد قالوا في هذه المسائل غير ما تقول. وخلاف هؤلاء ليس مع هذه الجماعة أو تلك، أو مع هذا الداعية أو ذاك.. إن خلافهم مع الإسلام لأنهم علمانيون زنادقة، ولا يستطيعون أن يتكلموا بكل وضوح وصراحة، ولهذا تراهم يراوغون ويتناقضون، ويهاجمون الجماعات والأفراد وهم يريدون من وراء ذلك التشكيك بالعقائد الإسلامية، كما يريدون نشر مذاهبهم الفاسدة. ومن تناقضاتهم: نقدهم للدعاة العلماء لأنهم يخوضون في قضايا لا علم لهم بها، وليست



من الدين [وهذا ليس صحيحاً]... ومع ذلك فالعلمانيون يخوضون في أصول الإسلام وفروعه من غير علم ولا معرفة، ولا يقبلون تصحيح ما يقعون به من أخطاء فادحة.

ومن تناقضاتهم أيضاً زعمهم بأن الناس أحرار في مساجدهم.. والأدلة تؤكد خلاف ذلك، فالنصارى واليهود وسائر ملل الكفر أحرار في كنائسهم ومعابدهم ومراكز أحزابهم وجمعياتهم، أما المسلمون في مساجدهم وعبادتهم فليسوا كذلك، ويحرمون من الوعاظ والخطباء الصادقين لأنهم لا ينافقون ولا يداهنون، ويفرض عليهم أنصاف المتعلمين لأنهم يوالون الطغاة وينفذون أوامرهم.. أما الزكاة فكم من محسن نُكِبَ وصدورت أمواله لأنه دفع الزكاة لأسر فقيرة جائعة والطواغيت تريد تجويعها بسبب مواقف وقفها أرباب هذه الأسر ضدهم، ولا يكتفون بسجنهم أو قتلهم، بل يريدون أن يموتوا جوعاً.

إن قوم مدين رغم ما كانوا عليه من كفر وخبث أكثر حياءً وأرجح عقلاً من العلمانيين الطغاة الذين ابتلانا الله بهم فيما يسمونه عصر الحضارة والتقدم.

### سادساً: ولولا رهطك لرجمناك

قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَبْقَوُوا فِي رَهْطِي - أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود].

- ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾: سبق تفسيرها

- ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: أي لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، وليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا.

- ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾: الرهط لغة: من الثلاثة إلى العشرة، وقيل إلى السبعة، وقال أبو جعفر: ولولا أنك في عشيرتك وقومك لرجمناك: أي لقتلناك رمياً بالحجارة.

- ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾: ما أنت ممن يكرم علينا، فيعظم علينا إذلاله وهوانه، ولن تقدر على قهرنا وهزيمتنا.

- ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾: أي اتخذتم ما جئتمكم به من أمر الله ظهرياً؛ أي جعلتموه وراء ظهوركم، ونبذتم أمره جلّ وعلا.

وها هنا يعلمنا شعيب عليه السلام درساً لا تنساه الأجيال المؤمنة بالله ورسله... نبي أعزل لا يملك جيشاً ولا حرساً يدافعون عنه، ومع ذلك فهو يواجه قومه بانحرافاتهم، ويهاجم أعرافهم وقوانينهم، ويطالب بتغيير نظام حياتهم... وتحتدم المعركة بينه وبينهم، ويتناقل الناس داخل مدين وخارجها أخبار شعيب مع قومه، ويخشى المشركون من خطر مؤكد تزداد آثاره يوماً بعد آخر، ويتطلعون إلى قتل هذا المتمرد المشاغب - كما كانوا يرون - ليرتاحوا منه، ويطفئوا نيران المعركة التي أجبجها.. ولكنهم يتراجعون احتراماً وتقديراً لذويه وعشيرته الذين لم يغيروا

دينهم ولم يتبعوه.. ويمر نبي الله بموقف فيه كثير الحرج، فهو يعلم بأنه لم يرجم بسبب عشيرته ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، والاستفادة من الأقرباء وارد في سير أنبياء الله ورسله وفي سير من تبعهم من المصلحين والمجددين... ومن منا لا يعلم دور بني هاشم وفي طليعتهم أبو طالب في نصره خاتم الأنبياء ﷺ؟! لقد دافعوا عنه، ورفضوا تسليمه مع أنهم كانوا مشركين، ودافع كثير من المشركين في مكة عن أقربائهم الذين أسلموا من أصحاب رسول الله وأجاروهم، ومن أشهر هؤلاء المشركين المطعم بن عدي.

وعهدنا بالناس يفرحون إذا وجدوا من ينقذهم من هلاك محقق، بل وبعضهم يتفاخرون بأقربائهم وعشيرتهم إذا هابهم الناس من أجلهم، ولو كانوا سفهاء مشركين، أما نبي الله شعيب عليه السلام فقد أراد أن يفهم قومه وغير قومه في عصره وفي كل عصر بأنه ليس من الذين يحرصون على الحياة الدنيا، وليس من الذين يخشون الموت إذا كان الموت في سبيل الله جلّ وعلا، والموت عند أنبياء الله ومن سار على نهجهم أمنية إذا كان من ورائه هداية الناس... ولهذا صرخ شعيب عليه السلام في وجه قومه بكل حزم وقوة: ﴿يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانْخِذْتُمُوهُ وَرَاءَ كُمِ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

- يا قوم فكروا بعقولكم، اتعظوا بمن سبقكم من الأمم الذين أهلكهم الله بسبب شركهم وفسادهم وظلمهم، زنوا الأمور بميزان الحق والعدل والإنصاف.

- يا قوم كيف تحترمون وتجلون رهطي وهم قلة ولا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، ولا تحترمون وتجلون رب العزة الذي خلقكم من سلالة من طين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَيْتُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون]

- يا قوم: إن الأمر أكبر من مدين وما حولها، فلا تقيدوا أنفسكم ضمن بقعة جغرافية ضيقة محدودة، وفي زمن لا يساوي شيئاً أمام عمر الأرض، وعمر الأرض لا يساوي شيئاً أمام الحياة الأبدية الخالدة في النار أو الجنة!؟

- يا قوم: أريد لكم الهداية والاستقامة في دينكم وديناكم.. وأنتم تمنون علي أنكم تراجعتم عن رجمي إرضاءً لرهطي؟!.. ثم تقولون بعد ذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود]، ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١].

تباً لكم.. تباً لهذه العقول الجامدة البليدة، والله لا أقبل الدنية في ديني، وأنا بريء منكم ومن رهطي.. ولا أعتز إلا بالله الواحد القهار الذي هداني وأرسلني إليكم شاهداً ومبشراً ونذيراً.. إن ربي أيها الحمقى أعز وأقوى منكم ومن رهطي ومن جميع خلقه، وإذا أراد لي الحياة فلن تستطيعوا رجمي ولا أقل من ذلك، وهو الذي يميّتي إذا شاء والخير فيما يختاره الله لنا، وأنتم الفقراء إليه جلّ وعلا. قال

تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٨] [المنافقون].

فما لكم والعزة إن العزة لله جميعاً وهو رب العزة، وكل مؤمن به عزيز وإن أطبق عليه أهل الأرض وكادوا له، ولكن المشركين لا يفقهون ولا يعلمون.

وهكذا يضرب لنا شعيب عليه السلام أروع الأمثلة وأجلها في التضحية والفداء وفي مقاومة الظلم والطغيان... ولو كان في أمتنا اليوم بضع مئات من العلماء الدعاة يفهمون واقعهم كما فهمه شعيب عليه السلام لتغير وجه الأرض وجاءنا نصر الله جلّ وعلا.

### سابعاً: التهديد بالنفى

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَانُوا لَنَا كَرِهِينَ﴾ [٨٨] قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [٨٩] [الأعراف].

- ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾: سبق الحديث عن الملأ في الجزء الأول، واستكبروا: أي تكبروا عن الإيمان بالله، واستضعفوا نبيهم.

- ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه<sup>(١)</sup>. والملة: الديانة التي يجمع على العمل بها فرقة عظيمة. والأصل فيه تكرار الأمر من قولهم: طريق حمل ومليل، إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: قال كثير من المفسرين بأن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم، لسكوته قبل البعثة على الإنكار عليهم. وقال بعضهم: إن الكلام من باب التغليب. قال الزمخشري: (لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ﴾ فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيذان منهم بعد كفرهم، قالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً، إجراءً للكلام على حكم التغليب. وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنها﴾ وهو يريد عودة قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب)... ومما ينبغي التأكيد عليه أن شعيباً عليه السلام لم يكن قبل النبوة يعتقد ويدين بما يعتقد ويدين به قومه لأن أهل السنة أجمعوا على عصمة أنبياء الله من الكفر قبل

(١) تفسير ابن كثير: (٢/ ٢٣٢).

النبوة وبعدها.

- وقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ كَرِهِينَ﴾ أي: أتجبروننا على ذلك، وإن كنا كارهين له؟ مع أنه لا فائدة في الإكراه، لأن دينكم إن كان حقاً، لم نكن بالإكراه منقادين له، وإن كان باطلاً لم نكن بالإكراه متصفين به. والاستفهام في قوله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للتعجب من صنعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة، ووجه كل من الإنكار والتعجب جهل هؤلاء الملاء بكنه الدين الجديد الذي بدأ ينتشر بينهم، وبسبب هذا ظنوا أن شعيباً عليه السلام قد يؤثر هو ومن آمن معه التمتع بالإقامة في وطنه ومجارة أهله في كفرهم وذنابلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد المطهر للنفس من أدران الشرك والخرافات، وهم يظنون بنبيهم ومن آمن معه كما يظنون بأنفسهم، وهم أصحاب أهواء وشهوات ومن أهم ما يدينون به عبادة الآباء والأجداد، وتقديس الأوطان.

وفاتهم أن دين الرسل لا يقدم عليه وطن ولا قوم ولا مال ولا نفس وأهل وولد، ولهذا هاجر إبراهيم الخليل عليه السلام وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت] (١)، وهاجر خاتم النبيين مع السابقين الأولين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم... (ولهذا أوجب الله تعالى الهجرة على من يستضعف في أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها.. ورُبَّ أناس عز عليهم ترك

(١) انظر الجزء الأول، هجرة إبراهيم عليه السلام.

وطنهم، فأثروا البقاء فيه مفتونين في دينهم، فأظهروا الكفر ليأمنوا على حياتهم، وظلوا يسرون المحافظة على الإسلام في خاصة أنفسهم، ولكنهم لم يتمكنوا من تلقيه لأولادهم وتربيتهم عليه فارتدت ذريتهم عنه في زمنهم أو من بعدهم، كما وقع لبعض مسلمي الأندلس بعد ثل الاسبانيين لعرش دولتهم العربية وإكراههم على التنصر أو الخروج من البلاد فخرج بعض وبقي آخرون تحت وعيد قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُ سِتٍّ قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء] (١).

وهنا درس جدير بالاهتمام، فالطغاة قد يتركون الدعاة وشأنهم حيناً من الزمن لأن دعوتهم لا تشكل خطراً عليهم، أو لأنهم يريدون تجميع معلومات أكثر عنهم... وتركهم أحرار يساعد على تجميع مثل هذه المعلومات، أو بسبب ضغط القبيلة أو الجمهور، أو لأنهم يحبون أن يتظاهروا بأنهم [ديمقراطيون] متسامحون مع شعوبهم... فإذا التف الجمهور حول الدعاة وشعر الطغاة بأن الأرض تמיד من تحت أقدامهم، وأن [لعبتهم] قد تجاوزت الحد الذي رسموه، في هذه الحالة يخلعون القناع

(١) انظر تفسير المنار: (٣/٩).



الديمقراطي الزائف، ويتخلون عن أسطورة حكم الشعب بالشعب وللشعب، ويسفرون عن وجوههم الكالحة، وقلوبهم الحاقدة، ويستنفرون جميع أجهزتهم الأمنية منها والإعلامية ضد الأبرياء الأتقياء الذين لم يقرئوا إثماً، أو يرتكبوا جريمة، ولا يعرف الناس عنهم إلا الخير والعلم والفضل... فكم نتمنى أن يفهم سبيل المجرمين أولئك الذين يسبحون في بحر من الخيال، أن يتعظوا من تجارب مؤسسة لمن سبقهم من الدعاة دامت حوالي نصف قرن.

وإذا كان لا بد من عقد مقارنة بين طواغيت عصرنا والملا من أهل مدين، نقول: ليت طواغيت عصرنا يهددون الدعاة بإخراجهم من أرضهم وديارهم... ليتهم يقبلون بما قبل به قوم شعيب... ليتهم يعمدون إلى توجيه الإنذارات والتهديدات للأمنيين قبل البطش بهم... لو فعلوا ذلك لما وجدنا شعباً بأسره يئن تحت وطأة القرامطة الجدد وأشباهم.

### ثامناً: اعملوا على مكانتكم إنني عامل

كانت المرحلة الأولى في دعوة شعيب عليه السلام هادئة، فلقد واجه قومه منذ البداية بانحرافاتهم، وقدم لهم الحلول الجذرية التي تنفعهم في دينهم ودنياهم، لكنهم لم يأبهوا لقوله، ولم يشعروا بخطورة ما يدعو إليه، وكان من أهم ردودهم عليه:

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء]، ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ

ظَنُّكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ [الشعراء]، ﴿ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ  
أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ  
الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود] .

وبقية الأمور في هذه الحدود: نبي مهذب صالح لا ينطق إلا بالحكمة والموعظة  
الحسنة، وكفار سفهاء لا يتورعون عن الكذب والبهتان والسخرية.

وعندما علموا بأن القضية جد وأن زعامتهم مهددة انتقلوا معه عليه السلام إلى  
مرحلة أخرى أخذوا يتحدثون فيها عن العنف والإرهاب، وراحوا يهددون نبي  
الله والذين آمنوا معه بالرجم والنفي والقتل، وظنوا أنهم سوف يعودون إلى دين  
قومهم وتهدأ العاصفة، ويتلاشى الخطر. وكان شعيب عليه السلام يعلم بأن قومه  
لا يميزون، وسوف ينفذون تهديدهم عند الضرورة، ورغم ذلك فقد خيب ظنهم  
عندما قال لهم: ﴿ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّنا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا  
يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا  
أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ [الأعراف] (١) .

- لا لن نعود إلى ملة الظلم والبُخس والصد عن سبيل الله.

- لن نعود إلى ملة الذين ييغونها عوجاً في الأرض.

(١) شعيب عليه السلام لم يدين بها كان يدين به قومه، انظر التهديد بالنفي.

- لن نعود إلى ملة الملائ الذين يعبدون شهواتهم ومصالحهم.

- لن نعود بعد أن هدانا الله جلَّ وعلا إلى صراطه المستقيم، وسوف نمضي في تبليغ دعوتنا، وإليه وحده جلَّ وعلا وكلنا أمرنا، فهو يكفيننا أمر تهديدكم، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٤ ﴾ [الطلاق] ولن نقصر في القيام بكل ما أوجبه الله علينا من الأحكام الشرعية ومن الأخذ بالأسباب.

﴿ رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩ ﴾ [الأعراف]: ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحققين المصلحين، والمبطلين المفسدين في الأرض، وأنت خير الحاكمين، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم، وننزهاك عن الظلم، واتباع الهوى في الحكم<sup>(١)</sup>.

لقد قلت غير مرة أن شعيباً عليه السلام كان لطيفاً مع قومه غاية اللطف، يخوفهم بالله، ويذكرهم بما أصاب الأمم الأخرى من هلاك ودمار نتيجة كفرهم وعنادهم وصددهم عن سبيل الله، وكان يقول لهم:

لا تحملنكم عداوتي على اتخاذ موقف ستندمون عليه في يوم لا ينفعكم فيه الندم... يا قوم: إنها النبوة... إنه الوحي... إنه أمر الله جلَّ وعلا، فليست القضية بيني وبينكم

(١) انظر تفسير المنار: (٩/٩).

خلافاً على زعامة مدين أو على أي عرض من أعراض هذه الدنيا الفانية.

وعندما أصروا على كفرهم وعتوا واستكبروا استكباراً، أصر شعيب ومن آمن برسالته على الحق الذي ارتضوه، وأعلنوا بكل ثقة وحزم أنهم لن يتراجعوا أو يتنكبوا هذا الطريق، ومما قاله لهم في هذه المرحلة: ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّعْنَا اللَّهُ مِنهَا ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرْهَطِي - أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود].

وها هنا انتهى الحوار، ولم يعد يجدي مع أهل مدين نصح ولا إرشاد، واستفرغ نبي الله وسعه، وبذل أقصى ما وهبه الله جلّ وعلا من جهد و طاقة، ولم يستجب له إلا نفر قليل من قومه، ومن سنن الله في خلقه هلاك الكافرين الظالمين إذا كذبوا أنبياءهم وأعرضوا عنهم وسخروا منهم. ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف]، أي أهلك الله قوم هود، وصالح، ولوط بعدما ظلموا، وجعل لإهلاكهم وقتاً محدوداً.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا

أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الكهف].

- ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي عذاب الأمم السالفة.

وقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٩)

[هود].

- قال المفسرون: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا.

- ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي في الآخرة.

## الفصل الرابع

### مصارع الطغاة

\* أولاً: ألا بُعداً لمدين.

\* ثانياً: هلاك الأمم وأسبابه.

\* ثالثاً: مترفون معاصرون شهدتُ نهايتهم.

## أولاً: ألا بعداً لمدين

أهلك الله أهل مدين في يومهم الموعود، والله لا يخلف الميعاد.. أما كيفية هذا الهلاك فقد أخبرنا جلّ وعلا في سورة الأعراف أنه كان بالرجفة، وذكر في سورة هود أنهم أخذتهم الصيحة، وفي سورة الشعراء ذكر أنهم أخذهم عذاب يوم الظلّة، وجمع العلامة التحرير والمحقق البارع ابن كثير بين هذه الآيات فقال:

(قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ ٧٨)

[الأعراف] ذكر في سورة الأعراف أنه فأخذتهم الرجفة، أي رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزلاً شديداً أزهدت أرواحهم من أجسادهم، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثالات، وأشكالاً من البليّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أحمدت الأصوات، وظلّة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها؛ في سياق قصة الأعراف أرجموا نبيّ الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودنّ في ملتهم راجعين. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ ٧٨ فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا

السياق ومتعلق بما تقدمه من سياق.

وأما في سورة هود: فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك (لأنهم قالوا النبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص:

﴿أَصَلُّوْا تَك تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا دَشَتُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم.

وأما في سورة الشعراء: فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنظْنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (١) [الشعراء] قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء] وذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلمت سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا

(١) كسفاً: قال ابن قتيبة: أي قطعة من السماء، والظلة: السحابة التي أظلمت [عن زاد المسير



بظلمها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح<sup>(١)</sup>.

قال تعالى:

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف].

- ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴾: أصبحوا في منازلهم ومدنتهم رماداً جاثماً. أي: بعضهم على بعض جثوم. والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل. أي: إنهم سقط بعضهم على بعض عند نزول العذاب.

- ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾: الذين كذبوا شعيباً كأن لم يعيشوا في دارهم، وكانهم لم يتنعموا فيها، بل وكانهم لم ينزلوا فيها.

وهذا شأن الكافرين الظالمين إذا أشرفوا على الهلاك، ينسون الجاه والمال والنعيم والزعامة بل ويظنون أنه ما مرّ بهم نعيم قط. قال ﷺ:

«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في جهنم صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال

(١) البداية والنهاية: (١/ ١٨٩)، وتاريخ الطبري: (١/ ٣٢٧)، وإسناده لا بأس به، وابن عساكر في تاريخه (٨/ ٣٦ ب) نسخة الظاهرية بدمشق، وإسناده إلى علقمة حسن.

له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»<sup>(١)</sup>.

- ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾: (من عادة العرب الاستئناف من غير عطف، في الذم والتوبيخ. فيقولون: أخوك الذي نهب مالنا، أخوك الذي كشف سترنا)<sup>(٢)</sup>.

وكان الملاء يقولون للناس: ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [الأعراف]، وتبعهم وصدَّق مقولتهم الغالبية العظمى من أهل مدين لأنهم سلاطين زمانهم، وأصحاب القرار في بلدهم، وهم الذين يعطون ويمنعون، والريح عندهم: كسب درهيمات من المال، وأمتار من الأرض واغتصاب أموال والناس بالباطل. أما الإيمان بالله جلَّ وعلا وملائكته ورسله، واليوم الآخر... فهذه كلها قضايا لا تستحق التفكير، لأن شهواتهم تتحكم بعقولهم وتسيرها، ولهذا فقد رفضوا إتباع شعيب رغبة في الربح وحتى لا تلحق بهم خسارة.

وبعد أن أصبحوا في دارهم جاثمين، جاءهم الرد الحاسم البليغ من الله جلَّ وعلا ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ومما لا شك فيه أنهم يتمنون

(١) أخرجه أحمد: (٢٥٣/٣)، وابن ماجه: (٥٨٧/٢)، والحديث صحيح، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: (١٥٦/٣)، الحديث رقم (١١٦٧)، وصحيح الجامع الصغير: الحديث رقم (٧٨٧٧).

(٢) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ص (٢٨٢٢)، البابي الحلبي.

أن يكونوا من الذين اتبعوا شعيباً عندما يعرضون على ربهم يوم الحساب... ولكن هيهات... وهم بعد هلاكهم يسمعون مخاطبة نبيهم لهم ولكنهم لا يجيبون<sup>(١)</sup>.

وقال القاسمي في تفسير الآية الثانية ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ

الْخَاسِرِينَ﴾:

(استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير، وإعادة الموصول والصلة كما هي، لزيادة التقرير، والإيدان بأن ما ذكر في حيز الصلة، هو الذي استوجب العقوبتين. أي الذين كذبوه عليه السلام، عوقبوا بمقاتلتهم الأخيرة، فصاروا هم الخاسرين)<sup>(٢)</sup>... لقد خسروا أموالهم وأولادهم ونساءهم وديارهم، وخسروا زعامتهم لمدين وما حولها، وخسروا بكفرهم وظلمهم وفسادهم - رحمة ربهم، وصحبة أنبيائه ورسله في الفردوس.

أجل لقد خسر الذين كذبوا شعيباً دنياهم وآخرتهم، وأحاطت بهم خطيئتهم، فهم في جهنم خالدون... أما شعيب عليه السلام ومن آمن معه فلقد نجاهم الله سبحانه وتعالى من الرجفة التي أهلكت الكافرين من قومهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود:

٥٨]... نجاهم الله تعالى ذكره، بعد صراع طويل، وابتلاء عظيم، وشاهدوا بأعينهم

(١) انظر منهج الأنبياء، الجزء الأول، هلاك ثمود، ص (٨٧ و ٨٨).

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي: (٢٨٢١ / ٩).

مصارع الظالمين، واندثار أمة لها تاريخ أسود كالح وكأنهم ما عاشوا ولا حكموا... فازداد شعيب ومن تبعه إيماناً وثقة بنصر الله وتأييده، وأورثهم تعالت أسماؤه وصفاته الأرض يرفعون فيها رايات التوحيد والعدل والمساواة .

- ﴿فَنَوَّلْنَاهُمْ مِنْهُمُ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ

ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ [الأعراف]

قال أبو جعفر: (يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصاً من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نعمة الله بقومه الذين كذبوه، حزناً عليهم: ﴿يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْنَاكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي﴾، وأدبت إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، بأمرى إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته ﴿فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، يقول: فكيف أحزن على قوم جحدوا وحادانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم؟) (١).

الذين تولى عنهم شعيب عليه السلام: قومه.. قبيلته.. رهطه.. عمومته وإخوانه.. وربما كان من بينهم أحد أبنائه أو نسائه أو أبيه أو أمه.. تولى عنهم وخاطبهم كما خاطب من سبقه من أنبياء الله أقوامهم بعد هلاكهم (٢)، وقال لهم: لقد دعوتكم إلى

(١) تفسير الطبري: (١٢/٥٧١).

(٢) انظر الجزء الأول: ص (٦٧ و٦٨ و٨٧ و٨٨).

دين الله، وتلطفت في دعوتكم، وصبرت على أذاكم.. لكنكم أعرضتم عن الحق الذي جئتم به، وسخرتم من ديني وصلاتي، وهددتموني بالنفي والتشريد، وبالقتل والرجم، وزعمتم أن من حقكم البخس والتطفيف والظلم والصد عن سبيل الله ولا يجوز لي ولا لغيري التدخل في أموركم الخاصة وحرمانكم من حقوقكم التي ورثتموها كإبراً عن كابر، وظننتم من جهلكم أن قيادتكم لمدين وما حولها باقية خالدة، ولم ينفع فيكم الترغيب ولا التهيب... فكيف أحزن على هلاككم؟! كيف أحزن أو أندم وأنا رسول الله إليكم، وقد علمني ربي بأنه لا مودة ولا محبة بين المؤمنين والكافرين؟! الحمد لله الذي أهلككم ونجّانا مما أصابكم..

وقال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِبَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بِيْتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف].

يقول سيد قطب رحمه الله:

(هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب... وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحقها قدره بالمكذبين في كل قرية - والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية- وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين؛ ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل... أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله، وتعرف حقيقة ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الإلهية القاهرة. فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء، وفتح عليهم الأبواب، وتركهم ينامون ويكثرون ويتمتعون.. كل ذلك للابتلاء.. حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص، وإلى الغفلة وقلّة المبالاة، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء، وأنه إنما أصابكم ما أصاب آبائهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير: ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ !!

أخذهم الله بغتة، وهم سادرون في هذه الغفلة، لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء، ولم يتدبروا حكمته في تقلب الأمور بالعباد، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين، وعاشوا كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله.. ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدلت الحال، ولحلت عليهم البركات، ولأفاض الله عليهم البركات، ولأفاض الله عليهم بنعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة، ولا يعقبه

النكال والبوار..

ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض بعد أهلها.. يحذرهم الغفلة والغرة، ويدعوهم إلى اليقظة والتقوى، ويلفتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورثوا هم الأرض من بعدهم، فإنما تنتظرهم سنة الله التي لا تتبدل، والتي يتكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون.

وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ: ﴿ تِلْكَ الْقَرْيُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ [الأعراف: ١٠١]، لإظهاره على سنة الله فيها، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (١٠٤) [الأعراف]... فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالة الله كلها، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها (١).

## ثانياً: هلاك الأمم وأسبابه

\* أهلك الله سبحانه وتعالى قوم نوح بالطوفان: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ١٠ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ١١ فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١٢ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ١٣ ﴾ [القمر].

\* وأهلك عاداً- قوم هود- بريح صرصر عاتية: ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحِ

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٣٥)، دار الشروق.

صَرَّصِرَ عَاتِيَةً ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ [الحاقة].

\* وأهلك ثموداً - قوم صالح - بالصيحة: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴿٣١﴾ [القمر]، وقال: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ ثَمُودَ ﴿٦٨﴾ [هود].

\* وأهلك جلّ وعلا قوم لوط بحجارة من سجيل: ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا ۗ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۗ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ [هود].

\* وأهلك قوم شعيب بالصيحة والرجفة وبعذاب يوم الظلة<sup>(١)</sup>.

\* وأهلك فرعون وجنوده بالغرق: ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودُهُ، فَتَبَدَّلْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۗ فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ

(١) سبق الحديث عن هلاك قوم شعيب.



إِلَى التَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً  
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص].

\* وخسف الله بقارون وبداره الأرض: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ  
 مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

\* وأهلك بني إسرائيل بالصاعقة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوَسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ  
 جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]

\* ومسخ تعالت أسماؤه وصفاته ناساً من اليهود: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ  
 عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ  
 شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة]، وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا  
 عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

هذه أحوال أمم وشعوب أهلكهم الله جلّ علا بكفرهم وظلمهم وصددهم عن  
 سبيله... وأية قرية أو دولة أو أمة تنهج نهج هذه الأمم الظالمة، تكون بعملها  
 الشائن قد عرضت نفسها لعقوبة الله تعالى. قال جلّ من قائل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ  
 قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦٦﴾﴾ [الإسراء].

المترفون: هم الجبارون والمتسلطون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش... والله  
 سبحانه وتعالى يأمر بالعدل والإحسان ولا يأمر بالسوء والفحشاء، وعندما يخالف

الجبّارون المترفون أمر الله، وينشرون في الأرض الفساد، ولا يجدون من يتصدى لهم فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر تعم العقوبة قريتهم ويحل بها الدمار الشامل.

وعن قيس بن أبي حازم قال: قام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (يا أيها

الناس إنكم تقرأون الآية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا

أَهْتَدَيْتُمْ ۗ﴾ [المائدة] إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقابه»<sup>(١)</sup>.

والشاهد هنا قول رسول الله ﷺ: «أوشك أن يعمهم الله بعقابه»، ويعذب سبحانه

وتعالى العامة بعمل الخاصة لأنهم رأوا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن

ينكروه فلم يفعلوا، وسبب هذا التهديد والوعيد القعود عن فريضة الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وحدها، فكيف يكون الحال إذا عم الظلم، واحتكم الناس لغير

شرع الله، وأمر أولوا النهي والسلطان بالمنكر وجاءت قوانينهم صريحة في ذلك!؟

والعقاب أو الدمار قد يكون صيحة أو رجفة أو طوفاناً كما أخبرنا جلاً وعلا

عن الأمم التي مر ذكرها قبل قليل من هذا البحث، وقد يكون حرباً عالمية نووية

مدمرة... وتسير البشرية نحو هذه الحرب بخطى حثيثة، ولا أعتقد بأن سياسة

(١) قال ابن كثير: روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من

طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه

موقوفاً على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطني، تفسير ابن كثير: (١٠٩/٢).

الوفاق الدولي سوف تستمر لأن كلاً من الدولتين العظميين تخططان للسيطرة على العالم، وتحجيم نفوذ وهيمنة الدولة الأخرى، وسوف تصل الأمور إلى حد يستحيل فيه وجود وفاق... ومن غرائب ما نشرته بعض الصحف الغربية في أوائل عام ١٩٨٧ أن الرئيس الأمريكي تقدمت به السن وأصيب بمرض فقدان الذاكرة، ومرت عليه فترة من الزمن كان يعاني فيها حالة اكتئاب نفسي، ولهذا قام كبار المسؤولين في البيت الأبيض بسحب مفاتيح تشغيل الأجهزة النووية منه خشية أن يضغط على زر من هذه الأزرار فيكون من وراء ذلك دمار العالم أو معظمه، فأية مدينة وأية حضارة هذه التي وضعت البشرية كلها تحت تصرف رجل معتوه؟<sup>(١)</sup>.

وقد يؤدي ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها إلى هلاك سكان المعمورة... ففي شتاء عام ١٤٠٧ هـ وصلت درجة الحرارة في كثير من دول أوروبا الغربية إلى [٣٠] درجة مئوية تحت الصفر، وهلك بسبب ذلك خلق كثير، ولو ازداد انخفاض درجة الحرارة شهراً أو شهرين لهلك الناس والأنعام والزرع، والله جلّ وعلا قادر على ذلك... ومن تقدير الله أن درجة الحرارة في العام نفسه أي في صيف عام ١٤٠٧ هـ بلغت حوالي [٥٠] درجة مئوية فوق الصفر في كثير من دول منطقة البحر المتوسط، ولهذا فقد هلك كثير من الناس في اليونان وتركيا وإيطاليا لأنهم لم يتعودوا على مثل هذه الأجواء، ولو ارتفعت درجة الحرارة فوق الخمسين خلال شهر أو شهرين لهلك

(١) مما نعتقده وندين الله به أن الموت والحياة بيد الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له... ولكن قد يكون من قضاء الله وقدره تسليط بعض الظالمين على بعض.

الناس في هذه المنطقة، ويستحق هؤلاء وأولئك بذنوبهم وكفرهم وفسادهم مثل هذه العقوبة الربانية، وجلّ من قائل: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف].

ومن الأخطار المدمرة التي تهدد أمريكا ودول أوروبا الغربية والشرقية وغيرها تلك الأمراض التي أفرزتها حضارتهم الهابطة كمرض الإيدز وأمراض انتشار المخدرات بين جميع الطبقات وبشكل أخص بين العسكريين، والناشئة من طلاب المدارس، فخلال أعوام قليلة ستكون جيوشهم عاجزة عن الدفاع عن أوطانهم، بله الاعتداء على بلدان العالم الثالث. أما الأسلحة - قديمة أو حديثة - فلا يمكن أن تؤدي دورها المطلوب إلا إذا كان حملتها رجالاً يقاتلون من أجل عقيدة يدينون بها ويستعذبون الموت من أجلها... أما الناشئة من الطلبة فعددهم يتناقص لأن الغربيين يكرهون الزواج وما يترتب عليه من نفقة وتربية الأبناء ورعايتهم، ورغم تناقص عدد الناشئة فأحوالهم في غاية الفحش والسوء<sup>(١)</sup>.

### أعاصير تنذر بالخطر

عندما أشرفت على الانتهاء من كتابة هذا الفصل [مصارع الطغاة] اجتاحت أعاصير شديدة جنوب [انكلترا]، وكان ذلك بالتحديد بتاريخ ٢٣ صفر عام

(١) من شاء المزيد فليراجع دراسات في السيرة النبوية، للمؤلف، ص (٣٣ - ٤٦).

١٤٠٨ هـ أي ليلة الجمعة، وبعد حوالي ساعة انقطع التيار الكهربائي، وأصبحت لندن تعيش في ظلام دامس، والذين كانوا تلك الليلة في لندن يتعجبون مما حدث، ويستغربون كيف صمدت المنازل ولم تسقط من هول الأعاصير وشدتها، والمؤمنون منهم يحمدون الله سبحانه وتعالى أن نجاهم من هلاك كاد يعم المدينة كلها.

وأسفرت هذه الأعاصير عن خسائر مادية كبيرة جداً، سقطت أشجار كثيرة في الشوارع والحدائق العامة المشهورة، وعمر بعض هذه الأشجار يزيد على مائتي عام، وتهدمت كثير من المنازل، أما الخسائر البشرية فكانت قليلة.

والطريف فيما حدث أن مذيع النشرة الجوية في إذاعة لندن قال مساء الخميس أي قبل الأعاصير ببضع ساعات:

(عن إمكانية تعرض البلاد لأعاصير غير واردة)، وثار تائراً المعارضة وبدأت التحقيقات لمعرفة أسباب فشل مكتب الرصد الجوي... وبعد التحقيق ذكروا أسباباً واهية لا تستحق أن تنقل.

ما أضعف الإنسان أمام خالقه، فانقطاع التيار الكهربائي يعني انقطاع التدفئة عن معظم المنازل... فلو حدث هذا في وقت شديد البرودة ودام الإعصار أياماً لهلك الناس من البرد، بل لو استمر الإعصار أياماً لسقطت المنازل على ساكنيها، ومن ثم فهؤلاء الحمقى لا يلجؤون إلى ربهم وإنما يلجؤون إلى حكومتهم ويظنون أنه كان باستطاعتها معالجة الموقف وقد قصرت في ذلك.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ مُسْتَغْفِرًا ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾﴾

[العلق]، أي: إن الإنسان ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً، وقوله ﴿لِيَطْغَى﴾ أي: يجاوز الحد ويستكبر على ربه.

-أين عقول كبار علمائهم التي يزعمون بأنها تصنع المعجزات!؟

-أين اختراعاتهم واكتشافاتهم وأجهزة أرسادهم الدقيقة العجيبة!؟

طلما تهاوت هذه الأجهزة والعقول، ووقفت عاجزة حائرة أمام مرض من الأمراض العصرية الكثير التي ابتلاهم الله بها أو أمام الإعصار الذي اجتاحتهم، وإذا جاءهم الأجل المحتوم لا ينفعهم شيء، ولن يتأخر أمر الله دقيقة واحدة، ولكنهم لا يفقهون.

### ثالثاً: مترفون معاصرون شهدت نهايتهم

إن الحديث في هذه المسألة ذو شجون ومن المتعذر عليّ في هذه العجالة الاسترسال في عرض العقوبات التي أنزلها الله بالعصاة المفسدين في هذا العصر، وبيان أنواعه وما تحويه من عبر وعظات، وسوف اكتفى بذكر مثالين لأن الذين نالهم غضب الله في هذين المثالين تجار مرابون ظلمة، ولهذا كان هناك تشابه بينهم وبين أهل مدين من هذه الزاوية، وسوف أحاول الإيجاز قدر المستطاع.

#### المثال الأول:

إن الذين نالهم غضب الله وحلت بهم عقوبته كانوا معظم كبار التجار في بلدي

-أي بلاد الشام- وها كم قصتهم كما شاهدتها:

كان معظم كبار التجار في بلاد الشام محتكرين مرايين، فهم يتعاون المحاصيل الزراعية من الفلاحين يوم حصادها بأبخس الأسعار، وهم الذين يتولون تحديد هذه الأسعار بالصورة التي يريدونها ولا يملك الفلاح من أمره شيئاً، ثم يملؤون بها مخازنهم التي بنوها لاحتكار طعام الضعفاء والمساكين... وفي فصل الشتاء تزدهم حوانيت هؤلاء التجار بالفلاحين الذين يستدينون منهم بذار أرضهم ومؤونة عيالهم، وتكون أسعار القمح وغيره قد أصبحت ضعف سعر الصيف، وزيادة على ذلك يفرض التجار المحتكرون على الفلاحين الضعفاء نسبة ربويّة تتراوح بين ٥٠٪ إلى ١٠٠٪، وبعد بضعة أشهر يحين موعد الحصاد، فيجد الفلاح نفسه عاجزاً عن سداد الدين، ويفضل الدائن الجشع بتأجيل الدين عاماً آخر مقابل نسبة ربويّة جديدة، وهكذا يصبح الدين بعد عامين أكثر من ثلاثة أمثاله.

وإذا عجز الفلاح عن تسديد الدين وما أضيف إليه من أموال ربويّة يجد نفسه في السجن، ويصادر التاجر المحتكر أرضه وأنعامه وجميع أملاكه، وكان القانون والذين وضعوه إلى جانب المحتكر الذي يتلاعب بأقوات الناس وأرزاقهم، وقد يلجأ أهل المدين وأبناءؤه إلى الدائن يطلبون منه العطف والشفقة والرحمة، ولكنهم لا يجدون عنده إلا القسوة والظلم والكبرياء، ويتهم رب الأسرة بالتلاعب والكذب وأكل أموال الناس بالباطل، هذا إذا تكرم وقبل الاجتماع بهم في مكتبه، أما البيت فلا يقبل أن تطأه أقدام هؤلاء

الهمج الرعاع... ولما كان النظام بقوانينه على جانب هذا المرابي فتراه يأخذ ما يريد من الدائن، وزيادة على ذلك يخبر أبناء مهنته بالمشكلة، فإذا عاد الفلاح المسكين ليستدين لا يجد من المرابين من يستجيب لطلبه.

وطبقة المحتكرين المرابين دخيلة على مجتمعنا الإسلامي لأن الله جلّ وعلا حرم الربا ونفر منه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة].

وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة].

وفي ظل الاحتكام إلى شرع الله كانت كل معاملة ربا تعتبر لاغية، ولا يحق للدائن أن يأخذ أكثر من رأس ماله، وإذا كان المدين معسراً وجب على الدائن أن يصبر عليه، والعلاقات بين المسلمين تقوم على المحبة والأخوة والشفقة والرحمة.

وورث العصاة المرابون هذه المهنة الوضيعة عن اليهود، فقبل عام ١٩٤٨ م



كانت لهم محلات تجارية في كثير من البلدان العربية، وكانت أهم أعمالهم الربا والاحتكار وتجارة الذهب، وكان اسم يهودي في بلادنا مرتبطاً بالذهب والربا.

أشار لهذه الظاهرة الكاتب الجزائري مالك بن نبي رحمه الله فقال:

(... وأعمال يهود قسنطينة بدت في ازدهار كبير يدر عليهم الذهب في تلك الظروف المضطربة، فكانوا يقرضون الأموال بفوائد تصل إلى ٥٠٪ أو ٦٠٪ سنوياً، وكثيراً ما كان [سيدي المسلم]<sup>(١)</sup> يوقع على بياض السندات والأوراق التي يقدمها تجار شارع فرنسا.

وفي الفترة بين عامي ١٩٢٠م و١٩٢٥م تمت في تلك الحوانيت تصفية ما تبقى من ثروات لدى عائلات قسنطينة العريقة في برجوازيتهها. وفي تلك الحوانيت أيضاً كان الفلاحون يتخلون عن آخر قطعة من أراضيهم في مقاطعة [سطيف] أو [قلم] أو [عنابة]. والطريقة كانت واحدة، إنها التوقيع على سندات ببيضاء.

وهذه الإجراءات فرضت حصاراً مخيفاً حول ملكية الجزائريين أبناء البلاد. وقد أصبحت حوانيت اليهود عبارة عن واسطة لانتقال الملكية من أيدي الجزائريين إلى أيدي المعمرين<sup>(٢)</sup>، وكان ذلك سهلاً؛ فالبرجوازي من أجل أن يقيم حفلة زواج، والفلاح من أجل أن يشتري سيارة [سيرون] ليأتي بها ويقضي سهرة

(١) سيدي: تعني احترام المخاطب وتقديره، ولكن الكاتب يستخدمها للسخرية من الذين كانوا يجهلون مخططات اليهود والفرنسيين.

(٢) المعمرين: الذين دخلوا الجزائر مع المستعمر الفرنسي وهدفهم الاستيطان فيها.

في شارع [ايشيل] في قسنطينة كان بحاجة للمال. واليهودي كان مستعداً دائماً ليقرضه بفائدة ٦٠٪، والفائدة المتجمعة بهذه النسبة تنقل آلياً بعد عام أو عامين ملكيتهم من أيديهم إلى أيدي المعمرين.

[وسيدي المسلم] لا يحسب الفائدة مطلقاً عندما يقدم له الدائن اليهودي الشاي والنعناع أو القهوة تركية جيدة الصنع، في الساعة التي يجين فيها توقيع السندات. ولم يكن ليدرك حقيقة ما فعل إلا حين يطرق حاجب المحكمة بابه<sup>(١)</sup>.

رحم الله مالكا، لقد كان يتحدث عن أوضاع المسلمين في قسنطينة، وكأنه يتحدث عن مدن وقرى بلاد الشام التي كان لليهود -والذين رباهم اليهود- وجود فيها، وفيما ذكره دليل على تشابه مشكلات العالم الإسلامي قديماً وحديثاً.

نعود إلى الحديث عن طبقة المرابين والمحتكرين من طبقة التجار في بلاد الشام، وكنا قد تحدثنا عن سلوكياتهم كأفراد.. أما أوضاعهم الجماعية، فلقد كانت لهم نقابات لا يصل إلى قيادتها إلا كبار أصحاب رؤوس الأموال الذين ينحدرون من عائلات معينة، وفي هذه النقابات يتم رسم سياسة الدولة -الخارجية والداخلية- واختيار كبار المسؤولين فيها.. وتلعب هذه النقابات دوراً مهماً في معارك انتخاب أعضاء المجالس التشريعية [البرلمانات]، ووسائلهم في ذلك كوسائل اليهود: فهم يعلمون بأنهم لو خاضوا هذه المعارك لفشلوا لأن أو راقهم مكشوفة والناس لا يثقون بهم، ولهذا يلجؤون إلى ترشيح أسماء غير معروفة بانتائها إلى نقاباتهم،

(١) مذكرات شاهد القرن، مالك بن نبي، دار الفكر بدمشق، ص (١١٢).

وتتمتع بسمعة طيبة وطنياً وإسلامياً<sup>(١)</sup>.

ومن جهة ثانية يدعمون أحزاباً يمينية تؤمن بالنظام الرأسمالي الرئوي، وكان لهذه الأحزاب ثقل في تاريخ الشام الحديث، ومن جهة ثالثة يقيمون علاقات متينة مع شيوخ القبائل والتكتلات غير الإسلامية كالنصارى وغيرهم، ومما أعلمه أنهم كانوا يدعمون حزباً علمانياً يسارياً، ينادي زعيمه بالاشتراكية، وكان يخوض معارك داخل المجلس ضد الاحتكار والربا، وحجتهم في ذلك بأن زعيم الحزب ومن حوله انتهازيون، ووجوده في المجلس يضمن عدم وصول الأحزاب اليسارية المتطرفة إليه، وليس مهمماً عندهم التصريحات التي يبديها داخل المجلس وخارجه، فالسياسيون في بلدنا اعتادوا على مثل هذه المواقف المتناقضة... بل وليس مهمماً عندهم كون هذا الحزب من أشد الأحزاب كيداً للإسلام والمسلمين.

لقد رأيت معظم كبار هؤلاء التجار، يقدمون مصالحهم على كل شيء، فهم يؤيدون الحاكم العسكري المستبد ولو كان شيطاناً، إذا لم يمس مصالحهم بسوء... وليفعل بعد ذلك ما يشاء... لينشر الفساد... وليتحدَّ عقيدة الأمة... وليزج بالعلماء والدعاة في السجون والمعتقلات المظلمة... لن يجد بعد ذلك منهم إلا التأييد والدعم وتبرير كل ما يفعله.. ويتغير الحال إذا قيد حريتهم في الاحتكار أو في الاستيراد والتصدير، ويتذكرون بأنه عدو للإسلام، ويسعون إلى استشارة العلماء،

(١) من بينهم علماء مشهورون كانت لهم مواقف مؤسفة، وكانوا يتبنون أموراً انعقد الإجماع على

حرماتها، وحسبهم أنهم كانوا ينفذون ماتأمرهم به هذه النقابات!!

ويلجؤون إلى رواد المساجد يطلبون منهم إنقاذ عقيدة الأمة من المستبدين الظالمين، ويجدون بكل أسف من يستمع إليهم ويظن بهم الخير.

وتشاهد بعضهم في المساجد فتظنه من بقايا السلف الصالح.. فتراه يطيل الركوع والسجود، ويكثر من الاستغفار، ويحرك رأسه يمينا ويسارا إذا سمع المواعظ والتذكير باليوم الآخر.. ومن بين ما يسمعه التحذير من الاحتكار وتهديد الله ووعيده للمرابين، فتظن بأن الرجل سوف يتوب، لكنه إذا خرج من المسجد أصبح إنسانا آخر ليس له أي صلة بالإنسان الذي شاهده بالمسجد، فتراه يملف وهو الكاذب، ويخون الأمانة، ويغش في بيعه، ويعرف كيف يستغل حاجة المشتري.. ثم تتبعه إلى بيته فتجده الإنسان نفسه الذي رأته في مكتبه التجاري، والذي يحرص عليه أشد الحرص أن يسير أبناؤه على خطاه، ولا ينجل من تدريبهم على الغش والاحتكار والاحتيال.

ومن سنن الله في خلقه أن هؤلاء الظالمين لن يسلموا من عقوبة الله سبحانه وتعالى، ولن ينجوا من بطشه، ولقد شاهدت ما أنزله الله بهم كما شاهدت ظلمهم وطغيانهم: واليكم وصفاً موجزاً للعقوبة التي أحلت بهم:

أنشأ اليهود والصليبيون في بلادنا أحزاباً علمانية، وجعلوا من أهم شعاراتها: الاشتراكية والتأميم والحرية... ومن أبرز أعدائهم: الرجعية [أي الإسلام] والإقطاع، والرأسمالية، وفُتِنَ بهذه الأحزاب أبناء الفلاحين وغيرهم من الفقراء المدقعين، الذين أشربوا كره طبقة كبار التجار، وسمعوا من آبائهم وأمهاتهم

العجائب والويلات عن ظلم هذه الطبقة وأنهم كانوا يعاملون العمال والفلاحين معاملة لا تليق بالعبيد، فكان السؤال المطروح عند هؤلاء: كيف يتقنون من هؤلاء المستغلين الانتهازين، وكيف يثأرون لكرامة آبائهم؟! ووجدوا ضالتهم في الأحزاب الاشتراكية [الثورية]، وسهل لهم قادتهم دخول الجيش، وبعد زمن يسير أصبح الشباب من كبار الضباط... وهكذا بدأت الانقلابات العسكرية، وأمحو المصانع والشركات، ووزعوا الإقطاع أو ما أسموه بالإقطاع، وعينوا الضابط الصغير الذي لا يفهم شيئاً عن الصناعة مديراً أو رئيس مجلس إدارة مصنع من المصانع الكبيرة... فكان هذا الضابط يحتل المصنع احتلالاً عسكرياً، ويطير قلب صاحب المصنع هلعاً عندما يشاهد الدبابات والجند يحيطون به من كل جانب... ويتقدم المدير الجديد، فيفتش صاحب المصنع تفتيشاً دقيقاً، ويأخذ منه حتى [القلم] الذي في جيبه لأنه من أموال الأمة ويجب أن يعود للأمة [مسكينة هذه الأمة]، ثم يطرده من مصنعه، فيخرج منه ذليلاً مطأطئ الرأس، بل ويتمنى أن يكون مصيره منزله وليس السجن... وخلال ساعات قليلة يجد التاجر الكبير نفسه في وضع لا يحسد عليه... لقد ذهبت المصانع والشركات والحقول والمزارع والمباني والسيارات والخدم... وماذا كانت النتيجة؟!!

إن بعضهم قد انتحر أو سقط مغشياً عليه وفارق الحياة، وبعضهم فقد عقله وأصبح نزيل المستشفيات، وناس منهم تمكنوا من تهريب بعض أموالهم خارج الحدود، فلحقتهم عقوبة الله في لبنان أو في غيره... وهكذا خسر المرابون الظالمون

دنياهم ولم يقدموا شيئاً لأخراهم، وسلّط الله جلّ وعلا بعض الظالمين على بعض... وبدأ دور الإقطاعيين والرأسماليين الجدد، وقد سبق لي الحديث عنهم، فبينت جرائمهم وكشفت صفحات من تاريخهم الأسود الذي لا يجوز أن يقارن بتاريخ معظم كبار التجار<sup>(١)</sup>.

### المثال الثاني:

ويشمل شواهد كثيرة أوجزها فيما يلي:

\* - شهدت ما آل إليه آخر ملوك مصر [الفاروق] وحال أمه وأخته وبطانته، ثم ما آل إليه حال كبار الإقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال.. هؤلاء جميعاً استعبدوا العمال والفلاحين ونشروا ألوية الفساد في سائر ربوع مصر، وظنوا أنهم باقون على هذا الحال ولا تستطيع أية قوة في الدنيا زعزعة عروشهم، أو سلبهم ما يظنون أن الله سبحانه وتعالى خلقهم من أجله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا عندما نظّم أبناء العمال والفلاحين انقلاباً عسكرياً وأسّموه ثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م.

\* - وشهدت ما آل إليه حال ثوار ٢٣ يوليو الذين حكموا مصر بعقلية فاروق وعقلية الإقطاعيين والرأسماليين.. وصار الناس يترحمون على الحرية التي كانوا ينعمون بها في العهد الملكي.. بطش جمال عبد الناصر برفاقه الذين كانوا يثقون به كل الثقة، ويقفون إلى جانبه في كل معركة يخوضها، وبالأخص معاركه ضد زملائه الذين كان يبطش بهم

(١) انظر [صور من الظلم في القديم والحديث] من هذا الكتاب.

الواحد تلو الآخر ابتداء من محمد نجيب وانتهاء بمشيرته عبد الحكيم عامر.

\*- وشهدت ما آلت إليه أحوال أصفياء عبد الناصر وبطانته بعد هلاك سيدهم عام ١٩٧٠م.. كان هؤلاء أطوع لعبد الناصر من بنانه، وكانوا لا يتورعون ولا يترددون في تنفيذ الأوامر والتعليمات مهما كان قبحها، ولا يعرفون للأخلاق والقيم الرفيعة أي معنى، ومنهم من وشى بشقيقه ليقنع فرعون بشدة وعمق الولاء له!!.

ظنت هذه البطانة السيئة أن لها ملك مصر، وأن القوة الضاربة بأيديهم لا سيما وأن عصابتهم تمسك بمختلف مرافق الدولة بيد من حديد، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.. فالرئيس الجديد أنور السادات كان من أضعف رجال الثورة أمام عبد الناصر، وكان لا يعصي له أمراً، وكانت هذه العصابة تستضعفه وتسخر منه، ولا تحسب له أي حساب... وما بين طرفة عين والتفاتتها وجدوا أنفسهم في السجون، فسبحان العلي القدير الذي بمشيئته صار السجن مسجوناً ينام ويستيقظ بين ضحاياه، وجعل الأمر مأموراً، والقوي ضعيفاً. لقد عاش هؤلاء بقية سني أعمارهم وكأنهم لم يروا نعيماً قط.

\*- وشهدت مصرع طاغية ليبيا معمر القذافي، وما أدراك ما طاغية ليبيا. إنه نوع فريد من طغاة هذا العصر! لقد أنكر كل أو بعض سنة رسول الله ﷺ، وحاول حذف آيات أو كلمات من القرآن الكريم، وسمى الدعوة إلى الله زنادقة، وما من شيء يلفت نظر العالم إليه إلا فعله. وفي الشأن الداخلي نكل بزملائه قادة ثورة ما سمي بالفتاح عام ١٩٦٩م، ولا أدري وأنا أخط هذه السطور هل من أحد منهم

بقي على قيد الحياة أم لا، وبطش بالعلماء والدعاة فقتل كثيراً منهم، وارتكب مجزرة سجن [أبي سليم] فقتل المئات داخل السجن، وأفقر ليبيا وهي الدولة الغنية.

وخلاصة القول: فقد كان القذافي جندياً من جنود إبليس، بل كان يطمح إلى أن يقود انقلاباً داخل مجلس الأبالسة ويحل<sup>(١)</sup> محل قائد المجلس. لقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بعد أن ضاقت عليه ليبيا بما رحبت ولم يجد إلا [أسطوانة] مجاري ماء أو غيره يختبئ بها، وكانت نهاية طاغوت كل من تونس ومصر قريبتني الشبه بنهاية القذافي، ولكل ظالم نهاية.

\*- وشهدت ما آلت إليه أحوال شريحة من تجار دول الخليج العربي. لم يتركوا نوعاً من أنواع المنكرات إلا فعلوه، وكانوا لا يتناهون فيما بينهم عن منكر فعلوه.. وكانوا في بريطانيا التي يعشقونها أشد العشق وفي سائر دول أوروبا وأمريكا مضرب الأمثال في البذخ والفجور. أما مع خدمهم ومع الموظفين الذين يعملون في شركاتهم فلهم شأن آخر.

كان الخدم -ذكوراً أو إناثاً- لا يلقون منهم أي احترام أو تقدير، مع أنهم يعملون طوال النهار وبعض الليل، ورواتبهم لا تساوي نصف تكلفة كلابهم

(١) وكان مما يردده البيهون في مجالسهم: أن مظاهرات صاحبة كانت تجوب العاصمة، وتحتف ضد نظام الملك إدريس السنوسي مع أنه كان من أحسن ملوك عصره مع رعيته، وكان بسيطاً متواضعاً. وذات مرة سمعهم يهتفون: إبليس ولا إدريس، فقال:

اللهم ابتليهم بإبليس... ثم جاءهم هذا القذافي فصاروا يترحمون على إدريس.



المدللة، وفضلاً عن هذا وذاك فقد كانوا يضربونهم لأنفه الأسباب، ولا يتورعون عن انتهاك أعراض الخادمت.. وطالما قرأنا وسمعنا أن مخزون الصبر ينفذ أحياناً عند بعض هؤلاء الخدم فيقدمون على قتل مخدوميهم بطرق بشعة.

أما الموظفون الذين يعلمون في شركاتهم فرواتبهم قليلة مع زيادات طفيفة لا تتناسب مع غلاء الأسعار، وغلاء أجرة العقارات التي تصل خلال سنوات قليلة إلى ثلاثة أضعاف، وأحياناً لا يكاد راتب الموظف يفي بأجرة سكنه الشهرية، فيضطر إلى البحث عن عمل مسائي أو يلجأ المسكين إلى الجمعيات الخيرية يطلب المساعدة، ويخفف السيد جناحه للموظف في حالات نادرة، فيستمع إلى شكواه: لقد أفنيت عمري في خدمتك، وأصبح راتبي لا يكفي نفقة أسرتي. فيكون الرد: هذا هو السوق، ولي شركاء، وإن وجدت الأفضل عند غيري فالباب مفتوح أمامك ثم يخرج من مقابلة سيده وهو يجأ بالدعاء إلى الله ويسأله الانتقام من هذا الذي ظلمه، ثم يتكرر هذا الدعاء في سره وعلنه، ويؤمّن أطفاله الذين حرّموا من التعلم وغيره على دعاء أبيهم. وإذا كانت دعوة المظلوم لا ترد، كما قال رسول الله ﷺ: «... واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»<sup>(١)</sup> فقد جعل تدمير هؤلاء الظالمين في تدبيرهم عندما دخلوا سوق الأسهم من أوسع الأبواب، وفي تدبيرهم أنهم خلال أيام أو شهور قليلة سيجنون الأرباح ما لا يمكن أن يجنوه طوال سني عمرهم، ثم جاءت عاصفة سوق المناخ قبل أكثر من ربع قرن، لقد

(١) قطعة من حديث معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ. متفق عليه.

فقدوا كل ما جمعوه بالسحت أو جله خلال ساعات، فبعضهم صار نزيل مستشفيات الأمراض النفسية، وبعضهم الآخر انتحر وآخرون منهم نجحوا في تهريب بعض أموالهم إلى بلدان أوروبا، وتواروا عن أعين أصحاب الحقوق. وكانت خسارتهم المادية. لقد هتكت أستارهم، وكُشِفَ المخفي من حياتهم، وتناقل العامة أخبار أكاذيبهم وفضائحهم وأسماء من يدعمهم من الجهات الرسمية التي يجرم القانون مزاولتها لمثل هذه الأفعال، والويل لهؤلاء من مشهد يوم عظيم .

\*- وشهدت مصارع المجرمين الذين ارتكبوا مجازر المخيمات الفلسطينية في لبنان. ومن أبرزهم:

- طوني بن سليمان فرنجية الذي كان يتطلع لوراثة أبيه.
- بشير بن بيار الجميل قائد القوات المارونية ورئيس الجمهورية.
- سعد حداد زعيم الدولة المسيحية في الجنوب وعميل إسرائيل.
- هلاك كميل شمعون بعد اغتيال ابنه، واستهداف الكتائبين لمعظم قادة قواته الخاصة.
- إيليا حبيقة قائد مجزرة صبرا وشاتيلا.
- بيار الجميل الزعيم التاريخي لحزب الكتائب. أهلكه الله جلّ وعلا بعد أن فجع بقتل ابنه وأمله بشير.
- موسى الصدر زعيم شيعة لبنان ومؤسس حركة أمل، وحليف النظام النصيري

الباطني في دمشق. لقد كانت نهايته التي لا تختلف عن نهاية ضحاياها وضحايا طائفته في المخيمات الفلسطينية في لبنان على يد صديقه معمر القذافي الذي يفتخر بأنه من نسل العبيدين [من فرق الشيعة الغالية] الذين حكموا مصر والمغرب العربي ردحاً من الزمن.

وهذه نهاية كل ظالم. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ [الفجر]

## استدراك

أعدت قراءة كتابي هذا بعد مرور ربع قرن على صدور الطبعة الأولى، وتوقفت عند حديثي عن الظالمين من تجار الشام وبلدان الخليج العربي وما آلت إليه أحوالهم، ثم تساءلت أليس في حديثي هذا ظلم لشريحة واسعة منهم؟ أو على الأقل، فقد كان من الواجب ذكر مآثرهم الطيبة، وها أنا أستدرك فيما يلي ما غفلت عن الإشارة إليه:

في بلاد الشام [ويا لهف نفسي على الشام وأهلها] عدد كبير من العلماء والدعاة والفضلاء يعملون في ميادين التجارة، ويلتزمون بآداب الإسلام وأحكامه في بيعهم وشرائهم، ويضربون أروع الأمثال، ويتجنبون الربا والاحتكار وتطفيف الكيل والميزان، ويطهرون أموالهم بالزكاة والصدقات، ويساهمون في أعمال الخير مثل كفالة اليتيم، وإغاثة الملهوف، وبناء المدارس والمعاهد الشرعية والإنفاق على أصحاب الحاجة من طلابها.

وكذلك كان هذا شأن شريحة واسعة من تجار دول الخليج العربي الذين تمتد أياديهم البيضاء في عمل الخير إلى جميع بلدان العالم الإسلامي.. فجزاهم الله خيراً، وزادهم بسطة في مالهم وفضلهم وأخلاقهم، وفي الذرية الصالحة التي تنتهج نهجهم، وهذا أهم ما يكسبه الإنسان في حياته الدنيا، واليد العليا خير من السفلى وفي كل خير.

## الخاتمة

\* - دعا نبي الله شعيب قومه إلى وحدانية الله تعالى وعدم الإشراك به، وإلى الإذعان التام لكل ما يأمر به الله عباده. كما دعاهم إلى اجتناب كافة أنواع الظلم سواء كان ظلم العبد لربه وهو أسوأ أنواع الظلم، أو ظلم الناس للناس، أو ظلم الإنسان لنفسه، ولهذا صلة بذلك.

\*- وكان شعيب عليه السلام قدوة حسنة في قوله وفعله، فلا يأمر قومه بأمر إلا ويسبقهم إلى فعله، ولا ينهاهم عن شيء ويأتيه. وفضلاً عن ذلك ما كان يطلب منفعة أو أجراً مقابل ما يدعوهم إليه. ولقد كانت ولا تزال التربية بالقدوة الحسنة أفضل وأعمق أنواع التربية، فالناس يراقبون الدعاة في أفعالهم ويرون فيما إذا كانت تطبيقاً عملياً لأقوالهم أم لا، وأصحاب الضمائر الحية والفطر السليمة يتأثرون بكل من يتصف بالصدق والعدل والأمانة والكرم والعفة والزهد عما في أيدي الناس من متاع.

\*- واجه شعيب قومه بانحرافاتهم، وكان يعلم بأن ما يدعوهم إليه سيكلفه الكثير.. الكثير، وليس له إلا أن ينفذ ما أمره الله به فهو عبده والأمين على وحيه.

وعندما أصبحت المواجهة أمراً واقعاً، وذكره قومه بضعفه وهوانه بينهم، وهددوه بالرجم أو النفي لولا خشيتهم من أهله وأقربائه. فما ضعف نبي الله أمام هذا التهديد والوعيد، ورفض أن يحتمي برهطه لأن الله جلّ وعلا الذي أرسله أقوى منهم ومن رهطه، ثم وقف بينهم كالطود الشامخ وقال لهم:

لن أعود إلى ملتكم، ملة الكفر والظلم والفسوق والعصيان، بل ولم أكن من قبل من المؤمنين بهذه الملة، فاعملوا ما تشاءون، فإني ماضٍ في تبليغ ما أمرني الله بالصدع به:

﴿ وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود]

\* - لا سبيل إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل، ورفع الظلم إلا باتباع منهج أنبياء الله ورسله وورثتهم من العلماء الربانيين. فقد يتحدث الناس عن حكام من غير المسلمين يعدلون بين رعيتهم، ويلتزمون بقوانينهم التي تحارب الظلم والظالمين، ثم تمر الأيام، وينكشف المستور فتنتشر أخبار فضائحهم التي تزكم الأنوف، ويتبين أن ما كانوا يتظاهرون به من عدل واستقامة لم يك أكثر من خداع في خداع، وعندما أمنوا مراقبة مواطنيهم تحولوا إلى وحوش ضارية.. هؤلاء كانوا يخشون من القانون الذي وضعه البشر، وليس من القانون الذي نزله خالق البشر جلّ وعلا.

فأنبياء الله وكل من سار على نهجهم يخشون ربهم أشد الخشية، ولا يأمنون مكره جلّ وعلا إذا انتشر الفساد وعم الظلم، ويعلمون حق العلم أن عذاب الله قد يأتي والناس نائمون أو يأتي ضحىً والناس منهمكون في أباطيلهم ومعاصيهم.

أنبياء الله وكل من نهج نهجهم يقرؤون قوله تعالى:

﴿ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [١٦] ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [١٧] [الملك]

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَكُمُ  
شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾  
[الأنعام]

وقوله تعالى:

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿١١﴾  
[الأعراف]

فترتجف جوارحهم، وتشتد خفقات قلوبهم، وتنهمر الدموع من أعينهم خوفاً  
من عقوبة الله جلّ وعلا.

وهؤلاء الذين نعتز بذكرهم يأمرّون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويعلمون أن  
أفضل أنواع الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر أو أمير ظالم.

وهؤلاء هم الذين أخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن  
ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ولا حياة كريمة للإنسان إلا في ظل هذا المنهج الرباني الخالد، فلنجاهد  
معاً من أجل وصل ما انقطع ﴿... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ  
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ [يوسف].

## الفهرس

٧ \* مقدمة الطبعة الخامسة.....

٩ \* دحض شبهات المبطلين.....

### لماذا منهج الأنبياء؟

٣٨ ١- إن طاعتهم وأتباعهم فرض عين على كل مسلم.....

٤١ ٢- عصمة الأنبياء.....

٤٤ ٣- ابتعث الله أنبياءه بالإسلام.....

٤٦ ٤- الأنبياء دعاة إلى حزب الله.....

٥٢ \* الدين والمنهاج.....

### نوح عليه السلام

٥٩ \* بعثة نوح عليه السلام.....

٦٢ \* كيف بدأ الشرك؟!.....

٧٢ \* دعوة نوح.....

٧٧ \* موقف الملائكة.....



- ٨١ \* نوح وأهله.....
- ٨٦ \* الطوفان.....
- ٩١ \* عبر وعظات من سيرة نوح.....

### خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام

- ٩٩ \* ما بين نوح وإبراهيم.....
- ١٠٣ \* صالح عليه السلام.....

### المبحث الأول

- ١٠٧ \* نبذة عن حياة إبراهيم عليه السلام.....

### المبحث الثاني

- ١١٣ \* ما كان بين إبراهيم وأبيه آزر.....
- ١١٣ \* أولاً: إبراهيم يحاور أباه.....
- ١١٨ \* ثانياً: براءة إبراهيم من أبيه.....

### المبحث الثالث

- ١٢٥ \* صراع إبراهيم مع قومه.....

- أولاً : مشكلة التقليد..... ١٢٧
- ثانياً : دعوة إبراهيم لقومه..... ١٢٩
- ثالثاً: حواراه مع النمرود..... ١٣٤
- رابعاً: بين طاغوت إبراهيم وطواغيت عصرنا..... ١٣٦
- خامساً: إبراهيم يحطم الأصنام..... ١٣٧
- سادساً: إلقاء إبراهيم في النار..... ١٥١
- سابعاً: هجرة إبراهيم..... ١٥٤

### المبحث الرابع

- \* دروس وعبر ..... ١٦١
- الدرس الأول: طغاة عصرنا أكثر ظلماً من طغاة قوم إبراهيم.... ١٦٣
- الدرس الثاني: كان إبراهيم لا يخشى إلا الله..... ١٦٦
- الدرس الثالث: المسلمون كالجسد الواحد..... ١٧٠
- الدرس الرابع: مثالان من أصنام وأوثان هذا العصر..... ١٧٣
- الدرس الخامس: عدم موالاة المشركين..... ١٧٥
- الدرس السادس: قوة إبراهيم وجرأته..... ١٧٧

الدرس السابع: كانت الدعوة إلى الله كل شيء في حياة إبراهيم .. ١٧٩

### المبحث الخامس

\* لوط عليه السلام ..... ١٨١

أولاً: أخلاق قوم لوط ..... ١٨٣

ثانياً: خطورة اللواط ..... ١٨٥

ثالثاً: رد قوم لوط على نبيهم ..... ١٨٧

رابعاً: لماذا أخبر الملائكة إبراهيم بمهمتهم قبل لوط؟ ..... ١٨٩

خامساً: هلاك قوم لوط ..... ١٩٣

### المبحث السادس

\* إسماعيل عليه السلام ..... ٢٠١

أولاً: ولادة إسماعيل ..... ٢٠٣

ثانياً: رواية ابن عباس ..... ٢٠٤

ثالثاً: بناء البيت ..... ٢١٣

## المبحث السابع

- ٢١٩ ..... \* قصة الذبيح
- ٢٢١ ..... أولاً: قصة الذبيح
- ٢٢٦ ..... ثانياً: من هو الذبيح؟
- ٢٢٦ ..... ١- رأي محمد بن كعب القرظي
- ٢٢٧ ..... ٢- رأي السيوطي
- ٢٢٨ ..... ٣- رأي محمد الأمين الشنقيطي
- ٢٣٠ ..... ٤- رأي ابن القيم
- ٢٣١ ..... ٥- قرائن أخرى
- ٢٣٢ ..... ثالثاً: الرأي الآخر

## المبحث الثامن

- ٢٣٥ ..... \* من فضائل إبراهيم عليه السلام
- ٢٣٧ ..... أولاً : كان إبراهيم أمة
- ٢٤٠ ..... ثانياً : ملة إبراهيم
- ٢٤٣ ..... ثالثاً: واتخذ الله إبراهيم خليلاً

- ٢٤٤ ..... رابعاً: أحاديث نبوية في فضائل إبراهيم
- ٢٥١ ..... خامساً: أهمية بلاد الشام

### شعيب عليه السلام

- ٢٥٩ ..... \* المقدمة

### الفصل الأول

- ٢٦٧ ..... \* تمهيد
- ٢٧١ ..... \* المبحث الأول: صور من الظلم في القديم والحديث
- ٢٨٩ ..... \* المبحث الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة على تحريم الظلم
- ٢٨٩ ..... أولاً: الأدلة من الكتاب
- ٢٩٤ ..... ثانياً: الأدلة من السنة
- ٢٩٦ ..... \* أنواع الظلم
- ٢٩٦ ..... -الظلم الأكبر
- ٣٠٠ ..... -ظلم الناس
- ٣٠٥ ..... -ظلم النفس
- ٣٠٦ ..... \* نصر المظلوم

٣١٠ \* نظرية شاملة.....

### الفصل الثاني

٣١٥ \* المبحث الأول: كلمة موجزة عن سيرة شعيب.....

٣١٧ \* هل شعيب هو صهر موسى؟.....

٣١٩ \* المبحث الثاني: دعوة شعيب عليه السلام.....

٣١٩ أولاً: دعاهم إلى وحدانية الله تعالى.....

٣٢٤ ثانياً: جاءهم بينة.....

٣٢٦ ثالثاً: كان قدوة حسنة.....

٣٤٢ رابعاً: واجه قومه بانحرافاتهم.....

### الفصل الثالث

٣٥٧ \* صراع شعيب مع قومه.....

٣٥٩ أولاً: رسول أمين.....

٣٦١ ثانياً: ولا تبخسوا الناس أشياءهم.....

٣٦٧ ثالثاً: الصد عن سبيل الله.....

٣٧٢ رابعاً: ردود مكررة.....

- ٣٧٨ ..... خامساً: فصل الدين عن السياسة
- ٣٨٢ ..... سادساً: ولولا رهطك لرجمناك
- ٣٨٦ ..... سابعاً: التهديد بالنفي
- ٣٩٠ ..... ثامناً: اعملوا على مكاتكم إني عامل

### الفصل الرابع

- ٣٩٥ ..... \* مصارع الطغاة
- ٣٩٧ ..... أولاً: ألا بُعداً للمدين
- ٤٠٥ ..... ثانياً: هلاك الأمم وأسبابه
- ٤١٢ ..... ثالثاً: مترفون معاصرون شهدت نهايتهم
- ٤١٢ ..... -المثال الأول-
- ٤٢٠ ..... -المثال الثاني-
- ٤٢٦ ..... \* استدرارك
- ٤٢٧ ..... \* الخاتمة
- ٤٣١ ..... \* الفهرس